A L I   M A G H A Z I

علي مغازي

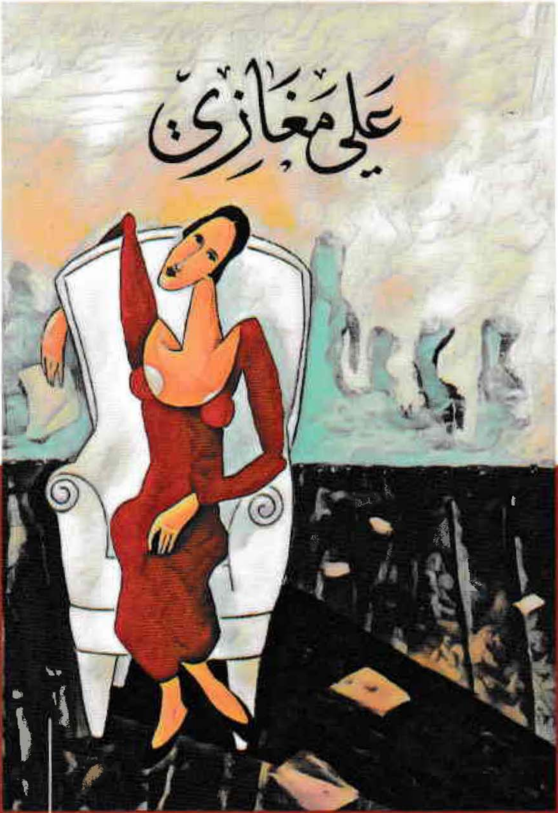

# ستة عشر من عشرين

رواية

مكتبة نوميديا

ميم للنشر

علي مغازي

# 16
# من عشرين

## (Seize sur Vingt)

رواية

ميم للنشر Mim Edition

**16 من عشرين**

**اسم الكاتب: علي مغازي / كاتب من الجزائر**
**سنة الإصدار: الطبعة الأولى سنة 2018**
**دار ميم للنشر، الجزائر**

ردمك: 1-54-585-9931-978
الايداع القانوني: السداسي الثاني، 2018

إلى «سعاد الأساسي»؛ نَفَسُكِ فيِ كلّ حرْف..

# الفصل الأول

# - 1 -

الزمان؛ في يوم، في شهر، في سنة.

أي سنة؟ مبدئيا، اجْعلها 1998، وإن شئت فلتكنْ 1999، أو أكثر. هكذا تتفادى التضييق على نفسك زمنيا. لا أحد يصدق أن رواية مأساوية حدثت خلال أيام أو بضعة أشهر.

اسمعْ؛ إن عنصر الزمان هذا مشكلة، باعتبار أن قصتي لم تتحولْ بعد إلى ماض يفترضُ أن أنظر إليه من بعيد وأتحدث عنه. وبينما أنا أتحدث.. تخيلْ هذه الصورة؛ تخيلْ أنني -أمام الشرفة المطلة على ميناء- واقفة، ويكون ثمة البحر والنوارس وما إلى ذلك. أتحدث بمرارة أو بشيء من الغموض الجميل، هذا لا يهم، إذ لا شيء يعنيني سوى أن أستمر في حديثي إليك، عن الماضي، بينما تستمر أنت في التسجيل.

ستسجل الوقائع دون زيادة أو نقصان، وفي مرحلة أخرى، ستقوم بتحرير ما سجلته، مضيفا بعض التفاصيل الهامة التي سأمدك بها لاحقا على شكل أقوال؛ أقوال، اعترافات، تصريحات، إدلاءات، فقاقيع صابون.. أو لا أدري ما يسمونها!

ما أعرفه أن المحقق في المسلسلات العربية لا ينسى أن يضع يمناه في جيب سرواله الرمادي ويقوم من مكانه، أو يظهر واقفا دون أن يكون قد قام من مكانه.يسدّد نظرة إلى ضحيته؛ أقصد إلى المتهمة، أو الشاهد الأول.. نظرة تنمّ عن ذكاء حكومي خالص! ثم يطلق تلك العبارة: "هل لديك أقوال أخرى؟".

بالطبع لديّ المزيد من الأقوال التي تفيدك في جعْل الحكاية تنبني على وقائع وشخصيات وأماكن وتفاصيل يومية.

«بيبي» عندما تنهي هذه المرحلة، تنهيها مستعينا بي طبعا، ساعتها نتنفس عميقا ثم ندخل اللعب الجاد! أعني؛ الصياغة بلغة أدبية مشوقة تجعل القارئ يستبق نفسه في ملاحقة السطور لاكتشاف ما تسفر عنه الأحداث المتوالية.

من المؤسف أنّ ما سنقوم به الآن -لتدوين هذه الحكاية- هو جزء من الحكاية ذاتها. سنعيش معا، داخل غابة من الكلمات! أنت منسحب إلى جهة الظل، تؤدي دورك هناك، أما أنا فأتوسط صورة الغلاف باعتباري بطلة في فصول حكاية لم تتحولْ بعد إلى ماض يمكن رؤيته -من بعيد- مدونًا في كتاب يوضع -لاحقا- على أحد الرفوف بمكتبة حكومية، أو بالقرب من سرير؛ وهي الصورة المثلى للمرحلة الأخيرة من مشروعنا الكبير؛ بعدها نربط حقائبنا ونرحل تاركين قارئا يقول لقارئة:

"هذه سيرة حياة شابّة، تكفّل بإدخالها التاريخ مؤرخ كهل. الفتاة ستدخل التاريخ، من باب الفضول فقط، أما المؤرخ، على الأرجح سيقيم هناك حتى النهاية".

هذا كل شيء! لكن، لا شيء من هذا يتحقق بسهولة مادامًا؛ (المؤرخ والفتاة) حتى الآن يعيشان داخل زمن الحكاية في الواقع وفي النص المفترض أن يكتباه. وما يقومان به مجرد تمهيد لما سيحدث لاحقا، ناهيك عن الحبْكة وما إلى ذلك.

أقول؛ (ما يقومان به)!

أظنهما لا يقومان بشيء سوى أنهما يخططان لكتابة كلمة افتتاحية للقارئ أو القارئة، تفيده أو تفيدها في فهم مجريات أحداث روائية لا تزال مستمرة، وستظل كذلك.

«بيبي».. هل انتبهت؛ كنت أتكلم عنهما للتو.. الفتاة الشابّة والمؤرخ الكهل، كما لو أنهما ليسا نحن؟!

أقول؛ كنتُ. والآن! الآن نبدأ.

# - 2 -

مرّت الأيام وحلّ ذلك المساء من يونيو 1992؛ الذي يبدأ في قصّتنا هذه بالألوان المعطّرة وينتهي بصفيحة حديد. كانت الأجواء في بيتنا بحيّ «اليتامى»، تبشّر بقدوم العيد. كنا نتصرّف كأسرة منسجمة؛ أمي، أنا وزوجها. كنت أقوم أمامهما بعرض أزياء لملابس أرسلها إليّ والدي. وكانت أمي تتبسم، متلمّسة -في كل مرة- بيدها طرَفا مما ألبس، كأنها تتبين شيئا يصعب أن يتبينه سواها، وعندما لا تجد هذا الشيء تقوم بلمسات خفيفة ناحية كتفي، وتوسّع من ابتسامتها إلى حد التفاخر ببطنها الذي أنجبني بكلّ هذا الجمال وطول القامة.

كانت تطلب مني أن أخطو أمامها لترى إن كان هذا اللّون يواتيني، أو هذا الحذاء وذاك الجورب يستحقّان أن يتذوّقا من لذاذات جسمي الأبيض، كما تعبّر هي عادة ويوافقها زوجها دون تردّد؛ يوافقها بهزة رأس.. هكذا! ثم يندمج أكثر في المرح العائلي، حتى أنّه -يومها- ساعدني في انتعال حذائي ورتّب شعري على كتفيّ لأكثر من مرّة.

كانتْ أجواء البهجة والتّسامح، تملأ بيتنا في ثالث الأيّام التي تسبق عيد الأضحى. والدتي تضحكُ، وزوجها ينظر إليها بعينين

يتّسع ارتخاؤهما إلى الأسفل. ولا يكفّ عن النّظر إليها وهي تضحك. تقريبا بنوع من الحرص على تلقّي ضحكتها كاملة، حتى لا يفوته منها شيء. وبينما هو كذلك، كنتُ أتغنّج وأتمايلُ في مشْيتي. أضعُ قدما أمام الأخرى ثم أخطو باستقامة. وعند نقطة معينة أقومُ بحركة دوران خفيفة فيتموّج الفستانُ. أدورُ ثانية وأدور حتى أسقط، وهكذا تزداد الضّحكاتُ ولا تنتهي.

بدتْ أمي منْشرحةَ الصّدر، إلى حدّ أنّها كانتْ ستوافق لو طلبت منها الخروج لشراء أمور صغيرة تخصّني، وقد طلبت منها ذلك فعلا، لكن بعد أن غمرتُها بقبلات توسّلية متتالية، أغلبها تمثيلي وبحرارة مفتعلة، تضْفي على كل حركة مني نحوها، اندفاعا مبالغا فيه، الغاية منه منعُها من قول "لا"، وهذا أسلوب تستعملُه البنات اللئيمات لفرض طلباتهن.

وكالعادة، وافقتْ أمي وأمرتْ زوجها أن يرافقني.

كان يفصلني شهر أو أكثر بقليل عن بلوغ الثانية عشر من عمري. إلا إنني، رغم صغر سني وقتها، كنتُ قد تعلّمتُ من أمي أن أوْصل في لحظات معينة أحاسيس مزيفة بالسّعادة، وأتمتّع بها كما لو أنها حقيقية. كنت أفعل هذا مع إضفاء لمستي الخاصة، ذلك أن أمي كانت تتوهّم ثم تصدّق أنّ وهمها حقيقة، وتبدأ بتعميمه على الآخرين. أما أنا فلا أتوهّم، بل أستريح من ثقل عصياني ورفضي المستمرّ للوهم. أستسلم للأمر الواقع وأقْبله بما ومن فيه؛ أمٌّ لا تستحقّ أن تكون هي من أنجبتني وزوج أمّ لا يستحقّ احتلال مكان والدي الذي هاجرَ إلى ما وراء البحر وربما سيعود ذات يوم..

ليتك تصدّق أنّ والدي، وحده والدي كان خارج دائرة الوهم هذه. إنّني حتى الآن لا أحقد عليه، ولا أشعر بأنّه تخلّى عني لمجرّد أنني كنتُ سأجيء إلى هذه الدنيا. وقد جئت بالفعل، وصار لي مكان أشغله وأتدرّب فيه على تأجيل نفوري المستمرّ من أمي واحْتقاري لزوجها، وقد أجلته فعلا مساء ذلك اليوم وخرجتُ مسرعة. نزلتُ سلّم البناية -بخفّة قطّة- يتبعني زوج أمي.

عبرنا الشّارع وسرنا على الرّصيف حتى نهاية حي «اليتامى»، حيث الساحة الكبيرة تتوسّطها نافورة قديمة، وإلى اليمين نفق مظلم تمر عبره السيارات المسرعة، وفي نهاية المنظر جسر.

## - 3 -

«سونيا»؛ هذا هو اسمي، ألا يعجبك؟!

نادِني به إذًا، لترى إن كان يعجبُك. أظن أنّه يشبه ذبحة صوتية مُبْرقة، حتى أنّك عندما تكتُبه تشعر برنينه عند أول حرف، مع التماعة ضوء سريعة تمرّ من السين إلى الياء.. هكذا؛ «سونيا»! تمرّ وترتفع مع الألف عاليا وتتلاشي على خلفيّة سوداء لتظهر -بعد برهة- تلك الهالة الكبيرة مرفقة بموسيقي شاعرية، وفي الأسفل عبارة؛ "انتبهوا القصّة واقعية"!

«بيبي»؛ لقد أهدرنَا الكثير من الوقت، قبل أن نبدأ في كتابة هذه القصة الواقعية!

إذا تحلّينا بالصّبر، لا شكّ سننجح، وسيكون من حقنا بعد ذلك أن نهنأ بالنهاية السعيدة لعلاقتنا. ليس ثمّة ما هو أعظم من علاقة تجمع فتاة شابة سيئة الحظ والسمعة بكاتب كهل غير موهوب في كيفية استثمار موهبته. ويحدثُ أن تستمرّ هذه العلاقة حتى تُتوّج بمشروع كبير؛ (تأليف كتاب).

خلال الأيام الأولى من تعارفنا احْتفلنا بمناسبة بلوغي سن الرشد. ويوم أستنفد رغبتي في مواصلة سرد حكايتي، وتضعُ أنتَ لفظة "انتهى"

تحت آخر سطر من آخر صفحة، يومها سنحتفلُ مرة أخرى. بمعنى؛ نحتسي سبعين لتْرا من النبيذ ثم نقول بصوت واحد: "هيا بنا إلى الرقص". نرقص طيلة الليل حتى نفقد صوابنا، وفي الصباح ننظّف المكان وننصرف.

أما اليوم...!

اليوم سنحتفل أيضا، بكل ما يمكن وما لا يمكن الاحتفال به. لقد تحقّقت المعجزة؛ التقينا صدفة! أنا كنتُ على وشك الانهيار يوم كنتَ -أنت- على وشك إعلان نهايتك. أعطيتني كتفك الرّحيمة وسمحتَ لي أنْ أضعَ رأسي عليها، هكذا... أُنظرْ! تقريبا هكذا؛ يا لِرأسي وهي على كتفك!

وماذا بعد؟

أتظنني بكيت؟!

**كلا.. أو.. ربما بكيت، حتى شعرت بالسكينة فأعطيتك كتفي أيضا.**

**«بيبي»؛ أرجوك لا داعي لهذا التقعّر باللغة! أقصد افتعال مشاهد النكد من البداية، حيث التنهيدة الخافتة تمهّد لمنظر كتفي الصغيرة وهي تستقبل رأسك المثقلة بالهموم. بعد ذلك تأتي تذبيلة العين، تليها الكلمات.. كلمات تغلب عليها أنفاس حارّة! أنت تعرف هذا النوع من اللغة.. يزهر دائما في النّكد.. هيا نلعبْ بعيدا.**

**أنا لم أُعْطِك كتفي. هاهي ذي كتفي كما ترى؛ لا وجود لأثر عليها! حتى أنها تبدو أصغر من أن تتحمّل ثقل رأسك!**

**أتُراني أعطيتُك شيئا آخر.. أتُراني فعلت ذلك؟ لكن ما هو.. بالله عليك ما هو؟ لأنني حقا لا أدري! ربما ألهمتك! بمعنى؛ تقريبا كان ثمة ما يشبه**

النافذة! وحدث أني -بعد لحظات قصيرة- جئتُ فأزحتُ السّتار الأسود عن زجاجها، فإذَا...

«بيبي»، النّافذة ليست كما في الواقع طبعا، والسّتار أيضا! الستار مجرد شيء مفترض -بحجم يدي- كان يحجبُ عنك الرؤية، و...

**دعنا من ذلك.**

**ما أريدُ قوله -بعيدا عن التقعّر باللغة- أنني في اللحظة المناسبة أزحتُ** هذا الشيء اللعين على منظر لم تتوقعْه من قبل؛ شجرة مضيئة الأوراق تظهرُ **تدريجيا من خلال شفيفة مضبّبة. التّضبيب هنا ليس على زجاج النافذة التي لا وجود لها في المشهد، بل، تقريبا، افهمْ.. إنه تضبيب طبيعي يزول لحظة تبدأ العين في استعادة نعمة البصر.**

واحد،

**اثنان،**

**ثلاثة،**

يا للمنظر.. إنه كحلم جميل!

# - 4 -

سلكنا ممرّا ضيّقا يُفضي إلى أحد فروع شارع «إفريقيا» الفوضوي، لنختصرَ طريقنا إلى محلات «اللّوتس» الواقعة في شارع مواز له. لا أظن أنّ أحدا من الناس يعرف اسم هذا الشارع، رغم أن به أفضلِ ما في هذه البلاد من محلات أغلبها خاصة ببيع الألبسة النّسائية، يعملُ بها أفراد مهذبون جدا، ناهيك أن واجهاتها مؤثثة بأسلوب بالغ الرّقي، حيث تعرض فيها أنواع ونماذجُ السلع مع تسليط الإضاءة عليها لإبراز جودتها وإثارة انتباه الزبون. في الداخل تشعرُ أن الرّفوف الصغيرة المنسقة تناديك كي تقترب منها. إنّها أفضل المحلات يا «بيبي»، عليكَ أن تزورها ذات يوم. سترى كم هي مختلفة عن تلك الموجودة في الشوارع الشعبية الأخرى المزدحمة بكل شيء، حيث دمى المانيكان الرّخيصة أكثر من عدد الزبائن. يا إلهي كم يرعبني منظرها! إنّ بعضها مكدسٌ على جوانب الأبواب الحديدية وداخل المحلات، فحيثما تولّ وجهك يقابلك جذع دون رأس أو برأس لكن بلا أطراف، وثمة مانيكانات تلمسها بالخطأ فتسقطُ دون أن تتغيّر ملامحها، وأخرى مثبّتة جيدا في الخارج، بينما الباعة يقومون بنقلها

دون أن يرفّ لهم جفن. إنهم يفعلون ذلك دون تفكير بأن هذا الكائن الفاقد للشعور قد يبعثُ في الآخرين شعورا ما.

بعض الناس يستحي من وجود مانيكان على الرصيف في حالة عُري، وبعضهم يشعر بشفقة من نوع خاص إزاءه، بعضهم تتحرّك لديه أحاسيس جنسية لرؤية مانيكان مكشوف العورة، بعضهم يرغب بالحديث إلى المانيكان لكنّه لا يجرؤ.

الأمر مختلف تماما في المحلات الراقية؛ إن بها مانيكانات ذات تصميم جيد، تحاكي جسم الإنسان في أقصى حدود مثاليته! وعادة ما تكون محاطة بأضواء معبّرة، بينما الرأس مائلٌ والشعر منسدلٌ واليدان تنثران وردا خفيا، وهذا ما يُعطي إحساسا بأن هذا الذي يشبه الإنسان في سجنه لا يتعرّض للقهر دائما، إنه مصان الكرامة في محلات «اللوتس».

ذات مرة رأيتُ مانيكانا فاقدا لإحدى ساقيه فبكيتُ بشدة.

# - 5 -

لاحظْ؛ أنا لم أعطِك شيئا. ربما أزحتُ ما يمنعك من اختراع شيء.. بمعنى؛ حلم! حلم جميل، اتّخَذتَه فيما بعد نقطة بداية، بينما كنتُ أقف إلى جانبك. هيا، اجتهدْ في إيجاد تعابير تلخّص جمال منظرنا، هنا تحديدا، وفي هذه اللحظة بالذات! أقصد؛ الزمان والمكان و...

ماذا أيضا؟

الحوار.. لا!

في الواقع، بوسعي تذكرها جيدا؛ تلك الشروط التي من دونها لا ينجحُ الناس في سرد قصصهم. وعليه؛ تَكَفّلْ أنت بذلك. أما أنا، سأركّز اهتمامي على خاصيّة الحدث، والحدث هو أنّنا معا.

سجّلْ، نحن معا، يدا بيد؛ الكتفان متلاصقان والهواء يعبث بشعري! بينما السماء في نهاية الأفق الْـ...

لا شيء! مجرّد تقعر لغوي آخر، هذيان، إذْ لا وجود هنا في المشهد لسماء وهواء، إنه كأية صورة خيالية.

اسْمعْ؛ واقعيا نحن الآن في الغرفة.. لو وضعنا مرآة -في الجهة المقابلة - سنرى -في هذا الوقت وفي هذا المكان- منظرنا الذي يُوحي تقريبا -حتى دون هواء يعبثُ بشعري- بالكمال، وإذا كان لا بدّ من وجود نقص فهو بالتأكيد في مكان ما.

نقص! أو بتعبير أدق؛ خلل! إيه خلل... يتعمّق أو يتلاشى أو يكون ما بين بين! هذا لا يهم مادمنا نحتفظ بعبارتنا الذهبية؛ "نحن معا". يا لها من عبارة! اكْتبها مئة مرة؛ نكاية في الأشياء، وبعد ذلك، افتح النافذة وشاهدْ ما يحدثُ في الخارج. الشمس؛ إنها هناك مشغولة بتوزيع ضيائها على كل شيء! أُنظرْ إليها وهي تتقدّم على مهل نحو الأماكن المغطاة. سرعة إنجاز رهيبة؛ أليس كذلك يا «بيبي»؟!

إذن، هيا نستدركْ تأخرنا لنواكب هذا اليوم الجديد، الذي يخيّل إليّ أن الله أنهى في ظرف وجيز مراسم افتتاحه. لو كنتُ قد عثرتُ عليك يا «بيبي» قبل سنين قليلة لما استَدْرجَتْني إلى الغرق فيها هذه البركة الزّاخرة بكل أنواع الخراء الطازج.. هذه البركة المسماة؛ حياتي. دعني أتنفسْ عميقا وسأشرع في الحديث عن حياتي. بعد ذلك، يكون عليك أن تستمع إليّ بانتباه شديد وتدون ما أقول؛ أتفهمني؟!

آه.. هكذا هي الخطة إذن، فلنبدأْ.

هيا، تفضلْ.. أو قبل ذلك، دعْني أخبرك بشيء يشغل بالي.. تقريبا؛ "فكرة"! لكن بشرط، خذْ بها كما هي، ولا تطالبني بتفسيرات معقولة بشأنها. وإن شئت سجّلْها كجملة استهلالية؛ فاتحة، مبدأ هام لتسهيل الفهم، أو إهداء. إيه؛ إهداء يكون كالآتي:

"من أجلك يا سونيا سأكتب بأنيابي وأعصابي وأظافري ورموش عيني حكايتك اللطيفة.. سأكتب كلمات تعدّ بالآلاف، أبني بها لك بيتا رائعا على شاطئ البحر".. و.. و.. و..

«بيبي».. ما أعرفه أن الإهداءات غالبا ما تكون قصيرة، لذا يتوجّب عليك إيجاد كلمات قليلة ذات معنى في الواقع بحيث تفيد جميعها أن البيت الذي ستُهديني، إنما هو بيت حقيقي به حمّام ومدفأة وخزانة ملابس وطاولة أكْل و...

وبالتأكيد سرير؛ طبعا السرير -واقعيا- يمكن وضعه في الغرفة الصغيرة ذات النافذة المضيئة التي خلفها... مبدئيا يكون خلفها قمر؛ إيه.. قمر.. هل مناسب؟ بل خلفها شجرة؛ ولتكنْ شجرة برتقال! أو، ربما "ليمونة"؛ نسميها كذلك لإضفاء شحنة من العاطفة على المشهد المطلوب منا جعله مكتملا، مثلما هو القمر مكتمل، لكن ككلمة شاعرية فقط، إذ في الواقع يبدو غير ذلك تماما. البرتقال أيضا مكتملٌ لمجرّد أنه فاكهة برتقالية اللون والشكل والطعم.

وحدها -وراء نافذة البيت الذي ستهدينيه- تنمو في الطبيعة وتعطي ثمارا جميلة، وفي ذات الحين، مفيدة لإزالة الدهون اللغوية. أقصد ليمونتنا المفترضة؛ تطل بأغصانها على بطلتك وملهمتك «سونيا»، التي هي أنا؛ المعنية بالإهداء.. ما رأيك؟

سأكون، خلال المشهد -في حال اكتماله- مستغرقة في النوم، بينما أنت تحيطني بنظرة تفيضُ مودّة وتسامحا؛ نظرة تعكس ما في أعماقك من أحاسيس رقيقة، شفافة يصعب عليك.. أقصد، تحاول إيجاد عبارة معادلة

لها فتعجز تماما، وفي الوقت ذاته تستلطف عجزَك هذا فتبتسم، وهكذا يرتسم على ملامحك تعبير عاطفي يشبه تقريبا ما تودّ قوله: "يا لهذا الكسل الجميل"! و... لا شيء آخر.

أظن أن نظرتك الدافئة ستغمرني بشدة فأستغرق في نومي أكثر، لكن في لحظة محدّدة، ألقي بذراعي إلى الفراغ.. هووووب.. هكذا! حركة تلقائية بريئة مثيرة ومضحكة، ترافقها مَطْمَطَة على الشفتين فمسحة عبثية على الأنف بظاهر اليد، وينتهي كل هذا باكتناز شيء ما على الملامح وما إلى ذلك.

أقول أستغرق في نومي، بينما نظرتُك الرّحيمة تغطيني. هذا هو المشهد فاحذرْ أن تطيله أكثر من اللازم. قد تفلتُ مني ضحكة حتى وأنا نائمة فأفسد كل شيء. وعليه؛ يفترض أنّك ستطبع قبلة على جبيني وتتراجع خطوات. حان وقت المغادرة. في الواقع لا داعي للقبلة. اسحبْ معطفك فحسب، اسْحبه من المشجب وضعه، هكذا.. على ذراعك. أما حذاؤك؟! بالطبع ستنتعله بهدوء حتى لا توقظني، بل ستنتعله بمجرّد أن تغلق الباب وراءك.

أنت الآن خارج البيت، خذْ نفسا عميقا وتحمسْ لملاقاة العالم الذي ينتظرك لتساعد على إفشاء المزيد من الفوضى وإشعال الحروب ونشر الأمراض المميتة في كاملِ جهاته. العالم يعتمدُ عليك في مهمّة تدبير أخطر مكيدة تنتهي بهلاك الجميع. وبينما يكونُ الجميع في حالة هلاك، أكون لا أزال بعد نائمة ولا شيء يزعجني، اتفقنا؟ انتهى مشروع الإهداء، هيا بنا نبدأ.

تفضلْ. هاهو مكتبك بانتظارك، أُنظرْ؛ إنه نظيف مرتّب ولا أشياء مبعثرة عليه. أما الكرسي؛ ها هو الكرسي ينسحب تلقائيا إلى الوراء مفسحا لك المجال لتهيىء نفسَك للجلوس.

واحد، اثنان، ثلاثة.. هووووووب!

الكرسي في مكانه متحمّس لاستقبال مؤخرتك اللعينة. اجلسْ وكفّ بالله عليك، كفّ عن هذا الضّحك المجلجل، وعن افتعال حجج أخرى للمماطلة.

اكتبْ؛ أو قبل ذلك، إليك الآتي..

# - 6 -

وصلنا..

دخلتُ المحل وتركتُ زوج أمي عند الباب. اشتريتُ جوربين أسودين ومسّاكات شعر وما إلى ذلك من تلك الأمور الصغيرة، وخرجتُ لأفاجَأ بمنظر مرعب؛ عنق زوج أمي في قبضة رجل ضخم الجثة! بمعنى؛ جسمٌ شبه معلّق على جدار وحنجرة بارزة بينما كفّ الرّجل تضغط عليها وتعصرها بلا رحمة. لقد رأيت الدّموع تنْزل من عيني زوج أمي الحمراوين وهو يحاول الصّراخ ولا يستطيع.

لم يجرؤ أحدٌ على مساعدته، ولم يقوَ هو على المقاومة. كان يمسك فقط بتلك الذراع الضخمة، وقدماه تتقافزان بالتّناوب. هرعتُ إليه ورميت بنفسي بينه وبين الرجل. صرتُ أدفع جسمه لأخلّصه من موت مؤكّد، لكنْ دون جدوى. لقد كان الرجل الضخم غير مكترث ويريد خنقه بقبضته الحديدية أمام الملإ.

ابتعدتُ خطوات وصرخت في وجوه المارّة، بكلمات لا أتذكرها، ربما أطلقت شتائم، وكانت عيناي تفتّشان بجنون ولهفة في الأرض عن حجر أو قطعة حديد، كان الرّصيف نظيفا، وحشود الناس تمرّ وتنظر بلا اهتمام.

رميت ما بيدي واندفعتُ ثانية باتّجاه الرجل الضخم القاسي المتوحش، وسدّدت ضربات يائسة إلى بطنه، ثّم إلى منطقة الخصيتين. صرخ الرّجل في وجهي وسبّني: "من هذه القحبة.. ابنتك؟!".

تراجعتُ كذئبة شرسة والغضب يملأني، وكانت بالجوار فتاتان ملفوفتان في السواد، تنظران وتتشفّيان؛ إنهما السّبب فيما يحدث. كان يبدو من ملامحهما أنّهما ضاجعتا حتى كلاب الشّارع. انْقضضتُ على إحداهما فجرّدتها من خمارها شادّة إياها من شعرها.. هكذا..! شددتها فصارت تصرخ. تدخّلت الفتاة الثانية وهاجمتني. تلاحقت الضّربات وتشابكتْ الأذرع. زادتْ فورة غضبي؛ صرت أرفس بقدمي وأغرس أظافري في وجه هذه وتلك. وهكذا سال الدّم في عراكنا الجانبي.

انْدفع الرجل الضخم نحوي وأبعدني عنهما، تاركا زوج أمي ببقية روح متردّدة وساقين ترتعشان.

تجمهرَ النّاس هذه المرّة حولنا بعد أن سقطَ زوج أمي مغشيا عليه وبوله الأصفر ينساب على الرّصيف. بقي على هذه الحال لدقائق معدودات، وكنتُ أنا بجانبه أجهشُ بالبكاء؛ جسمي يرتعش.

تقدّم أحدهم وحاول تهدئتي، لكني صددته. كنت أريد مساعدة.. أيّة مساعدة كانت. بينما الوجوه ظلّت حولي صمّاء مسطّحة. وفي ذروة إحساسي باليأس اقْتحمَ شاب الجمعَ المحيط بنا، وانْحنى على جسم زوج أمي؛ فكّ جميع أزرار قميصه وطلب مني أن أسند رأسه. وضع أصابعه في فمه وعدّل من وضع لسانه، وفي هدوء تام قام بإجراءات أخرى ثم ضغط على صدره بحركة اهتزازية.

بعد لحظات قليلة سحبه بمساعدة بعض الرجال إلى مكان بعيد عن محلات «اللّوتس». انْتبهت أنّ شرطيا في الخمسين بعصاه السّوداء كان يتفرّج على المنظر، بينما المتجمهرون يتبادلون أحاديث جانبية.

كانت الفتاتان تقفان إلى جانب الرّجل الضخم القاسي، وتتكلّمان بصوت مسموع وتطلقان ألفاظا بذيئة وتهديدات. توقّعتُ أن يتدخّل الشّرطي ليلجمهما، لكنه لم يفعلْ، واكتفى بتهدئة الأمور. وعندما وقف زوجُ أمي أخيرا؛ تقدّم نحوه الشرطي وسأله عن حاله بكلمات متلاحقة. وخلال ذلك اقترب منه بما يوحي أنه سيساعده على الوقوف، لكن زوج أمي أشار بيده؛ أن لا حاجة لذلك.

مشى بضع خطوات على مهْل؛ إنّها خطوات تاريخية حقا! مشى وتوقف قليلا، ثم انحنى وتنفّس بعمق. جاءت عاملةُ من محلات «اللّوتس» وأعطتْه قنّينة ماء ومناشف ورقية. شكرها وقال: "أنا بخير". لحق بنا الشاب المسعفُ، أعطاني كيس المشتريات اللعين الذي كنت قد ألقيت به على الأرض وقت العراك. ودّعنا بحركة سريعة وانْصرف.

لم يكنْ ممكنا أن أتحدّث إلى زوج أمي وهو على هذه الحال المزرية، ولا أن أطلب منه تفسيرا صريحا لكلّ ما وقع، أو أسأله عن هوية الرجل الذي اعتدى عليه أو الفتاتين المتّشحتين بالسواد. لقد كان منهارا تماما، وكنت أحاول فقط، نسيان هذا الكابوس، والخروج من حالة الرّعب التي أصابتني؛ يكفي أن نكون الآن بسلام لنعود أدراجنا إلى البيت حيث المرح والطّمأنينة والدفء العائلي.

## - 7 -

«بيبي».. أظن أن كلامي -كل كلامي حتى الآن- أقصد؛ فكرة الإهداء وما إلى ذلك، أليست مجرّد أشياء رديئة؟! إذْ لا يليق الإقرار بالنوايا السيئة إزاء العالم، خصوصا إذا تعلق الأمر بكتاب. ثم إن الجمهور لا يتقبّل تلك الطريقة في الكلام؛ طريقتي. حاول تنقيّة كلامي من الهذيان والسخافات! هذا دورك. احْرصْ على تجميل تعابيري، بمعنى: قلّمْها، هذّبْها بكل لطف، وفيما بعد، لونْها واجْعلها تلمع.. أُنظرْ.. اجْعلها تلمع هكذا! فأنا لا أحب أن أخدش بتعابيري الحادّة الطويلة هذه، ولو دون قصد، مشاعر قرائك الطيبين.

ابدأْ، لقد آن الأوان أن نبدأ. أما فيما يخصّ كلامك عن الظروف المحيطة بنا، قلتَ؛ إن هذه الظروف غير مواتية و...

«بيبي»؛ بالله عليك، ما دخل الظروف في هذا؟! الظروف! يا لكل هذا الـ...عائم في المني! أنت حقا مفتعل أعذار واهية. تدّعي دائما أنك على حق. إذا كانت الظروف المحيطة بنا سيئة فعلا، إذا كانت كذلك فأسوأ ما فيها أنها محيطة بنا! أقصد؛ أنت وأنا مكمن السّوء.

إن الظروف أكثر من مواتية، وما علينا إلا ترْك الأعذار بعيدا.

«بيبي»؛ ألا ترى أننا بدأنا فعلا؟! أقصد؛ على الأقل اقتربنا من أجواء الحالة التي انتظرناها. وما نقوم به الآن، مجرّد استعدادات أخيرة للدخول فعليا في عمق هذه الحالة. إنها ساعة الحسْم. شغلْ خيالك لتدرك أهميتها، شغله وتحمسْ، لكن ليس أكثر من اللازم، حتى لا يُخيل لك أن طبلة أذنك تستقبل أصوات أهازيج عالية.

ماذا؟!

أنا من يماطل الآن؟!

كلا، لا أظن ذلك، أو في الواقع ربما! أقول.. ربما.

اسمعْ؛ لا أريد أن أكذب عليك، ذهني مشوش، هذا صحيح.. مشوّش قليلا! بسبب شعور غامض بالمسؤولية، ينتابني إزاء هذه التجربة الفريدة، إنها على الأقل لم تخطرْ ببالي.. وها.. إن نظرتك تربكني، مصوبة نحوي بإمعان، تربكني، فيحدث لي ما يشبه فارق التّوقيت البسيط، كما في حوار صوتي يستبق حركة الشفاه، أو العكس، تقريبا هذا ما يحدث لي الآن.

إنني أستبق نفسي بحيث أتجاوز الأفكار النّاضجة فأتركها ورائي، وألاحق تلك التي في طور النّضج، وهذا.. من المؤكد.. خلل.. إيه خلل. يسبب أحيانا نوعا خاصا من التّسرب الذهني الطفيف، غير الضار، أقول أحيانا، لكن غالبا ما يكون، أقصد.. التّسرب الذهني، غالبا ما يكون ضروريا لتنشيط الذهن. ثم إن هذا الخلل في مجمله غير محدّد المصدر، كما أن معالجته تقريبا مستحيلة.. أو في الواقع، معالجته ممكنة، لكن التخلص منه مستحيل. وإن شئت فلنقلْ إن التخلص منه قد يجعله يتطوّر إلى فجوة،

وعليه فأنا متعايشة مع هذا الخلل باعتباره خصوصية وليس عيبا. إنه يعيش بداخلي كشيء واحد متجاوز بعضه؛ لماذا (واحد) وليس أكثر؟ لا أعلم، حقا لا أعلم لماذا قلت واحد!؟

عموما، هذا مجرد خلل طفيف يقع تحت مسؤوليتي، أعدك، سأحاول تحمّل مسؤوليتي إزاءه. أما أنت فحاولْ استثماره، اتفقنا؟!

هيا حان دورك، رحّبْ بي من جديد، ثم قمْ بدعوتي للجلوس؛ أُدْعُني بإشارة انسيابية من يدك تكون مصحوبة بخفضة رأس خفيفة. كم أحب هذه الأمور! سأغمض عيني؛ أشهق وأزفر بكثير من التّمعن. وخلال ذلك أفكر مليا بأفضل طريقة تمكنني من الوصول إلى حالة من الصفاء الذهني الكامل. أعني بهذا ذلك النوع من التفكير الذي يلجأ إليه الناس عندما يكونون بصدد البحث عن طرف الخيط.

لاحظْ، إنني أجلس مقابلة لك؛ ساقا على ساق. تقريبا مقابلة لك. ألا أبدو هانئة مسترخية.. ألا أبدو متفرغة تماما؟! لولا أن هذا الكرسي.. أُنظرْ كم هو غير مريح! منخفض أكثر من اللازم، كما أن سُمْكَ بطانته الإسفنجية لا يناسب طريقتي في الجلوس. مسكينة هذه الإسفنجة الملبّسة بعض أجزائها بجلد مغشوش، قاومتْ طويلا، وفي آخر الأمر تآكلتْ من فرط الاستعمال. لو كان لديّ بعض الوقت لفكرتُ بإصلاحها. أما الآن فكل همي أن أمسك بطرف الخيط.. خيط الحكاية، وأحاول الكلام، بعد ذلك، دون أدنى تفكير مسبق، أي بكل حرية وإلا..!

«بيبي».. اسمعْ؛ إذا لم يساعدْني إحساسي بالحرية النابعة من هنا -من القلب- على جعل الكلمات تتكلم فلا داعي للاستمرار في هذه اللعبة!

أرفض أن أكونَ تلميذة جيدة، أو غير ذلك، أرفض أن أكون محلّ تقييم في أية لحظة من حياتي. أريد أن أتكلم عن نفسي، برغبة مني فحسب، على أن يدعمَ وجودك هذه الرّغبة؛ الرّغبة في الكلام بلغة تتجاوز منطق المُسمِع والسّامع.

لطالما كان هذا اللسان يشتغل مطلقا صوتا عاليا لإنهاء حوار سخيف مع أمي، أو مكتفيا بالهمس لقراءة نص مسألة حسابية في المدرسة، أو يشتغل بلا صوت كما يحدث خلال موقف التّعرض لأسئلة ابتزازية يلقيها على مسمعي شرطي حازم، بمعنى أن حزامه مشدود إلى بطنه جيدا، وبمقدار ما يكون حزامه مشدودا أكثر من اللازم، أبدأ أنا بحلّ حزامي، أو بحلّ أي شيء قابل للحل، ليتحول الأمر إلى مجرد لعبة مكشوفة؛ لعبة شدّ وحل.

حل ماذا؟

لا أدري.

بالتأكيد ليس حل لغز. ربما حل أزرار قميصي، أو تقديم وعد بذلك. وتنتهي الأمور بعد لقطات سريعة إلى.. لا شيء؛ هكذا يكون الكلام بلا صوت.

قد أحصل على علامة جيدة، 16 من 20، يسجلها الشرطي على هامش محضر مدون في دفتر صغير: لا خطوط، لا تواريخ، ولا أرقام به!

حيلة مفضوحة النوايا للطرفين، تقوم على قاعدة؛ (أنت تخدعني وأنا أنخدع لك). على أنه في النهاية؛ (أنت تحصل على ما تريد وأنا يُخلى سبيلي).

وعلى افتراض أنني في البيت مع أمي، إذًا لا بدّ من وجود حفنة عدس يجب تنقيتها من مخلفات البيدر. هذه مشكلة يجب حلها. ثمة دائما ما يجب حله؛ حل مسائل حسابية كتلك التي... ... أقصد أيام المدرسة..

كانت مسائل أغلبها سيئة الحبكة، يكون بطلها عادة فلاحا فكّ حزامه وباع قطعة أرض لتاجر؛ هل من الضروري وصف هذا التاجر يا «بيبي»؟!

إنه تاجر، وليس شرطيا أو معلّما أو أُمّا فاقدة لبعض أسنانها العلوية، أو كاتبا مثلك يدوّن أقوالي ولا يريد إخلاء سبيلي. إنه تاجر فقط، يعيش في مسألة حسابية.. يعيش! ويكون المطلوب مني في هذه الحالة أن أنجز إجابة صحيحة عن السؤال المرقون بخط مضاعف، أسفل المسألة: ما هو سعر المتر الواحد لقطعة الأرض؟

كما ترى، إنها مسائل بسيطة للغاية، بحيث كنت أقوم بتشغيل ذهني لفترة وجيزة فأنجح في حلها. أما الآن، فالأمر مختلف جدا: إنني بمواجهة لعبة لا تتطلّب مني تشغيل ذهني فحسب، بل الاشتغال على ذهني في حد ذاته، وذهني كما تعرف -رغم صغر حجمه- فهو ليس مجرّد حفنة من العدس يمكن وضعها في صينية، على الطاولة أمامي، وتبدأ أنت -كما كانت تفعل أمي- باستعجالي في تنقيته من الحصى والوساوس الدخيلة والالتباسات وباقي الشوائب الأخرى..

إنه ذهن، ذهن كامل، مشحون بأمور عادية وأخرى غامضة وبهواجس غير متوقعة؛ بعضها سري وبعضها غير ذلك تماما. إضافة إلى تشكيلات من الهموم والذكريات والمشاعر المتناقضة.. كل هذا يصعب فرزه في لحظة واحدة! هل لأحد أن يفعل هذا في لحظة واحدة؟

كلا، لا أظن! حتى ولو كان الأمر يتعلق فعلا بحفنة عدس، أو بحفنة أسئلة يستفزني بها - لكن بالقانون - شرطي حازم يريد الإيقاع بي، أو حتى مسألة حسابية لعينة أعمل على إنجازها بالمنزل، لأحصل في الغد على علامة جيدة من معلم قهره الكبت، فجاء بكل لطف، ليقهرني.

في الواقع كان يبدأ بالتربيت على كتفي عندما يستلم مني ورقة الإجابة. ويظل يُربّت ويُربّت.. بينما أنا غير مهتمة. لكنّ لحظة جنون خاطفة تتلبّسني فجأة فأصرخ؛ تخيل هذه اللقطة! تخيلْ كيف أصرخ بوجه الشرطي ذي الحزام المشدود.. أصرخ! وفي لقطة أخرى موالية، أزيح بحركة عصبية يد المعلم الرّطبة من على كتفي. أفعل ذلك حتى دون أن أكلّف نفسي مشقّة النظر إليه.. إليهما؛ الشرطي والمعلم!

في لحظة جنون خاطفة أخرى، أفلتُ صينية العدس من يدي وأشاهد منظرها بالتصوير البطيء وهي تسقط.. تسقطُ.. ولا أهتم بما سيحدث بعد ذلك.

دائما كنت لا أهتم، دائما كنت هكذا؛ أفعل ثم أفكر.

والآن!

الأمور تبدو مختلفة.

إنني أعيش واحدة من المرات النادرة التي أجدني فيها أفكر قبل أن أبدأ ما أريد البدء به.

«بيبي».. حقا أنا مرتبكة قليلا، أو شيء من هذا القبيل. أحاول أن أحاول، فلا أنجح إلا في هز كتفيّ عموديا. وفي ذات الوقت أململ أسفل جسمي. اللعنة على إسفنجة الكرسي هذه؛ أشفق عليها وأودّ لو أتلفها! سُمْكها لا يسمح لي بململة أسفل جسمي؛ ملْملَتِه هكذا! حتى أستقرّ تماما في جلستي. وتكون لتلك الململة السّفلية (إنها سفلية قياسا لمستوى الرؤية المتاحة لك، باعتبارك تجلس وراء مكتبك غير الفخم طبعا، أو الذي هو طاولة أكثر من كونه مكتبا، ناهيك أن هذا الكرسي منخفض أكثر

من اللازم) أقول؛ إن تلك الململة تكون متناغمة مع حركة هز الكتفين. ويتوقف كل هذا في لحظة واحدة. أي تثْبت الصورة. فيما تبقى اليدان -يداي طبعا-، تعصران بعضهما، هنا عند ملتقى الفخذين المضمومين؛ تعصران بعضهما جيدا! كل هذا في لحظة واحدة. وتنتهي هذه اللحظة الواحدة بأن أبتلع ريقي بعناية، في انتظار أن تخرج من فمي أولى التعابير.

لدي الكثير مما يمكن قوله، لكن، لا أعرف كيف! ثم إن هذا الضحك اللعين يغلبني فيفسد كل شيء. هل أتصرف برزانة وأكون جادة أمامك بينما أنت تنظر إلي؟! كن صبورا يا رجل، وكفّ عن إرباكي، لا تنظر إلي هكذا؛ كما لو كنت تتوقع مني إطلاق خطاب تاريخي.

# - 8 -

كان الوقت عشاء. وصلنا باب العمارة التي نسكن فيها، وإذا بالرجل المتوحّش القاسي يعترض طريقنا بينما الفتاتان تقفان إلى جانبه. صُعقتُ وصُعقَ زوج أمي حتى كاد يغمى عليه. أمسك الرجل بذراعي وجذبني إليه بقوّة. صرخت وحاولت الإفلات منه، فشدّد قبضته علي ثم كتم أنفاسي بكفه. وبحركة متلكّئة سحب سيجارة من جيب قميصه. ناولَتْه إحدى الفتاتين قدّاحة. وكنت لحظتها أتخبّط كفريسة بين مخالب وحش. أحاول الإفلات منه. وخلال ذلك التقطتْ عيني صورة قطة في زاوية مهملة من مدخل العمارة، كانت تلعق ذيلها.

على الرصيف المقابل مرّ شيخ مسن، ومعه شابان أحدهما يحمل كيسا، وحدث شيء ما جعل الثلاثة يقفون لبرهة. نظر إليهم الرجل القاسي المتوحش فلم يعد لهم وجود، ونظر إليهم ثانية بعدما لم يعد لهم وجود.. ثم.. تقريبا عادت عيناه إلى تحت حاجبيه بلقطة عكسية سريعة انتهت بأنْ حشرَ رأسي تحت زنده وأشعل سيجارته، ونفث دخانه في وجه زوج أمي، وصاح فيه متوعدا:

"سأنكّل بك يا ولد القحبة، وأغتصب ابنتك أمامك، ثم أقتلع مهبلها وأبول عليه وأجعلك تأكله لكي تتذكّرني".

لا أدري إن كان زوج أمي لا يزال يتذكّر ملامح ذلك الرجل القاسي، ولا أدري إن كان لذلك الرجل القاسي وجود أصلا في هذه الحياة.

أما أنا فقد نسيت كل شيء، ونسيت نسياني. وها أنا معك الآن يا «بيبي»؛ أسرد عليك تفاصيل قصتي وأنت تواصل الكتابة. هل لي أن أرى ما دوّنته حتى الآن؟ أو.. لندعْ ذلك حتى آخر صفحة تنجزها. حينذاك يمكننا أن نتفرّغ لبعض المرح؛ قد نذهب معا إلى مكان مختلف ونلتقي أناسا مختلفين ونستمتع بحريتنا.

دعنا إذًا نكمل بسرعة. دعنا نقفز على الأحداث والمشاهد. أرجوك يا «بيبي» افْعل ما بوسعك. إن حمى الكتابة بانتظارك دائما، فعدّ من واحد إلى ثلاثة أو إلى ما لانِهاية! ثم انطلقْ واكتبْ، اكتبْ بحماس، سوّدْ عشرات الصفحات ولا تتوقفْ حتى ندرك ما نصبو إليه.

إنني دائما أرغب في أن أستغرق في النسيان فترات أخرى. لا أريد من الحياة غير النسيان ولا أريد من النسيان سوى أن يتذكرني. إنني أنسى لأحلم، أنسى لأتحرر من شخوص الوهم المحيطة بي، وأنسى لأستسلم وأنغمس في حالة الغيبوبة الإرادية التي طالما كنت أستنجد بها فتغيثني في أصعب اللحظات وأقساها! وهكذا أفلتُ من قبضة الألم، كما أفلتُ من قبضة ذلك الرجل القاسي، في ذلك اليوم المشؤوم.

لقد جعل جسدي طوع إرادته، بينما استعصت عليه روحي المحلّقة بعيدا، بعيدا جدا، في حلم جميل حدث:

[في زمن كنت فيه أنا الطفلة الوحيدة، أجري بين الصّنوبرات، وما إن أجد سياجا حتى أقفز عاليا، عاليا.. أمكث بعض الوقت في الهواء! أغمض عيني.. أعدّ من واحد إلى ثلاث.. وإذا بقوة خفية تبطئ مشهد وقوعي.. و...].

**فجأة؛ انقطع الحلم بصفعتين على وجهي لم أدركْ مصدرهما. وجدت نفسي ممددة على طاولة وسط حجرة رمادية، عالية السّقف. في الواقع لا أدري إن كانت بالفعل طاولة أو مجرد صفيحة حديد، بل إنّها حقا صفيحة حديد سميكة وصدئة وأنا فوقها عارية تماما، مبللة بماء قذر؛ عيناي إلى مروحة السقف التي تدور وتدور بسرعة فائقة..**

**من أين يأتي كل هذا الثلج ونحن في عز الصيف؟! ومن أين يأتي هؤلاء الأشخاص وكيف يدخلون ويخرجون كأنهم أشباح بشرية في مسرح كوابيس؟!**

**وارتفعت الستارة.**

# الفصل الثاني

## - 1 -

إنها مجرد بداية. بالنسبة لي، سأخبرك أولا بأموري البسيطة: اسمي، جسمي، وصور من ذكرياتي عندما كنت أتأهب للدخول عمليا في مصاعب الحياة، محاطة بشخوص الوهم. سأخبرك.. وأكثر! لكن، لن أجهد نفسي كثيرا خلال ذلك حتى لا أفقد ذرة من هذا الهدوء الحقيقي الذي -إذا ما تعمق أكثر- سيتيح لي فرصة التقاط الكلمات من ذهني وتمريرها بيسر وسلاسة إلى طبلة أذنك. سأفعل هذا بكل اجتهاد غير طامعة في الحصول على علامة جيدة منك، تمنحني إياها في آخر المطاف، ولو كانت علامتي المفضلة؛ (16 من 20). يكفيني أن تستمرّ في اهتمامك بي، حتى وإن بقيتُ صامتة عشر دقائق أخرى، حتى وإن خذلتك. لكن بالمقابل، لا تجعلْ هذا الاهتمام كرما تتعمد محاصرتي به وإغراقي فيه حد الاختناق، اجْعله ينبعثْ من ذاتك، شيئا أنتَ تريده بمقدار ما أنا أستحقه، تلافيا لأي حرج يزيد من إرباكي.. الحرج من ألا أكون عند حسن ظنك وظني، فأفشل في تنفيذ خطتي التي تعهدت لك بها، وهي أن أحكي -برغبة مني لا كسْبا لإرضائك- أحكي بحرية تامة، دون ارتباك، حتى وإن كان مجرد ارتباك عابر، وهذا ما أشعر به الآن.

كما ترى؛ ارتباك جانبي طفيف جدا وعابر، كظل باهت يمكن إزاحته بسهولة، كما تزاح خصلة شعر من أمام العين. أُنظرْ، هاااااااه.. هكذا.. أأعجبتك اللقطة؟! إذا كانت قد أعجبتك فافعلْ مثلها، كن مرحا وافعل مثلها، سترى كيف تنتقل مشاعر الإرباك هذه، مني إليك.. تنتقل تباعا. وهكذا تكون أنت في الطرف الآخر تستمع إلي. يسعدني حقا أن أراك تستمع إلي وتمضي في كتابة قصتي وأنا معك؛ معك ولا شيء آخر.

هل ثمة من مسبار لقياس عمق الجديّة والتفاني؟! إذا كان موجودا، اجْلبه حالا لتعرف كم أنا عازمة كلّ العزم على التّخلص من ارتباكي الطارئ هذا لأحكي قصّتي بالتمام.

نعم، أنا أيضا أقدرُ أن أحكي قصّتي: قصّتي المليئة بآفات الحزن ونشوة النّسيان، بالعنف والغدر والمآسي، بالعبث والكفاح، بالأيادي الرطبة والأسئلة المستفزة، بالزيف، بالخبل، بالمجون..

أنا أحكي وأنتَ تكتب؛ تكتب لتسوّدَ مئات الصّفحات وتنتصر على كسلك الذّميم وعلى كلّ من شكّكوا في مواهبك. هيا تحرّكْ يا «بيبي».

قلمك؟!

حسنا، هاهو ذا قلمك، خُذْه.. هذه حزمة أوراق. وعليّ شحنُ نخاعك الشّوكي لاحقا، بدزينات من كلمات التّحفيز تعينك على رسْم أول عبارة بخط أنيق واضح، يناسب أناقة ووضوح أفكارك.

ستتوالى الأسطر والفقرات، ثم المقاطع والفصول. وما هي إلا ساعات حتى ندرك معا نقطة الْـ..لا..ر..جـ..ـو..ع..! حينها أكونُ أنا قد تقمّصت دوري كملهمة محترفة، وتكون أنت سعيدا بوضعك الجديد ككاتب ظلّ

فاشلا طيلة السّنين الماضية.. ظلّ فاشلا.. فاشلا.. فاشلا.. إلى أن قرّر إنْهاء عقْده مع فريق المفلسين وانْضوى بكل شجاعة تحت لواء «سونيا».

مرحبا بك يا «بيبي». دقّتْ ساعة العمل. لدينا الكثير من صواني العدس؛ علينا تنقيتها سويا. إذًا هيا نبدأ، وليلتزم كل منا بدوره. سأحكي بشراهة؛ أما أنت فتكفّلْ بمهمّة التهام كل هذا العدد الهائل من الأوراق.

أوراق.. أوراق.. أوراق بياضها يشتدّ كل مرّة ليثير شهوة قلمك فيجعله ينتصب، ويقسم أمام الملأ أن ينسفَ عذريتها بالكامل: يحرثها، يثلمها، يزرعها ويسقيها لتعطي الثّمر الشّهي، وإلا.. لن يعود سالما منها. إذن أُكتبْ، ولا مانع لدي من أن تُحدثَ تغييرات طفيفة في الأسلوب وتنمّقَ العبارات. طبعا هذا عملك ولا دخل لي فيه، فقط عليك الوثوق بي وبأنّ قصّتي نادرةُ الوجود، حيث لا يملكُ القرّاء إلا أن يقتلوا أنفسهم نحيبا حتى تنفد من السّوق كلّ الطّبعات. لطالما قصصتها على كثيرين: كانوا في أغلب الأحيان يستسلمون لحالة تأثّر بالغة، وهذا لا يوحي أبدا بأنّ جميع الأبطال انْتهوا إلى الموت.

أُنظرْ، هه، مثلا.. ها أنا ذي أمامك! هذا يعني منطقيا أنني أنا.. أنا على الأقل لم أهلكْ تماما، ولن أهلكَ حتى بعد أن أنهيَ معك فصول هذه القصّة التي ستكون أنت كاتبَها والشاهدَ الأول فيها والطّرف الأكثر تورّطا في أحداثها وشخوصها. لكنّك أنت أيضا، في كلّ الحالات، لن تهلكَ تماما.. تماما مثلما لم أهلكْ أنا.

أُنظرْ إلي، أُنظرْ جيدا إلي؛ هذا منخري وهذه مؤخّرتي. أدور حولك طيلة اليوم، ككل يوم: أعدّ لك حليبا بالقهوة.. أجلب لك السجائر.. أجهّز

لك النبيذ. وعندما يصيبك الإرهاق أحيط رأسك بذراعي وأدع صدري يتشمّم أنفك؛ أحيط رأسك هكذا... مشكلتك يا «بيبي» أنّك دأبت على استخراج الحكايات الصّلعاء، من هـ...ـنـ...ـا.. من هذه الكرة المسمّاة رأسك. افهمْ يا رجل، ما برأسك لا ينفع الناس ولا يثير اهْتمامهم. لقد أسْمعتني -من قبل- كثيرا مما كتبت، بصراحة.. بصراحة لم أتأثرْ ولو قليلا.. هيه.. لم أتأثرْ: لم أشعرْ بحمّى ولا قشعريرة، لم تُدمع عيناي، لم أتصبّبْ عرقا، لم يغلبني سلطان النوم.. و...

لا متعة رشفتها، لا خيبة، لا شهوة.. لا فرح عصف بي، لا خوف لا غثيان! لاشيء من ذلك كله! هذا لِكَون جميع أبطال قصصك محايدين وأذكياء، محبّبين للجميع ويتصرّفون دائما بحكمة. إنهم مسرّحو الشّعر، مرتّبو الأسنان؛ بشراتُهم البيضاء تثير حقد التّراب عليهم. وهم أيضا محض خيال.. لا وجود لهم في الحياة مثلما أنا موجودة! أنتصب أمامك بشحمي ولحمي ودمي، أواجهُ وحيدة كلّ هذا العراء! لا عائلة لي ولا جيران، لا معارف ولا أصدقاء! لا شيء سوى ركام من ذكريات سوداء عن أمّ ولدتني وربّتني في بيت حقير تفوحُ من جدرانه روائحُ الخلاعة.

أخبرني بالله عليك: ما معني أنْ تكون كاتبا ولا تملكُ حكايات، بينما أنا أعيش كلّ يوم حكاية مختلفة مع أناس مختلفين، ولشدّة غبائي لم أفكّرْ يوما بتدوين أي منها! تصور؟!

على الرغم من ذلك لم نخسرْ شيئا. لا تيأسْ؛ كلانا وجد الآخر. سأكون ملهمتك، صانعة وصنيعة إلهامك، أعطيك حكايتي كاملة. أما أنت! القلم وما تُسطّر؛ سجّلْ، نقّحْ، دوّن ونمّقْ بما يقتضيه الحال. هكذا تكون شراكتنا

مثمرة. نربح مالا كثيرا، نتقاسمه لاحقا ثم نفترق؛ إذْ لا جدوى من بقائنا سويا بعد ذلك.

أم تُراك؟!

آه؛ دعني أتفحّص نظرتك!

حدّقْ في هكذا! واجهْني، هيا، عينًا لعين، لأرى إنْ كنتَ تريدُ شيئا آخر!

تريدني أنا؟!

كلا؛ لا أظن.. أنت ذو فطنة ونباهة: لك عمل، لك بيت، ولك من يفخر بك.. أهلك يا رجل! أتريد أن تخيّب ظنّهم فيك.. أتريد؟!

أنا أيضا لا أريد أن تخيّب ظني فيك. إذن هيا إلى الكتابة؛ إلى الفقرة الرئيسة من برنامجك الثري. اكتبْ حتى منتصف النهار، ولك علي أن أضع أسفل كل صفحة تكتبها علامة (16 من 20)؛ مضافا إليها قبلة. ثم أنسحب بهدوء، أنسحب، هكذا! أغلق الباب وأتركك منهمكا في عملك. إن احتجت شيئا، نادني طبعا. اتفقنا؟

على أية حال أنا باقية معك طيلة اليوم، كل يوم. أنا معك يا «بيبي»، حتى وإن لم أكن بجانبك. المبدأ أن أكون معك، طيلة النهار والليل.

النهار؛ أظن أنه مناسب للكتابة باستثناء فترة القيلولة. أما الليل؛ فمناسب للتأمل.. أليس كذلك؟! الليل.. أو على الأقل الساعات الأولى منه؛ اجْعلها ساعات للتأمل وإن شئت قم خلالها بتنقيح ما كتبت. أما أنا فسأستغلها في التفكير بما يجب أن أخبرك به لتدونه لاحقا.. سأفكر.. أفكر.. أفكر إلى أن أشعر بالملل! وماذا بعد؟

لا بعد ولا قبل! سأفعلُ أي شيء يمكن فعله: أشغل الموسيقى، أُصلح بطانة الكرسي، أقهقه، أهذي، أقف أمام المرآة، أزيل مكياجي، أدخن. وحين أتعب أبتلع واحدة من تلك الحبّات الملعونة؛ ساعتها تكون أنت قد أتممت تأملاتك العميقة. أسرق القلم منك ثم.. هوووووب.. إلى السرير سرْ. أمدّ يدي، ألتفت إليك وأبتسم.. لا قدرة لك على إرباكي بنظرتك! ستكون نظرتك تحت إبطي بينما أنا أمدّ يدي إلى مفتاح الضوء.

أبتسم ثانية بلؤم؛ طقْ.. ينطفئ الضوء، أستلقي بالقرب منك كقطّة مسالمة، "هيا نصبح على خير".. وأنام.

أنام مغتبطة حتى يطلّ صباح آخر، ويأتي إلي من وراء أيّ جبل آخر.. يأتي.. يأتي رويدا رويدا؛ دُبْ دُبْ دُبْ دُبْ... هكذا.. يقفزُ من النّافذة، يجثو على ركبتيه ويشرع في الغناء: "سونيا، سونيا.. يا وعْدي".

وهكذا أستفيقُ.. دفعة واحدة أستفيق، أستعيد اتّزاني ورجاحةَ عقلي، أزفّ واجب الشكّر للصّباح البهي ثم أبدأ بسرد حكايتي ككل يوم. إنك بالتأكيد لا تريد مني إلا أن أحكي كي تكتب أنت. وأنا لا أريد منك إلا أن تكتب ما أحكيه أنا.. بعدها؛ تذهب أنت بفضلي إلى المجد.. وأنا! أنا أذهب بفضلك إلى.. هاه.. إلى حيث لا أجدك! لأنني ببساطة لا أطيق الحياة بالقرب من رجل تنصحني الدنيا بأن أحبّه..!! رجل يعطيني كلّ ليلة جسده ملفوفا في ورق السيلوفان، ثم يتمدّد وينام مستيقظ الضّمير. رجل هو أنت؛ "محمود الساهي".. وفتاة كانت تحلم ببيت يأويها وكتف تبكي عليه، هي أنا؛ «سونيا».

# - 2 -

الزمان: الاثنين 8 يونيو 1992.

المكان: حجرة في الجحيم.

الديكور: مصباح كاشف في الركن.

يبدأ الحدث بأنشودة آتية من بعيد. المروحة تدور، وعيناي تدوران، أميل برأسي يمينا ثم شمالا. أحاول رؤية ما حولي فلا أستطيع، لكن مع الوقت يزول التضبيب وتتضح الصورة؛ زوج أمي، الرجل القاسي ورجال آخرون يدخلون ويخرجون. وثمة شخص يتغير شكله كل مرة، أظن أنه مختل عقليا، وآخر ربما كان يخفي وجهه.

الحجرة رطبة وبها رائحة كريهة، والخوف يملأ المكان. كانت ضحكات بعض الرجال خارج الحجرة تتناهى إلى مسمعي مخلوطة بصوت الأنشودة الشجي فيرتعش جسدي النحيل.. يا رب أين أنا، ماذا ينتظرني وكيف يمكن الخروج من هذا الكابوس؟ إنني داخل عالم مجهول، ولا إشارة تدل على أنني سأخرج منه سالمة!

- اقترب الرجل القاسي وسألني:

- أهذا أبوك أم هو حقا زوج أمك؟

أجبت على الفور بأنه زوج أمي، وانفلتُ في نوبة بكاء هستيرية، كانت نغمات الأنشودة تتسرب كحمى بين المفاصل.

- إذا تكلم ستكونين بخير..

- لكن من أنتم ولماذا أنا هنا؟!

انتفض الرجل المختلّ عقليا وأطلق سيلا من الشّتائم. رأيت زوج أمي يبكي. كان عاريا تماما ومربوطا إلى عمود؛ جسمه متورم وعليه آثار ضرب مبرح. أمسك الرجل القاسي برأسي وساعدني على الجلوس، ثم أعطى إشارة، فجلب أحد الأشباح كوب ماء، أخذه الرجل وقربه إلى فمي ثم أمسك بشعري من الخلف وضغط قليلا ففتحت فمي، صب ما بالكوب في جوفي وأعادني إلى وضع التمدد ثانية؛ ظهري على صفيحة الحديد. سرى دفء في أعماقي وبدأت الصور السوداء تتلاشى رويدا رويدا..

إنّها مادة غريبة تستولي على كل جسمي وتحاصر مواطن الألم فيه؛ مرحبا بالغيبوبة التي لن أصحو منها إلا بعد يومين، مرحبا بالحلم.. الحلم الذي ينشقّ عنه مشهد رائع:

[مرآة سحريّة تنهض من سطح بحيرة، مرآة تلمع فتتماهى في بهائها الأخّاذ كل حدود الأفق وتنهمر من حولها الأشعة، ولا يبقى في هذا المدى إلا نقطة هائمة في الهواء تحملها النّسمات الخفيفة. إنّها ريشة معلقة بين السّماء والأرض يتأرجح معها بصري، فهي تتهادى على خطوط وهمية إلى أن تستقرّ في كفي. آخذها بطرفي إصبعي وأمرّرها على شفتيّ الورديّتين وعلى أنفي وجفني. أستنشق نفسا عميقا فتتنهد ينابيع في جسدي المتداعي وتحتوي روحي غيمة من العطر..

لحظة ضاجة بالتدفق والعري المترع، أدرك فيها نهاية الحلم أو بدايته، عند سفح الجبل الشامخ حيث فتاي الراعي الجميل يلفني بذراعيه ويرسم على شفتي قبلته الخالدة.. قبلته التي يسكب بها روحه في جسدي ويغيب في هبّة بياض خاطفة].

## - 3 -

دائما كنت أُدعى «سونيا»؛ قبل وأثناء وبعد ولادتي.. «سونيا» في البيت.. «سونيا» في الشارع.. ليلا.. نهارا.. صيفا.. شتاء.. في سجلات المدرسة.. في محاضر الشرطة.. «سونيا» تحت.. «سونيا» فوق.. يمينا.. يسارا..

اسْمي ولن أغيره أبدا.. أتفهم؟ لن أغيره نكاية في هذا العالم. قم بوصف إصبعي وأنا أصوبه إلى هذا المجسم المسمى "كرة أرضية":

واحد..

اثنان..

ثلاثة..

ما هي إلا ضربة بقلامة ظفر؛ طقْ.. هكذا.. أُنظرْ.. ها هو العالم يدور.. يدور.. لكن اسمي يظل اسمي، إنّه الثّابت الوحيد لدي.

العالم يدور، كما ترى، يتحوّل وينقلب.. النّاس يدورون، يتحوّلون وينقلبون، ويبقى اسْمي واحدا مهما تعدّد في حياتي الآخرون. نادتْني به أمي -بالضّبط- يوم اكتَشفتْ أنّها حامل بي، وفيما بعد، ناداني به المدعو (زوج أمي)، فالمعلم «دحمان»، وبعده أستاذ الرياضيات «الوافي»، وكلاهما

كانا بطلين في لعبة (اليد الخشنة على الكتف الطري)! ثم ناداني به رجلي الأول «حمُّو»، وصاحبه «الدرّاجي»؛ الذي يكسب الرهان دائما، و«يونس» المحشور سرواله بين إليتيه، والخالة «بهية»، والرايس «نجيب دواوة»، وفتاي النحيل «حسان»، وبطلتي «ميرة».. وسيناديني به هذا الذي تسميه الرّاوي ومن خلفه؛ طبعا، قراؤك.

مادامت القصة واقعية، إذًا، اجعلْ اسْمي عنوانا لكلّ فصولها، وضعْ على الغلاف.. صورتي أنا، بعد أن أكون قد ارتديتُ فستانا أبيض، وابتلعتُ حفنة حبوب مخدّرة تكفي للإطاحة بحياة بغل! وما هي إلا لحظات قصيرة حتى.. تِكْ.. تِكْ.. تِكْ.. هدووووووء! أفقدُ كامل إرادتي، تغمرُني هالة من النّور وأهوى بعد ذلك؛ طراااااااااخ! هكذا؛ سقوط مسرحي بحركة ممعنة في البطء، وخلفية موسيقية مؤثّرة. سترى كم يثير ذلك مشاعر الجمهور!

في الواقع، إنه لَضرب من الابتذال أن تسمح بظهوري أمام الجميع بفستان أبيض! من الصّعب حقا أن أرتدي فستانا، والأصعب من ذلك إذا كان هذا الفستان الذي عليّ ارتداؤه أبيض! كيف يتقبّل الجمهور هذا، إن كنت أنا ذاتي لا أتقبّله؟! لكن بالمقابل، لا وجود لبطلة تموت بكل شجاعة في آخر مشهد، وهي بتنّورة قصيرة أو سروال جينز.

الموت الملحمي يا «بيبي» سيظل حكرا على الأشخاص النّادرين في التاريخ؛ العظماء.. القادة.. الثّوار.. الفنّانون.. الشعراء.. الملوك والملكات.. وهؤلاء يقتنون ملابسهم المهيبة من محلات خاصّة، ويحرصون على أن يكونوا بمظهر جيد، حتى إذا ما باغتهم الموت يجدهم مستعدّين لمغادرة الحياة بطريقة تليق بمقامهم! ناهيك أنّ أسماءهم -التي عادة ما تكون مناسبة لمكانتهم- هي أسماء خاصة بهم وحدهم: أسماء قائمة بذاتها.. أسماء ثلاثية.. أسماء مفخّمة..

رنّانة.. مركّبة.. مجازية.. أسماء مرفّهة ونبيلة.. أسماء ننطقها فيتردّد الصدى.. أسماء اسمية..

" الناس لا ينامون بأحذيتهم، لكنّهم ينامون بأسمائهم" ويستيقظون وهم يحملونها، ويعملون ويمشون ويتزوّجون دون أن يكفّوا عن حملها.. وأنا أيضا هكذا منذ ولدت يا «بيبي».

من حظّ الناس أن الأسماء غير ثقيلة، وإلا لكانتْ كل الأكتاف تكسّرت.

«العمراوي» بائع البيض في الشارع المقابل، يمشي أوقات المساء محْنِي الظّهر؛ أُرجّح أن ذلك بسبب اسْمه! وليس بسبب ضربة يقال أنه تلقّاها أثناء الخدمة في الجيش.

في الواقع، لا تحضرني الآن أمثلة أخرى في هذا الموضوع، لكنني أفكّر أحيانا أن بعض الأسماء.. بعض الأسماء نهاري.. وبعضها الآخر ليلي.. بعضها يصلح للصيف ولا يصلحُ أثناء فصول البرد والمطر.. وهكذا..

في هذا العالم شخصيات فريدة لها أسماء خاصة، والباقي هم كل الناس.

وأنت؟ لا شأن لك بالناس، إنك فاقد لحسّ التجمهر، لا شيء يحرّك فيك ذرّة فضول واحدة! ثم إن السّأم يستولي عليك طيلة الوقت! قد تكون أنت أيضا شخصية فريدة، لكن من نوع خاص.

اسمعْ.. إذا حدث يوما ما، أنْ صرت مشهورا، فستعجب بك كل العوانس البالغات سنّ اليأس، وتستأنس بك النّسوة الحائضات، ويمشي وراءك الكهول المصابون بالقرحة المعدية.. هل تشاركني الظّن أن هذه الأصناف الثلاثة من الناس هي الأغلبية الساحقة من السّكان؟! إنّها كذلك، فاهنأْ بما يخبئ لك المستقبل السّعيد.

هل تظن يا «بيبي» أن فتاة تحمل اسْم «سونيا» يمكن أن تموت بطريقة ملحمية؟! أقصد تموت.. هكذا! أي: مقعد وسط الرّكح، تاج من الزّهر على الرأس، ضفائر منسدلة، فستان أبيض رزين ونشيد مرفوع إلى السّماء.. والمشهد كل المشهد يحدث تحت مرشّ الضّوء السّاطع؛ إن هذا غير معقول! غير معقول حقا!

أنا واحدة من الناس، والناس لديهم ولع غريب بكلّ شخصية فريدة تمرّ بهم، فهم يتسابقون دائما للحصول على صورة معها، أو على الأقل توقيع مُنْساب على دفتر الذكريات ليتباهوا به أمام أصدقائهم. وعندما يحصلون على ما يريدون يسعدون للحظات، ثم يعاودهم ذلك الشعور العميق باليأس. لا أحد يبدو على ما يرام: الجميع متذمر، محبط، متردد، مستسلم لحالة شرود غامضة. من ذا يفكر أن يغالب نفسه ليتطلع إلى شيء ما؟! بالتأكيد لا أحد، وإذا تطلع أحد فلن يدرك إلا الفراغ.

الفراغ يستولي على الناس، يتفشى في أعماقهم، يحيلهم إلى رقم مهمل في سلة أصفار مفرغة من قيمتها. الفراغ يدوس على مشاعرهم ورؤوس أصابعهم وأعضائهم الحساسة. ليت شيئا ما يحدث الآن! لكن ما هو يا ترى؟! للأسف، لا يوجد من يملك إجابة!

ماذا لو أن جميع الناس -رجالا ونساء- يقررون التوقف عن افتعال الفرح؟! أو يفتعلون الفرح بأكثر من المتوقع فيخرجون غدا صباحا، مرتدين ملابس بيضاء فضفاضة وقبعات طويلة، ويؤدون رقصة الدراويش الدائرية؟ أقول جميع الناس؛ يدورون ويدورون.. زوجا زوجا.. فردا فردا.. بلا توقف! متجاهلين إحساسهم بأنهم ليسوا على ما يرام.

واحد اثنان..

فوق تحت..

واحد اثنان؛ دوم.. تك.. خذْ هات.. بطن مضموم.. خطوة أمام.. خطوة وراء.. وقوف.

واحد اثنان..

سيبدو الموقف كحالة جنون راقصة أصابت الناس كلهم، في لحظة واحدة. يا إلهي، هل يمكن أن يحدث هذا وتمرّ الأمور بسلام فلا تتوقف حركة المرور ولا يتعطّل السير الحسن للعدالة؟!

الناس على وشك الجنون يا «بيبي»؛ أليس كذلك؟ لكن الحكومة على الدوام تظل هادئة ومتعقّلة! أليست الحكومة مجموعة من الأفراد هم أنفسهم من الناس.. فلماذا لا تكون الحكومة على وشك الجنون أيضا؟!

هل أفراد الحكومة جميعا من الشخصيات الفريدة؟!

الحكومة تحكم؛ تحكم بماذا وعلى من؟

من المؤكد أنها تحكم على الأولاد المطيعين بالنوم باكرا في عنبر خاص، وعند الفجر تأتي (هي) في هيأة أم من الطراز القديم؛ شادّة رأسها بعصّابة حمراء.. توقظ الأولاد المطيعين فجرا ليحيوا العلم، وبعد ذلك تجبرهم أن ينصرفوا إلى خدمة البَلادة والبلاد.. أقول تجبرهم، تجبرهم يا رجل.. رغم أنهم مطيعون!

ربما كانت تفعل ذلك لتضمن أنهم لن ينضموا ذات يوم إلى فئة المرشحين للخروج عن طاعتها؛ (المناضلون).

ذلك أن الحكومة لا تحب أولادها المكتوب على جباههم (مناضلون)، لكنها بالمقابل لا تخشاهم أيضا، لأنهم يمارسون نضالهم العلني بكل جدية وحزم، مما يجعلهم عرضة للسخرية.

المناضلون يكرهون الحكومة لأنّها تسخر منهم، وهي تسخر منهم لكي تجعلهم يناضلون منذ الفجر إلى نهاية الليل؛ يناضلون ضد سخرية الحكومة منهم وتجاهلها لهم. إنّها تتجاهلهم وتتركهم يُسدون النصائح والتدابير الثورية للجماهير، بل إنّها توفر لهم سيدات مهذّبات يعدلن ربطات أعناقهم، وينفضن ما علق من غبار على أكتاف معاطفهم أثناء دخولهم غرفة المكياج في مبنى التلفزيون، ويخاطبنهم بلقب؛ "أستاااااااااااذ"..

وهكذا يَسترخي الأستاذ كما جرتِ العادة، ويطلب كوب ماء بارد يرطّب به ريقه على أمل أن يتمكن من ابتلاعه في هذه الظروف الحسّاسة جدا.

يمكن تمييز أي مناضل جاد يا «بيبي» من بين مليون شخص، ذلك أن أفكاره الهائجة تؤثر سلبا على فروة شعره العصيّة عن التسريح.. ثم إن البنات يتقربن منه ويحصلن على صور معه، لكنهن لا يتمنين أبدا مرافقته إلى غرفة النوم. إنه مهموم، تعيس، يطلق خطاباته بلا هوادة، ولا ينتبه لتلك المادة البيضاء المترسبة على زاويتي فمه. الحكومة تدرك هذا جيدا، وبسبب مكرها تدعه يمارس عصيانه، ويناضل ويحرّض ويغني ويتكلم.. يتكلم ليل نهار، وقد تكلف أحدهم بجلب مناشف ورقية لاستعمالها وقت اللزوم.

الحكومة لا تخشى المناضلين المتوازنين، صنف "نصف كم".. ولا تخشى المناضلين المرحين، من ذوي البدلات البرّاقة.. المتفهمين للوضع جيدا..

بحيث يبدو عليهم ذلك الحرص الشديد على استتباب الأمن؛ إنهم يطلقون التحية للجمهور مع قبلة هوائية ويبتسمون في وجه الكاميرا.

باختصار الحكومة لا تخشى أحدا، سواء كان مناضلا أو مجرد فرد من الناس، لأن الناس في الماضي كانوا يعبدون الله.. واليوم بعد اكتشاف البورصة والأرصاد الجوية وطب التّجميل، صار الله مجرد فكرة قديمة تجول بخواطر الناس، لهذا اخترعوا آلة تجفيف ضخمة تسمى الحكومة، ثم أحاطوها بهالة من التّقديس وكرّسوا أنفسهم لعبادتها، وهكذا صاروا أفضل حالا؛ إنهم تعساء لكنهم أفضل حالا.

كانوا يُجنّون دائما، لكنهم صاروا يُجنّون اليوم بطرق أفضل من تلك التي كانت في العصور السابقة.

كانوا يتزوجون دائما، واليوم صاروا يتزوّجون بطرق أفضل.. يأكلون بطرق أفضل.. ويبولون وينامون ويتفاوضون ويصلّون ويتاجرون ويناضلون ويقتلون ويقوّدون بطرق أفضل.. بل إنّهم يموتون بطرق أفضل.

لقد روى لي زوج أمي مرّة، قصّة سخيفة عن شخص هاجمه أفراد شريرون فقاومهم باستماتة، إلا أنه في نهاية المطاف تعرّض لطعنة في بطنه من أحدهم. بقي لأيام معدودات يكابد الألم بشجاعة. يكابد ويكابد، وما أن اعتصر الموتُ جسده المنهوك حتى انْتصبَ عضوه بشدة، وطارت روح هذا الشخص المطعون وتطايرت من عضوه حمم من المني مخلوطة بالدم.

لقد مات المسكين، مات بطريقة أفضل!

"هكذا حدثني زوج أمي، لكنّني طبعا لم أصدّقه وصدّقت أن النّاس يموتون اليوم بطرق أفضل!؟

والعالم صار أفضل؛ لا اختلالات لا تسرّبات في المكان.. المواد اللّزجة الناعمة تؤدي دورها بكلّ حزم، سرعة التجفيف تفوق التّصوّر، لا شقوق، لا تصدعات..

العالم أفضل والجميع في صف واحد يغني؛ "اخْتر المتانة، قاوم التجعّد، لا تكن عرضة للكسر يا حبيبي".

العالم أفضل والبدائل متوفّرة؛ الأقمشة بكلّ الألوان، اللدائن، الزجاج، شاشات التلفاز، مراحيض"اخرأْ واقرأ"، الأنوار في المؤخرات، الأنابيب في الأرحام، الشرطة في الجلابيب، التيجان على رؤوس القابلات، مضيفات الخطوط الجوية بمعاطف رمادية، الممرّضات يرتدين سترات واقية من الرّصاص، السّبّاكون بالزّي الرّسمي، المناضلون يناضلون والأئمة يسيرون إلى الأمام.. إلى الأمام.. إلى الأماااااام سِرْ.

السُّم، البهجة، الاحتقار.. نساء في رجال.. رجال في نساء، والخوف كلّ الخوف من المنافسة على درج الملابس الداخلية.

العالم أفضل يا أستاذ، وأنا لست سمكة، لست فراشة زرقاء تطير بعيدا، ولست الفتاة الحالمة التي من أجلها يترك الفتى الراعي غنمه، ويحملها بين ذراعيه، ويسير إلى حيث ترقد الشمس.. هناك.. عند سفْح جبل شاهق، كذاك الذي رأيته في غيبوبتي وأنا على سرير أبيض في سيارة إسعاف.

في الواقع لم يكن سريرا أبيض، أو ربما كان كذلك، فأنا لا أذكر هذه الأمور على وجه التحديد. كلّ ما أذكره أن أشخاصا لا أعرفهم حملوني بطريقة احترافية وهرولوا بي.. ثم فتحوا دفتيْ باب كبير ووضعوني بكلّ سلاسة على سرير خاص أو ما يشبه ذلك.. وانطلقت سيارة الإسعاف.

كنت أنظر حولي فلا أجد إلا شخصا وديعا بجانبي، أسأله عما يحدث لي الآن، كان يجيبني ولا أسمعه، أظن أنني كنت أسأل ولا أهتمّ بإجابته، أسألُ فقط لأسترخي أكثر! واسترخيت فعلا حتى استسلمتُ لغيبوبة لذيذة، وكان الحلم الذي طالما راودني:

[.. في زمن كنت فيه أنا الطّفلة الوحيدة، أجري بين الصّنوبرات. وما أن أجد سياجا حتى أقفز عاليا.. عاااااليا جدا، وأمكث بعض الوقت في الهواء.

ويحدث أن أغمض عيني؛ أعدّ من واحد إلى ثلاثة.. وإذا بقوة خفية تبطئ مشهد وقوعي على الأرض.. هوووووب.. هكذا.

وهكذا يبتهج العشب. أبقى لسبب ما مغمضة العينين مثل فتاة المروج التي تسمع صوت فتاها الراعي الجميل يهمس في أذنها؛ "انزعي الشريط عن عينيك لتري"..

أظن أنه لم يهمسْ، أو همس لكنه هو من نزع الشريط عن عيني. ورأيت صورتي معكوسة على سطح بحيرة. كان الفتى الراعي يحملني بين ذراعيه. لقد ترك غنمه وسار بي على حدود الغابة الظليلة. سمعت عواء الذئب يأتي من بعيد؛ التحمتُ بفتاي أكثر.. طوّقتُ رأسه بذراعي حتى لم يعدْ يرى طريقه. لمعتْ قطرة عرق على جبينه.. ابتسمتْ عيناه. كان ينظر إليّ وكنت أنظر إليه. اختفت الغابة في ظلها الأخضر لم تكف البحيرة عن الاقتراب منّا؛ إن صورتي -بينما فتاي يحملني- لا تزال معكوسة على سطحها.. يا إلهي ما أجمل الحلم!..خذني إلى سفح الجبل الشّاهق..]

## - 4 -

صباح الخير «سونيا»، كيف حالك؟

صباح النسمة الرقيقة المزهوة برائحة الفجر تهبّ بين الحين والآخر، معلنة بداية يوم جديد. بعد قليل تستيقظُ أولى ذرّات الغبار وتتحرّك على إثر خطى عابرين وسيّارات منطلقة، وتبدأ أصوات النّاس بالارتفاع شيئا فشيئا: سعال، تحايا، نداءات، وأحاديث سريعة.. وما يلبث هذا أن يتحوّل إلى حركية متصاعدة. إنّها الإرهاصات المعتادة لكل نهار يبدأ فعليا عندما يتلاشى هدوء الفجر وتنكمش رائحته الرطبة.

صباح النّسق المتسارع من الزحمة، في العاصمة المتوحشة.

صباح الضجيج، صباح الحياة المكتظة بالقلق والاندفاع والتلوث والهموم.

صباح الآلام المجانية والمرح المبتذل والبهجة الوقحة.

صباح الديودرون. صباح النعاس الجاثم في عيون الممرضة. صباح الصباح.

"صباح الخير «سونيا» كيف حالك"؟

كنتُ ممدّدة وكان البياض الدافئ يحتلّني تماما، أفترشه ويفترشني، أغطّيه ويغطيني. لا علامات في هذا الامتداد القاهر من النسيان. لا نقاط

ولا خطوط تنهر شرودي العبثي أو تعكر صفاءه المهول. إنني ألهث وأقطع مسافات داخل ذاتي، لا لأصل إلى هدف ما، بل لأعثر على شيء يعيقني عن الوصول.. أتعنّت بعد ذلك أو أستسلم! لا يهمّ.. أتألم أو أحصل على اللّذة، أموت أو أحيا.. لا يهم! إن كلّ شيء ممهّد الآن من أجل لاشيء، لا نهايات ولا بدايات.. لا أمام ولا وراء.. بياض ينسخ بياضا وهكذا..

صباح الخير «سونيا»، كيف حالك؟

حيّتني الممرضة بلطف وجلستْ إلى جانبي، تبادلتْ معي حديثا قصيرا. في الواقع، إنّها تكلّمتْ وتكلمت.. بينما كنت أنصت إليها دون انْتباه ولا أفهم ما تقول. كنت أنظر إلى وجهها حينا، وحينا آخر ألتفت إلى النافذة.. إلى ما وراء النافذة حيث عمود كهرباء لا يزال مصباحه مضاءً.

مرت السّاعات هكذا، حتى صباح اليوم الثاني؛ الخميس 11 يونيو 1992، حيث جاءت أمي مبكّرا إلى المستشفى وكنت قد استعدتُ وعيي تماما.

طالبت أمي بأخذي إلى البيت، وبعد جدال طويل واتصالات وأخذ ورد، أذن لها الطبيب بذلك.

سيارة أجرة تنتظرنا في الخارج؛ مفتاح يدور، محرك يشتغل، وانطلقنا.

لم تسألني أمي في طريق عودتنا عن شيء، ولم تخبرني عما حدث. كانت ملتزمة بصمت مريب يطغى على ملامح وجهها، ويضفي على نظرتها هيبة شديدة لم أعهدها من قبل.. فكرت أنّها صارت أكبر سنّا.

تهاطلتْ أسئلة في ذهني فجأة وازدحمت، لكن سرعان ما تلاشت بمجرّد أن بادر سائق السيارة -وهو من معارف أمي- بالحديث الاعتيادي عن الجو الحار، وعن خبرته في الوصول سريعا إلى حي اليتامى عبر أزقة

فرعية. شعرت أن مخاوفي من الإحساس بالعطالة في أعماقي لم يعد لها مبرر فانْتبهت إلى مظاهر العيد تعم الشّارع.

عند وصولنا احتضنتني أمي بحنان غامر ثم صعدنا سلّم العمارة وطرقنا الباب. فتح لنا زوجها الذي كان منهكا. سلّم علي بفتور، أو ربما بخزي وخوف، وسألني عن حالي.. أخذ حقيبة أمي من كتفها وعيناه تتجنبان النظر إليها. تذكرت لحظتها منظره المؤلم وهو مربوط إلى العمود في تلك الحجرة المرعبة، بينما كان أحد الرجال القساة يضربه على فخذيه ويغرس عصاه في بطنه، وكان أحيانا يبصق على وجهه، وأنا أنظر.. أنظر مذهولة إلى ما يحدث ولا أفهم شيئا! كما أنني لم أكن أفهم ساعة عودتي مع أمي إلى البيت كيف تغير كل شيء في حياتنا فجأة، ومتى ينتهي هذا الصّمت المطْبق ويتلاشى إحساسي بأنني أمشي وسط أخطار لا حصر لها؟! إنّ صورا مرعبة تلاحقت في ذهْني ساعتها، وانْتابتْ جسدي رعشة كاسحة انْتبهتْ لها أمي فدفعتْ زوجها للانصراف واحْتضنتني.

بعد ساعة، كنّا ثلاثتنا كأسْرة حزينة؛ أنا، أمي وزوجها.

## - 5 -

هيا ضعْ رقما، أو...

لا وجود لرقم. إننا بصدد كتابة مقدمة فحسب: فقرات إحمائية، توضيحات أولية تتفضّل البطلة مشكورة بتقديمها للكاتب، تحت تصفيقات الجمهور. هكذا نتقدم خطوة. لا أحد يختار أن يكون عميقا من الصفحة الأولى، ثم إن هذه ليست الصفحة الأولى، اجْعلها الصفحة (رقم صفر)، ودوّنْ عبارتنا الذهبية: "معا نكاية في الأشياء".. ليس كل الأشياء طبعا بل تلك التي كان يُؤتى بها عادة إلى المواقع المهيأة لها سلفا، حيث تُنْصب وتثبت جيدا، لنأتي نحن؛ (هذا ما كان يحدث قبل أن تستعيد قدرتك على اختراع حلم جميل في شكل شجرة ذات أوراق ناصعة الخضرة، ترسل ضوءا من وراء نافذة أُزيل التضبيب الواقع على زجاجها بحركة سحرية من يدي.. طبعا ليست يدي كما في الواقع، بل...).

كنت أقول: "لنأتي نحن"..

أين نأتي؟!

دعنا من كل ذلك، وهيا نرجعْ لموضوع الأشياء التي كان يؤتى بها لتؤدي وظيفة واحدة وهي: "اعتراض طريقنا".

كل شي عقبة، أو شيء يؤدي إلى عقبة، وبهذا المعنى فالحياة كانت بنظرنا مجرد قصّة مقتبسة من روائع الأدب الصّمغي، أبطالها يعيشون في لقْطة معادة عكسيا، بالتصوير البطيء، ولا يتداولون خلال أحاديثهم إلا كلمات قليلة، يتقيؤونها حرفا حرفا، (قافات وعينات): عَـ..ـقـ..ـبـ..ـة.. هكذا!

عِـــقـــاب.. بالكسر!

كسر العين؛ العين الظاهرة على مقدمة الرأس!

كل شيء؛ كل شيء كان عقبة تمنعنا من الوصول إلينا. لكن، كما ترى، ها هي النهاية السعيدة تتحقّق؛ كسرنا الحواجز، تحدينا المسافات، وبعد مسيرة شاقّة وضعنا أقدامنا على الخط، بمعنى؛ وصلنا! وصلنا يا «بيبي» وها.. إننا معا.

أنا لا أريد أكثر من ترديد هذه العبارة: "إننا معا". سأرددها سبعين ألف مرة لتفهم قيمتها، إنها عبارة بليغة يمكن رسمها كشعار ذهبي على قوس نصر: "معا.. ولْتمتْ بغيظها الأشياء".

ليس كل الأشياء! بل تلك التي نصبها الناس في طريقنا. والناس كما تعلم، معادن، والمعادن يتم استخراجها من الباطن؛ تُصفّى أولا ثم تُقذف في فرن، تصل درجة حرارته إلى ما فوق مستوى الجحيم، وتُترك لساعات أو لأيام.. حتى تتحول في مرحلة أولى إلى نيران سائلة، ثم إلى غازات، وأخيرا؛ أشعة -تشبه تلك التي يرسلها بطل الرسوم المتحركة من حدقتي عينيه باتجاه خصومه فيفجر بها رؤوسهم- أشعة سهمية لها تأثيرات أخطر من السحر، يتم زرعها في كل مكان لتخترق موائد الناس وأسرّتهم وحقولهم..

إن هذه الأشعة تتجول الآن في الماء والهواء، فوق الأرض وتحتها، تتجول في الواقع وفي الأحلام، كانت جزءا دخيلا يقاومه الناس، ومع الوقت، استفحل هذا الجزء في تفاصيل التفاصيل، تسرّب عبر المسامات وبين الخلايا، تأصل في العظام والخصي والألسن، في الأثداء والأرحام والعقول، صار شرطا لا غنى عنه لبقاء الناس على قيد الحياة؛ موتى على قيد الحياة.

الناس يا «بيبي» تلوثت معادنهم بسموم تلك الأشعة الذميمة ولم يبق من همّ لديهم إلا تلويث معادننا، حتى لا نكتشف الطريق المؤدية إلينا. لكن كما ترى إننا معا، فليمتْ بغيظهم الناس؛ ليس كل الناس طبعا، بل هؤلاء الذين.. أو...

دعنا منهم.

ما أريد قوله أن بعض الأفراد قد يعثرون على ذواتهم في لحظة انتباه خاصة، توافقتْ مع لحظة سهو مرّتْ بها عين مثبّتة في مكان ما، عين يفترض أنها تراقبهم: لقد كانت على مر الزمان مفتوحة بلا نهاية -تراقبهم- ثم لسبب ما -وهذا لا يحدث إلا مرة واحدة كل سبعين سنة- أخذتها غفلة، أقصد؛ العين التي كانت ترى الجميع دون أن يتمكن أحد من رؤيتها.

إنها تبدو بلا أجفان ولا رموش! لكن، تقريبا، قليل من الدموع الراكدة تلمع على محيطها. ثم إنها عين وحيدة مثبتة في مقدمة رأس؛ رأس وليس أي شيء آخر! رأس هي الأضخم على الإطلاق، بينما تلك العين، في الواقع، ليست مثبتة بالمعنى الـ...

اسمعْ؛ إليك الآتي: "هل لديك فكرة عن تلك الخوذة التي يحمي بها رأسه العامل المحاط بالأخطار وهو يشتغل داخل نفق مظلم؟!"..

بالضبط، إن مقدمتها مزودة بمصباح صغير ملحق يشغّله عامل المنجم ويوجه ضوءه إلى المكان المطلوب رؤيته. أما العين؛ العين الوحيدة المفتوحة بلا نهاية! فهي ليست مثبتة كمصباح الخوذة ـ خوذة العامل ـ بل هي جزء طبيعي من مقدمة الرأس الضخمة، جزء طبيعي وغير طبيعي! ربما.. أقول؛ ربما بسبب الدموع الراكدة على محيطها. ثم إنها عين مخيفة، وأحيانا تبدو غير مخيفة! أرجوك افهمني: مخيفة وفي الوقت ذاته مثيرة لشفقة من نوع خاص تنتهي إلى شعور يغلب عليه الاشمئزاز أكثر من الرحمة. والأسوأ من كل هذا أنها تتوسط مقدمة الرأس، هنا.. هنا تقريبا.. في النقطة العميقة! حيث يحلو للمجرم في الأفلام الداكنة أن يضع بكل برودة، فوهة مسدسه الكاتم للصوت على مقدمة رأس الضحية ثم يطلق النار! وفي اللقطة الموالية يظهر ثقب في موضع المصباح على خوذة عامل المنجم؛ العامل في الشريط الوثائقي.

ليكن في علمك -وهذا من باب التوضيح فقط- أنني أكره الأفلام الداكنة: تترك أثرا سيئا في النفس، كما أن أبطالها معقدون، غامضون، رؤوسهم مكتظّة بالشكوك والوساوس.. يملكون منازل ذات أسقف عالية بها مراوح غريبة الشكل لا تدور إلا حين يقطر الدم على الجانب المقابل من طاولة التشريح. وهم أيضا -رغم الرطوبة الزائدة- لا يفتحون النوافذ، كأن لديهم حساسية من التهوية.

وما يثير غيضي أكثر أن هؤلاء الأبطال -مهما تعرضوا للظلم فإنهم- يفشلون في استمالة عواطف المتفرجين؛ الطيبون منهم يكابدون آلاما غريبة! وغالبا ما يتعرّضون للويلات، لكنهم لا ينجون تماما ولا يموتون

تماما. الطيبون في تلك الأفلام هم الأسوأ على الإطلاق؛ يتعاطون أدوية مشبوهة، يرتبكون من منظر شعرة مسالمة ظهرتْ على رخام المغسل دون علم منهم، وخلال نومهم يستعيدون مشاهد من الماضي أغلبها حدثتْ في غرف سرية بين أنابيب الصرف والعناكب والصناديق المهملة.

أما الشريرون فأغلبهم مارسوا -خلال فترة من حياتهم- مهنة لها علاقة بالطب؛ (طب بلا أجهزة ولا حقن ولا أدوات..).. يفحصون المريض بالساعة ولا شي آخر! كل ما بحوزتهم لا يتعدى: ساعة جيب عتيقة، غليون، كيس قفازات، سرير خاص بالتنويم، قبعة على مشجب، وأخيرا مقعد مزود بالأحزمة والأسلاك وما إلى ذلك..

ثم ماذا؟

طبعا لا شيء سوى الكلمات! كلمات ذات صدى مؤثر، يتلقاها المريض وهو مغمض العينين، أقصد المريضة، باعتبار أنهم كانوا يعالجون النساء فقط.

لا علينا، ففي النهاية، بمجرد أن يعتزل هؤلاء الأبطال مهنة الطب، يدخل الفيلم مرحلة الحبكة.. وهكذا يظهرون للمشاهد الكريم، أو يظهر رئيسهم نيابة عنهم -على الشاشة طبعا وليس في الواقع- يظهر وهو في صحة جيدة، مع أشخاص غامضين وأذكياء: يشبهون بعضهم بعضا، باسْتثناء رجل واحد ذي رأس ضخمة -ليست ضخمة على الإطلاق- يقف على بعد خطوات، بانتظار أن يتلقى إشارة ليتدخل مُنهيا الأمر في لمحة بصر. إن وظيفته واضحة للجميع، والإشارة التي يتلقاها ليس لها إلا هذا المعنى: "أيها «الكاتم» حوّلْ المكان إلى رماد"!

«الكاتم»!

ما رأيك بهذا الاسم؟

إن شئتَ استعمله في أحد فصول كتابك؛ ألا يكاد يطابق صورة الرجل الغامض كما هي في أذهان الناس.. ألا يكاد؟!

إنه على الأرجح: مجرم محترف، قناص، قاتل أجير، أو ربما مرتزق سابق جلبه أحد الأبطال الرئيسيين في الرواية ثم عيّنه حارسا شخصيا لمسؤول هام في الدولة. أتخيله -ككل الناس- بقبعة ومعطف رمادي، ناهيك أنّه يعرْج أثناء مشيته وقت المساء، فيكون لخطواته الثّقيلة وقع مريب يعمّق صداه منظر حذائه السّميك، وهو يخطو ببطء على حجر الرصيف المبلّل، ماضيا إلى هناك! إلى نهاية الزقاق المظلم الداكن، حيث من المفترض أن تظهر بين الحين والآخر -خلال المشهد- نوافذ يتسلل منها ضوء باهت، كأن المكان هجره سكّانه، أو كأن سكّانه ينعمون بدفء سخي ولا يدرون شيئا عما يجري خارج أبواب بيوتهم.

وبنهاية المشهد تكون الضّحية عادة فتاة في سن الثانية عشر؛ يقتحم غرفتها فجأة الرجل الغامض فيرتسم شبحه في مستطيل من النور! ومع انخفاض نغمات الموسيقى، يتقدم خطوات ويقف، يضع عكّازه على طاولة الفتاة ثم يتقدّم خطوة أخرى برجله الخشبية فيلمع البرق! وتظهر إحدى عينيه مغطاة بعصّابة سوداء. وهكذا يدمّر حياة الفتاة الصّغيرة ثم يختفي دون أن يتمكّن أحد من اللّحاق به. إنه يمشي بهدوء، لكنه ينجح في الإفلات من أنظار الجميع، وبعد ذلك يبقى لغزا تتركّب عليه أحداث لاحقة.

أظنّ أنني لم أحسن الوصف تماما، فقد تحدثتُ عن صورة الرجل الذي يمارس شروره تحت جنح الظلام، أما «الكاتم» كما يصوره لي ذهني فهو يمارس شروره علنا، وقد يختفي بالفعل عن الأنظار بعد أن يدمّر -في مشهد مؤلم- جزءا من حياة الفتاة.

في الواقع؛ لا وجود لمعطف رمادي ولا رِجْل خشبية، ولا وجود لعين مقتلعة تغطي مكانَها لصْقة القراصنة، ولا وجود لعكاز.

الكاتم يمكن تصويره كالآتي؛ رجل في الثّلاثين من العمر، طويل القامة، حليق الرأس، مفتول العضلات، يقول عن نفسه: "أُدعى الكاتم".

مع الوقت وتطور الأحداث يتضح أن مصدر هذه التسمية، كونه كان كاتم سر من النوع الممتاز، أو ربما كان يطلق النار بمهارة على رؤوس الناس من مسدس كاتم للصوت.

ملاحظة هامة: (الكاتم) اسم مفترض طبعا، أنت تفهم هذا بالتأكيد، ربما يكون عليك يا «بيبي» أن تضع لاحقا هذه المعلومة، أسفل الصفحة، في شكل عبارة تحذيرية أو لا أدري ما يسمونها.

إنها عبارة تتعلق بتشابه الأسماء والوقائع وما إلى ذلك؛ أتفهمني؟

كما لا تنس أن تلفت انتباه الجميع إلى تلك المادة التي تمنع نسخ أو استعمال أي جزء من الكتاب، أي جزء مهما كان بسيطا: عنوان بريدي، معلومات عن حساب بنكي أو أي شيء آخر.

مثلا: في حال وضع المؤلف رقم هاتف خاص بإحدى بطلاته في كتاب، فإنه يتعين على كل قارئ أن يلتزم بأخلاقيات القراءة؛ بحيث لا يقوم بتسجيل رقم البطلة للاتصال بها لاحقا، هذا يسمى: إزعاج الشخصيات، على وزن إزعاج السلطات!

أما فيما يتعلق بالأبطال الشريرين، ليس لدي ما أضيف بشأنهم سوى أنهم يشغلون الموسيقى دائما ويدخنون، خاصة أوقات المساء، كما أن أحذيتهم تلمع وأسنانهم بيضاء، وحين يقررون القتل يختارون المكان الذي ستنام فيه رصاصتهم الوحيدة، هنا في مقدمة الرأس.

الناصية؟!

الناصية؛ ألا توحي بوجود زجاج وألياف دقيقة في الجزء الأهم من مكوناتها.. إضافة إلى معدن أو لا أدري؟!

## - 6 -

تشكيلة ندوب حرصتُ على نزعها من ذاكرتي بمهارة ووضعها بين يديك، وإنّني لأعجب كيف يكون بوسعك يا «بيبي» أن تخطّها على ورق. إنْ فعلت ذلك حقا ستجعلني أشعر أن زمن المرارات قد ولّى وصار مجرّد كلمات مرسومة في كتاب.

لقد حاولت قدْر اسْتطاعتي أن ألتزم بسرد وقائع تلك الأيام الثّلاثة المشؤومة، مجرّدة من خلفياتها وتراكماتها، لأوضح لك هول ما تعرّضتُ له منذ لحظة اعْتداء ذلك الرّجل القاسي على زوج أمي أمام محلاّت اللّوتس، إلى لحظة دخولي المستشفى وأنا في حالة غيبوبة تامّة، ثم خروجي بعد ذلك في يوم عيد الأضحى.

كنت قد فصّلت لك الأحداث كما استوعبتها في ذهني ساعة وقوعها، بكلّ ما فيها من غموض ورهبة، متعمّدة اسْتبعاد تفسيراتي الحالية لها والمعطيات التي ترتّبت عنها لاحقا.

أظنّ أن لا حاجة للمزيد يا «بيبي».

إنّ هذا لأشبه ما يكون بتقرير مملّ لا طائل من الإسهاب فيه. ذلك أنّ المهمّ الآن هو ما تلا تلك الأيام وكيف اتّضحت لي الملابسات والحقائق

تباعا فأحدثتْ شرْخا واسعا في أعماقي، مما جعل علاقتي بزوج أمي تأخذ منحى شاذّا، شوّه سلوكاتي ورمى بي إلى أقصى حدود الضياع.

اعتبرْ ما سأقوله الآن مجرّد استنتاجات وخلاصات تضيء جوانب شخصية شريرة كنا نسميها؛ الرجل القاسي. وقد لا يمكننا تسميتها كذلك لاحقا، لأن أية محاولة لفهمها ستصبّ غالبا فيما هو أوسع من ذلك، أي أنّها ستؤدي إلى إسقاط المزيد من الأقنعة عن وجوه المحيطين بي من شخوص الوهم؛ زوج أمي وأمي مضاف إليهما «الدرّاجي».. وفيما بعد «حمو».

دعني أتحدّث بكل تلقائية لأعثر بنفسي على رأس الخيط.

وإذا بقيت لديك جملة تساؤلات أو ملاحظات فيمكنك تنبيهي إليها لاحقا، أو بين الحين والآخر أثناء حديثي، فقد توحي إلي بتفسيرات جديدة لم أكن لأفكّر بها من قبل.

هكذا فقط نستطيع الإلمام بكل الأسباب التي أحدثت الرجة العميقة في طفولتي حيث كنت في الثانية عشر من عمري، والتي ستليها رجّة أكثر عمقا تحدُث في سن الخامسة عشر.

إليك بكل بساطة حقيقة ما حدث استنادا إلى أكاذيب قذف بها لسان زوج أمي الرّخو، محاطة برذاذ من البصاق اللّعين والرّوائح المنُكرة.

إنّها أكاذيب لا تتناقض مع أخرى مرقّمة ومؤرّخة ومختوم عليها بالأحمر تسمّى التّحقيقات الأولية. الفرق يكمن في جودة زيت التّزليق المستعمل لتسهيل مرور الحقيقة دون الحاجة للتّوسيع القسري.

تقول أمي متباهية بنفسها:

"لقد شاهدت الملفّ بعينيّ هاتين اللّتين سيأكلهما الدّود".

ولم تكن أمي تنسى أن تذكّرنا بأنّ الملفّ مغلّف بالأصفر وقد أطلعها عليه السيد «يونس»، وتوصينا بإخفاء هذه المسألة، وتدّعي أنّ لديها حقائق أخرى، لكنّها تمتنع عن الإفصاح. وتضيف: "كل شي يأتي مع الوقت".

ومع الوقت أيضا تكون الكرة في ملعب أمي ويكون زوجها بحسب مسار الأحداث بريئا مما حدث، فهو بذلك غير مطالب بتقديم توضيحات. إنه مجرد ضحية مزدوجة.

"السيد «يونس»، أمن دولة".

تقول أمي هذا وتبحلق بعينيها.

والحق أن «يونس» هو الشّخص ذاته الذي سمح بخروجي من المستشفى وصار يزورنا فيما بعد، مرة كل أسبوع. ثم صار صديقا مقرّبا لأمي.

أما زوج أمي فقد ادّعى أن لا علاقة له بصاحب تلك اليد القوية التي ضغطت على بلعومه حتى غادرت عيناه محجريهما، وسال البول الأصفر بين فخذيه وانساب على رصيف الشارع.

تسأل أمي زوجها:

"أنت لا تعرف الرجل الذي اعتدى عليك"؟

فيجيب بكلمات بها رجفة غير ظاهرة:

"من أين لي أن أعرفه؟ إنه الحظ السيئ فقط الذي قادني مرة أخرى إلى أن أكون ضحية".

"أأنت واثق"؟

"إنني أكثر من واثق، لكنني أشعر بالذنب، لأن «سونيا» تأذّتْ بسببي".

في العبارة الأخيرة اعتذار صريح لي، وعندما يعتذر زوج أمي فإنّه يتفكّك مع كل كلمة يقولها، وبتفكّكه يكسب نوعا من التعاطف. وهكذا يسهل عليه تقمّص دور الضّحية، لأن ما حدث لي حسب ادعائه هو نتيجة خطأ مركّب، والغريب أن كلّ أكاذيبه لا تتناقض مع ما يقوله السيد «يونس» للسيدة أمي:

"إليك ما يلي يا مدام.. الشخص الذي اختطف ابنتك وزوجك من أمام باب العمارة وأخذهما في سيارة، لم يكن وحده، فقد استعان بأشخاص مجرمين آخرين سنصل إليهم قريبا، لقد مارسوا ضغطا نفسيا على ابنتك، عرّوها تماما وصبوا الماء القذر على جسمها، وعذّبوا زوجك بقسوة".

طبعا، إن هذا الكلام صحيح، لكن لا جديد فيه، فأنا نفسي أعرفه، وهو الكلام ذاته الذي أدلى به زوج أمي أثناء التّحقيق. وأعاد تكراره على مسامع أمي فصدّقته، كيف لا والحكومة بجلالة قدرها لا تكذّبه بل إنّها تعتمده في شرح القضية.

إن زوج أمي حسب روايته قد تعرّض لتعذيب مرير، على أيدي مجموعة متوحّشة، حاولتْ أن تفتكّ منه معلومات يدعي هو أنه لا يملكها، عن شخص آخر اعتقدت المجموعة خطأ أن لزوج أمي علاقة ما به. ويبدو أن هذه المجموعة تلاحق هذا الشخص الآخر. وقد حاول بعض أفرادها الضغط على زوج أمي، من خلال اختطافي معه وضربي بقسوة وتعريتي وإهانتي أمام عينيه ظنا منهم أنني ابنته. ويقول زوج أمي أن المجموعة في آخر الأمر تأكدت أنّها قبضت عليه خطأ. فقد تبين أنه ليس الشخص المطلوب استنطاقه ولهذا قرّرتْ التّخلص منه ومني ليس بقتلنا ولكن برمينا قرب الطريق المؤدي إلى الميناء.

وجدتنا الشرطة فجر اليوم التالي فنقلتني إلى المستشفى واحتفظت بزوج أمي للتحقيق معه.

بالنسبة لي، أنا لم أصدق كل هذه الرواية إلا ظاهريا، لكنني لم أكذبْها، وبقيت ألح على زوج أمي كي يخبرني عن صلته بذلك الرجل القاسي وعما يخفيه في علاقته به، كما أخفى من قبل علاقته بـ «الدرّاجي». وقد أصابني بالفعل خوف شديد من أن يكون زوج أمي رجلا مشبوها وقد نتورط جميعا مستقبلا.

في نهاية المطاف اعترف لي زوج أمي ببعض الحقائق. لكنني لم أصدق أي شيء منها إلى أن طلب مني أن أتحدث مع «الدرّاجي» وأترجاه ليتدخل؛ حتى ينقذه من ورطة ألمت به وستظل تطارده، فهو لا يجد سبيلا للخلاص منها.

الورطة تتمثل في أن زوج أمي كان لا يزال غير مطمئن على نفسه، لأنه بقي عرضة لمضايقات وتهديدات من أشخاص مرتبطين بتلك المجموعة التي اختطفتنا، ذلك أنه بالفعل يعرف ذلك الشخص المطلوب لدى المجموعة، وقد سبق أن تعامل معه لكنه لم يفصح لأحد سواي، بعد أن ضاقت عليه المسالك.

تحدثي مع «الدرّاجي»، إنه يعزك يا «سونيا» وهو يعتبرك مثل ابنته.

ومن باب مجاراته وافقت أنا على ذلك، لسببين:

أولا، لثقتي بأن «الدرّاجي» قادر على الحسم في كل الأمور.

وثانيا، لأن مخاوفي من أن يعود هذا الرجل القاسي ليدمرني ثانية لم تنقشعْ بعد، خصوصا أن زوج أمي لم يبح إلا ببعض الحقيقة ليبرر للجميع ما حدث ليلة اختطافنا.

# - 7 -

الزمان!

قلنا؛ دعنا منه.

المكان!

شقة محمود السّاهي؛ حيث تبدأ الحكاية.

من الضروري دائما وصف المكان لقرّائك الأعزاء وإخبارهم بأي تغيير يطرأ عليه مهما كان بسيطا.

ثمة المكان وكذلك الزمان وباقي الأمور الشيقة؛ أنت قلت لي -فيما سبق- قلت لي هذا وأكثر! واضعا أمامي رزمة شروط لنجاح حكايتي أو أية حكاية أخرى تستحق أن تكونَ في كتاب. أهذا ما يمكن إدراجه في خانة الأمانات الأدبية؟!

إيه.. الأمانات؛ أفهمك.

ما أقوله يا «بيبي» لا يختلف كثيرا عن نظريتك فيما يخص "نقل الواقع كما هو"، أنا أفهمك تماما.

إن كان الواقع كما هو، انقله بأمانة؛ هذا هو الأساس دائما، وانقلْ بأمانة صورتك المعتادة عندما تكون بجانبي، على السرير، تسترخي وتواصل التحديق في وجهي. لو أمكنني تثبيت عينين كبيرتين، في زاوية السقف تلك، لأرى بهما منظرك من الأعلى، لكانت صورتك في بياض الشرشف، أقرب ما تكون لصورة جنين.

انقل كل شيء كما هو، واعْترفْ أنك لا تتعب من تصحيح تعابيري، دائما تصحح وتهرش ذراعك بأمانة! وسأخبرك -من قبيل الأمانة- أني.. أو.. ببساطة؛ يخطرِ ببالي الآن أن أحيط رأسك بذراعي.. هكذا.. إحاطة كاملة، كما يفعل حارس مرمى بكرة تلقاها وديا.. أحيطه.. لكن...

على أية حال، يجب استغلال الوقت في وصف المكان.

آه؛ قبل ذلك، ماذا لو أطرح عليك أفكارا متنوعة، صغتها في شكل خطة محكمة، تسهل عليك مهمة وصف المكان الذي نحن فيه؛ شقتك.. هل من الضروري ذكر عنوانها بالتفصيل؟

لا مشكلة؛ هيا سجلْ: (الشقة رقم 08، نهج الإخوة حميدو، إلخ.. إلخ..).

«بيبي»؛ اجعل شقتك في هذا النص تحمل رقم 16، تيمنا بعلامتي المفضلة، اجْعلها كذلك، وهيا نعدْ إلى الخطة التي راودتني قبل قليل.. أظنّ.. ستعجبك، مادامت مكونة من اختيارات شتى! خطة حقيقية، ابدأْ بتدوين تفاصيلها:

الاختيار الأول؛ يحقق شرط (مبدأ الأمانة) كاملا، أو ما تسميه نقل الواقع كما هو.

في هذه الحالة، لا وجود لتعقيدات، أنا سأتصرف على طبيعتي، بينما أنت تصف تفاصيل المكان بدقة، كما أراها وتراها ويراها قراؤك. فإذا خطر لي -مثلا- أن أبكي بحرقة وأنا في المطبخ مرتدية قميصي المورد، وكان على الطاولة صرصور يقوم بحركات غامضة، بينما تظهر أنت واقفا في يدك كيس من البراغي الصدئة وفوق صلعتك مصباح ينُوس.

إذا حدث هذا، كما قلت، ولو على سبيل المثال، لتكنْ أمينا واخْبرْ قراءك بما يجْري في الواقع حقيقة، لا تخترعْ مشاهد من رأسك، كأن تقول إن دموع «سونيا» الحارة سالتْ على خديها وكان الوقت مساء.. وإنها.. أقصد.. إنني في لحظة البكاء هذه كنت واقفة في الشرفة المطلة على الميناء، مرتدية فستانا طويلا أبيض، وكانت السماء بلون مناسب لحالتي.

السماء في مشهد كهذا يمكن رؤيتها من وراء زجاج نافذة تمّ تضبيبه سلفا.. أو لا أدري ما أقول.. إنها أمور مؤثرة تتطلب المزيد من الخيال والعبارات العاطفية وربما.. الموسيقى.

«بيبي» لماذا لم يكتشفوا حتى الآن نوعا من الورق صالحا للطباعة وفي الوقت ذاته يصدر موسيقى تتغير بتغير الأحداث، فإذا كانت البطلة تبكي والكاتب يقوم بوصفها تنطلق نغمات حزينة وما إلى ذلك؟!

أما فيما يخص النغمات السعيدة فيمكن توظيفها عندما تكون البطلة تقفز بخفة على العشب، لكن، ماذا عن لحظة لا تمتّ بصلة لمشاعر الفرح أو الحزن؟!

عندما تسبّبَ مدرس رياضيات، اسمه «الوافي» في طردي نهائيا من (المتوسطة)، انْطردت كما لو أن هذا تمّ باختيار مني، لم أفرح ولم أحزن،

لقد ملأني شعور آخر يصعب إيجاد موسيقى مناسبة له؛ شعور بالقرف.. القرف اللذيذ.. اللذة المقرفة! أقصد؛ تقريبا، ما يشبه مضاجعة على وقع أناشيد ثورية، مع رجل يرطّب مهبلي بالصمغ المدرسي، وأكون أثناء هذه المضاجعة المفترضة مجوفة من الداخل أكثر مما ينبغي، خصوصا إذا كان هذا الرجل المفترض هو ذاته مدرس الرياضيات بالطور المتوسط.

«بيبي» تقرفني لفظة "طور" هذه، هل تقرفك أنت أيضا؟!

تقرفني أيضا أكثر هذه التسمية؛ "متوسط"!

التعليم متوسط..

الحجم متوسط..

الراتب متوسط..

اللاعب متوسط.. متوسط ميدان محوري.

المرأة: متوسطة الطول، متوسطة الجمال، وجميع آجالها متوسطة! تبحث عن زوج أو عن صاروخ متوسط المدى، في البحر المتوسط؛ ترى.. هل الجحيم متوسط هو الآخر؟!

بائسون هؤلاء المكلفون باختيار هذه الأسماء، من المحتمل أنهم كانوا في السابق مدرسين في الطور المتوسط، وكانت أيديهم تتعرق خلال تفحصهم إجابات الطالبات، خصوصا الإجابات المتضمنة عمليات قسمة تخص في الغالب المساحات وما يمتّ إليها بصلة.

مدرس الرياضيات هذا كان يتحمس باستمرار لتلك اللحظة التي يقترب فيها مني ويبدأ.. (هذا ما كان يفعله، تقريبا، المعلم «دحمان» أيضا في القسم الابتدائي).. يبدأ بتفحص إجابتي، فيما تكون يده تتحسس كتفي.

وفي آخر مرة، ترك كتفي وثبّت يده على مسند الكرسي الملحق لطاولتي وراح يتفحص الإجابة، لكنه بين الحين والآخر كان يحرر يده ويرسم بالأحمر شكلا مزحلقا أو يضيف بعض الأرقام، على ورقة الإجابة وخلال ذلك يلتفت بطريقة يبدي فيها أنه غير مرتاح في هذا الوضع، مما يضطره للالتصاق بجنبي.

كان في حقيقة الأمر يلتفت ليرى إن كان زملائي قد انتبهوا لخدعته الماكرة، وهو يلتصق بجنبي فيما أنا أحاول تفاديه ما أمكن، كنت أنا أيضا أدير وجهي قليلا فقط، ناحية ذراعه فأرى سيولا من العرق تتسلل إلى إبطه وتشكّل دائرة تزداد رائحتها الكريهة حدة بمقدار ما يزداد اتساعها. في تلك المرة شعرت، إزاءه بحنق شديد أفقدني كامل قدرتي على التحمل؛ ليس تحمل سلوكه التحرشي الشاذ بل رائحة إبطه! إنها قوية ومقززة، خنقتني فلم أعد أميز بين ما يجب فعله ولا يجب، كل شيء في نظري سواء، إذ يمكنني أن أدفعه بطريقة ما أو أصفعه أو حتى أمطره بوابل من الشتائم.. كما يمكنني البصق في وجهه أيضا، كما كنت أبصق على وجه "زوج أمي".

ولأنه يمكنني فعل أي شيء فإنني لم أفعل شيئا، بل تريثت كاتمة غيظي، وهذا ما منحني إحساسا أعظم بالقوة، ودون أن أفكر سحبت يده بهدوء تام ووضعتها على كتفي، ثم قلت بصوت هامس فيه قدر عال من الاحتقار:

- لعبة اليد على الكتف أرحم.

- لعبة ماذا؟!

- لا وجود للعبة ولا أي شيء من هذا.

- أظن أنني ضايقتك.. صبرا بنيتي.. سأضع العلامة حالا.

سار إلى مكتبه بخطى متثاقلة وظل يتكلم في أمور كثيرة، تخص الطرق المثلى لحل المسائل الرياضية. وكان قد رفع ورقة الإجابة الخاصة بي، منوها بذكائي الذي مكنني من إيجاد الحل الصحيح، وفي ذات الوقت، تحدث عن أن الحل الصحيح لا يعني أبدا النتيجة الصحيحة وحدها. وخلال شرحه لهذه الفكرة كان يذكر اسمي بنوع من التودد ليرى إن كنت قد تناسيتُ فعلته اللعينة، وليظهرَ لي أنه تناسى رد فعلي إزاء لعبة اليد والكتف.

على أيّة حال فقد منحتُه لمحة اطمئنان بأن سألته:

"هل تعطيني أكثر من 10 نقاط"؟

"لقد حسبتِ المساحة جيدا وكل العمليات صحيحة لكن، لم تتبعي الخطوات التي تعلمناها".

بالتأكيد كان يتحدث عن تلك العبارات الروتينية المضحكة التي من قبيل؛ "بما أن.. كذا وكذا.. نطبق القاعدة.. ومنه.. كذا وكذا.. كما تعرف؛ تقعر لغوي من نوع آخر".

يومها منحني علامة 14، وفي آخر الحصة سألني إن كانت العلامة قد أعجبتني فأخبرته بأنها ليست سيئة تماما، وأنني كنتُ أطمع في الحصول على 16.

قلت هكذا؛ "16 من 20"، وارتبكتُ (صرت في الطرف الآخر). ابتسم بلؤم وربّت على كتفي للمرة الألف وقال لي:

- "سأعطيك 16 بشرط أن تتعلمي جميع الخطوات لتحلي المسألة جيدا".

سلالة الفدْع.. يريدني أن أحل المسألة بلا نهاية، وفق خطوات محسوبة كانت أمه قد لقّنته إياها.. بذرة مرّة.. نطفة حرام..

لقد تسبّب ذلك الأستاذ المعتوه في حرماني من مواصلة تعليمي؛ طردوني يا «بيبي» من تلك المتوسطة البائسة التي لم أعد أتذكرْ اسمها بعد. وعندما وصلت مع أمي إلى البيت مطرودة في يوم كانت السماء فيه خالية من أي لون، يومها لم أشعرْ بحزن ولا بفرح؛ هل من نغمة تناسب هذا الموقف؟

أظنّ أنها موجودة في مكان ما لا أعرفه، كما أن فكرة إصدار كتب بورق يطلق موسيقى ليست مستحيلة التّنفيذ، ربما نتفاجأ ذات يوم برجل عبقري يعلن عن هذا الاختراع أو ما يشبهه. وهكذا يرتاح معشر الكتّاب أمثالك من الوصف الدقيق لحالات الحزن والفرح، وتكون الموسيقى عاملا مؤثرا يساعد القارئ على تلقي أحاسيس الشخصيات بأقل جهد.

إن هذه الفكرة جيدة لكنها تتطلب ذكاءً كبيرا لتجسيدها عمليا، لكن، هيا نعُدْ إلى خطتي السابقة، أقصد ما كنت أسميته بالاختيار الأول المتعلق بتصوير الواقع كما هو تحقيقا لشرط الأمانة، إذ لدي فكرة أخرى لا تقل أهمية ولكنها أسهل وأقل تكلفة، يمكنك أن تنفذها يا «بيبي» وتستغني عن وصف المكان.

ببساطة قم بالتقاط صور عديدة لكل زوايا البيت وضعها في الكتاب، هكذا تستريح وأستريح ويستريح القارئ!

الاختيار الثاني هو الآخر يحقق -ولو بدرجة النصف فقط- ذلك الشرط الأساسي المسمى "مبدأ الأمانة"، أو بالأحرى يحقق "الأمانة" كشرط لكن ليس كمبدأ. إنه يقوم على نوع من الكذب الأبيض؛ أي لا ضرر منه حتى وإن لم يكن نافعا. وهو بالفعل نافع لعملك ككاتب، لأنه يجيز لك الاعتماد على خيالك ولغتك وخبرتك في الوصف. صفْ كيفما تشاء، ولا تهتم إن كان وصفك مطابقا

أو غير مطابق للواقع: لا علاقة لهذا -بالمعنى الإبداعي- بالكذب، لكنه كذلك من حيث المبدأ. وهو أيضا كذب ليس الغاية منه التعتيم عن الواقع، بل تحقيق مستوى عال من الجمال ولو على حساب الواقع! إنه كذب حقيقي بالنظر إلى الواقع كما هو، لكنه مجرد كذب أبيض، إذا وضعنا في حسابنا أننا بصدد إنتاج كتاب جيد نأمل أن يصفق له الجمهور عند آخر سطر، ولسنا نسعى لإنتاج كتاب ينال رضا الواقع، هذا الواقع الذي ـ أنا شخصيا ـ غير راضية عليه، وأريدك أن تغيره ولو بالكذب سواء كان أبيض أو موردا كقميصي هذا أو مهما كان لونه.

هيا نبحث عن تعبير يقع في منتصف المسافة تقريبا بين الصدق والكذب، أقصد هنا "الصدق والكذب في نقل الواقع كما هو".

أنا أختار هذا التعبير؛ "تحايل".. ما رأيك؟

اسمع: سأقوم حالا بإحداث تغييرات عميقة في الشقة، بحيث أجعلها بالصورة التي ستكون عليها في نصك. ولا يمكن أن أجعلها كذلك ما لم تخبرني بتصوراتك مسبقا فيما يخص التغييرات المطلوب تنفيذها في الواقع كسبا لرضا النص. بعد ذلك تقوم أنت من مكانك وتبدأ بوصف الشقة كما لو أنها كانت هكذا دائما. انسَ تفاصيلها الحالية، وانسَ خططنا وكل ما نقوله أو نقوم به الآن. هذا يتطلب منك مجهودا بسيطا؛ نوعا من التحايل لا يصل إلى درجة الكذب. وبمقدار ما استطعت أن تنسى صورة المكان قبل تنفيذ هذه التغييرات، فإنك ستضفي -ولو نسبيا- طابع (المبدأ) على شرط الأمانة في نقل الواقع.. فهمتني يا «بيبي»؟!

ثم إنك -على نحو ما- ستنقل الواقع لكن ليس كما هو، أرى أنك فهمت قصدي.

أما فيما يخص الاختيار الثالث فسأشرحه لك لاحقا، أو دعنا منه أصلا! أما الآن فهيا نبدأ.

أولا: المطبخ؛ نجعله غرفة نوم. أما غرفة النوم فاهْملْها في وصفك تماما ودعنا نكدّسْ فيها روث المطابع هذا؛ الجرائد. اُنظرْ؛ جرائد وفناجين وكتب صفراء في كل مكان! جرائد كتب أخرى هنا! وبعض قناني النبيذ الفارغة! كتب وجرائد بين ألواح خشبية! كتب وجرائد وكثير من الأحذية والصحون وما إلى ذلك.

ثانيا: حوض الاستحمام، اعتبره مثلا صندوقا لحفظ الأغطية والمعاطف الرمادية الخشنة..

ثالثا: الطاولة؛ حسنا.. الطاولة نبقيها هنا للأكل، أما في نصك اجعلها لممارسة الجنس، وبعد، لا شيء بعد يا «بيبي»، لم يبق لنا إلا شرفة نتنفس فيها قليلا ومستطيل كان غرفة تخزين، وصار بفضلي يسمى مكتب "محمود الساهي"؛ محمود الذي لن يكون ساهيا بعد اليوم! لن يكون ساهيا.. صح؟! إذن سجّلْ ولا تهمل التفاصيل.

# - 8 -

آه، نعم، هذا صحيح..

إنّها ملاحظة هامة، فزوج أمي لن يحصل على ما يطلبه من «الدرّاجي» إلا إذا حصل «الدرّاجي» على ما يطلبه مني، ولو بالتلميح. إن صغر سني وقتها لم يحل بيني وبين الوصول إلى هذه الحقيقة رغم ما شابها من غموض. هاه.. لا تجعل ذهنك يذهب بعيدا؛ فهو لم يكن يريد أكثر من أن أكون موجودة لديه بين الحين والآخر، لغاية يضمرها في نفسه وقد نكتشفها ذات يوم.

ولأعرف الحقيقة كاملة كان علي أن أوافق وأطلب مساعدة «الدرّاجي» أو بالأحرى حمايته، ليس من أجل زوج أمي بل من أجل نفسي. وبقيت المشكلة أنني لا أستطيع مغادرة البيت، بل إنني لم أكن أخرج أبدا بسبب خوفي المستمر من التعرض لمكروه آخر، ثم إن أمي حرصت على تنفيذ تعليمات الطبيب، وصارت تحسن معاملتي أكثر من أي وقت مضى خشية أن أصاب بتلك الحالة الغريبة التي صارت تعاودني منذ خروجي من المستشفى، فقد كنت أشعر باضطراب كلما نظر إلي شخص وطرح علي سؤالا، مهما كان

نوعه، ويتنابني فتور في أطرافي سرعان ما ينتهي بنوبة بكاء شديدة، تدوم لدقائق، إنه نوع من رهاب الأسئلة، هل سمعت بهذا من قبل؟

لم يكن هناك من أحد ليرعبني بالأسئلة غير أمي أو شخص آخر هو «عمو يونس»، كما كانت ترغب أمي أن أناديه. لقد كان يزورنا مرة كل أسبوع، وكان مكلفا بالتحقيق معي، لهذا كانت أسئلته تفزعني بينما كل حديث كان يصدر عن زوج أمي لم يكن يصيبني بأية رهبة وهذا ما اكتشفتْه أمي لاحقا.

أظن أن أمي ستموت وفي حلقها شيء من تلك الأسئلة حول ما حدث لي بالضبط ليلة اختفائي أنا وزوجها، فهي رغم اقتناعها شبه التام بما يقوله زوجها وما يؤكده صديقها، إلا أنّها بقيت بالقرب مني وأهملت الجميع طيلة الوقت بانتظار لحظة يأتي فيها من يخبرها بكل شيء دفعة واحدة، وهذا ما لم يحدث أبدا. لقد بقيت تطرح السؤال ذاته: ترى من يكون ذلك الرجل المجرم؟

«الكاتم»؛ لقد ذكر لي زوج أمي أن أحدهم ناداه بهذا الاسم، ونحن في حجرة التعذيب تلك. طبعا أنا لم أسمع هذا الكلام. كنت تقريبا فاقدة للوعي، ثم إن هول الحدث جعلني لا أفرق بين ما إذا كنا ساعتها في كابوس سوداوي أو في واقع غير معقول.

أنا واثقة أن «الكاتم» نوع خاص من الرجال، تدرب على العيش بمفرده في عالم آخر تتحرك أحداثه وفق نظام معقد دقيق لا مجال فيه لارتكاب الأخطاء ولا للتردد أو المراجعة. كل شيء هناك مفكّر فيه آليا ومحسوب سلفا، ومن يُخِلّ بالنظام فهو غير جدير بنعمة الكمال، وهكذا يتم إقصاؤه،

ويُرمى من الفضاء إلى عالمنا الأرضي، حيث نعيش أنا وأنت، ويعيش معنا جميع الناس بأدنى ما يمكن من شروط.

العالم يا «بيبي» طبقات شتى، ونحن هنا -أنا وأنت وجميع الناس- نحتلّ الطبقة الوسطى، لكننا باستمرار نتعلم من أخطائنا ونتدرب للارتقاء بأنفسنا أعلى فأعلى.

زوج أمي في طبقة سفلى، أولية تماما، إنه نسخة مسودة عن نفسه تم اعتمادها كما هي، دون أي تعديل أو تنقيح.

أمي ارتقتْ إلى طبقة أعلى من زوجها، فقد استفادت من نشاط تطويري خاص تكفل به عمو «يونس» الذي يفترض أن الحكومة تدفع له أجرة شهرية مقابل أن ينجح في القبض على «الكاتم» وأشباهه، لكن هيهات فـ «الكاتم» لا يظهر إلا مرة واحدة على مسرح الحياة فجأة، لإنجاز مهمة صعبة، يقوم بها ضدي، ضدي أنا بالذات، ثم لا يكون موجودا بعد ذلك. إنه بِمجرد أن يغسل يديه بعناية تامة يمشي بضع خطوات باتجاه الباب الخارجي، يمشي على مهل إلى أن يختفي في هبّة ضوء معمية للأبصار. وعندما أستفيق في آخر الأمر وأستعيد بعض وعيي، أحاول إزالة ما تبقى من دوار كان قد أصابني وقت الصدمة. ويحدث أن أزيل هذا الدوار، أزيله كليا، لكنني أيضا أزيل معه جميع الآثار والقرائن التي تدل أن «الكاتم» ظهر في حياتي فجأة، سبب لي الألم الكبير ثم كفّ عن الظّهور ثانية. إذن فلا مجال للقصاص منه. وكل حديث أدلي به لاحقا، بغية تعقبه والتحري عنه، سيكون في نظر الآخرين، مجرد أكاذيب اختلقتها لأكسب تعاطفهم.

اختفى الرجل المجرم المسمّى «الكاتم»؛ اختفى تماما بعد أن بثّ في نفسي مآسي لم أستطعْ تحمّلها أو معالجتها، فتقيأتُ هذه المآسي وتقيأت نفسي معها.

صرتُ أشبه ما أكون بشيء مفرغ من أي شيء، كيانا قابلا للتعبئة في أي وقت، وهذا ما أهّلني إلى أن أنتقل لاحقا من طبقة إلى طبقة. لقد استفدتُ أنا الأخرى من فرصة تطوير نادرة، تحتوي على خاصية التجدّد التلقائي.

مرّت الأيام ولم يعد ثَمّة ما يدلّ على وجود أزمة في أسرتنا، ولم يحدث في تلك الفترة على الأقل ما يفسد الحياة حولي. بل لقد تحسنت الأمور؛ صار لدينا هاتف في البيت، هاتف وتلفزيون ملوّن وثلاجة من النوع الجيد، وأصلحتْ أمي صفّ أسنانها العلوي، وتفرّغتْ لإدارة شؤون بعض النساء من مختلف الأعمار والألوان والأصناف، كنّ يزرنها في كل وقت بإشراف من «عمو يونس»... نساء يشبهن الشابتين اللتين كانتا مع «الكاتم» أثناء اعتدائه على زوج أمي وكانتا معه أمام باب العمارة قبل أن نُختطف.

توقفتُ عن تعاطي الدواء، وبدأتُ أستعيد عافيتي شيئا فشيئا بنسيان تلك الأحداث المؤلمة. صرتُ أخرج من البيت كلما رغبتُ في التّمشّي أو اللعب أو لأي سبب آخر، وكانت أمي أحيانا تطلب مني الانصراف لشراء بعض الأغراض أو ترسلني لجارتنا «بَهيّة» لتفسح لنفسها فرصة البقاء مع «عمو يونس» منفردين؛ فقد صارت بينهما أسرار وأحاديث خاصة، وربما كانت بينهما أمور أخرى غضضت بصري عنها. وعليّ أحيانا أن أغض بصري فذلك لن يكلفني شيئا، بل على العكس تقريبا، إذ أنني أستفيد من ساعات أطول رفقة خالتي «بَهيّة» فهي تعيش معظم الوقت وحيدة منذ توفّي زوجها.

# الفصل الثالث

## - 1 -

المكان: سيظل المكان دائما شقتك.

الزمان: كم الساعة الآن.. بغض النظر عن اليوم والشهر والسنة.. كم الساعة الآن؟

هذا السؤال لا أوجهه لك، بل أوجهه من خلالك، إلى كل قارئ وقارئة. لنفترض أنها الثالثة فجرا؛ لا أقصد هنا توقيت الحدث طبعا، فهذا أمر يخصنا، بل توقيت استقبال الحدث، وهذا ما يخص القارئ والقارئة؛ فلينظرْ كل واحد منهما إلى ساعته، أو كل واحد منهما إلى ساعة الآخر.. على افتراض أنهما يجلسان معا، في مكان هادئ بمكتبة عمومية.

إن لهما الحرية في اختيار وقت القراءة؛ قراءة ما ننوي كتابته، على أمل أن ننجح في ذلك، وينتهي كل شيء بطبع كتاب أنيق وخفيف الوزن. هذا الكتاب الذي يقفز -فيما بعد- من رفوف المكتبة ليستقر بين يديهما؛ أقصد (القارئ والقارئة)! وهكذا يشرعان في الاستمتاع به، وهما يجلسان بسلام.

ليس عليهما سوى افتراض أن زمنهما هو ذاته زمننا؛ (أنت وأنا). زمننا في النص أو في الواقع؛ هذا إشكال هامشي!

ثمة ملاحظة أخيرة؛ القارئ والقارئة لن يكونا جالسين، بل من المستحسن أن يستلقيا على السرير. قلنا إن لهما الحرية في اختيار توقيت القراءة، على أن يبدأ وينتهي هذا التوقيت من ساعة (مغيب الشمس) إلى ساعة (إشراقها)، وعليه فليفترضا أنها الثالثة فجرا؛ بغض النظر عن اليوم والشهر والسنة!

أكمل هذه الفقرة يا «بيبي» وهيا بنا إلى السرير لنصبح على خير.

أريد أن أنام جيدا؛

أنام حتى تشرق الشمس.

أنت أيضا، احرصْ على وضع نقطة نهاية مؤقتة.. ضع النقطة حالا واستعد للنوم.. عليك أن تنام جيدا، وإذا كانت طريقة نومك كجنين تشجعك على الحلم فاحلمْ إذن. امتحنْ قدرتك على الوصول إلى حلم مزدان بالألوان الزاهية؛ قد تفشل في المرة الأولى، وفي المرة الثانية أيضا. والثالثة.. الرابعة.. الخامسة.. العاشرة.. أعد المحاولة للمرة الألف وأكثر، لا تيأس أبدا. عليك أن تحاول دائما.

في نهاية المطاف سيرتفع صوتٌ ليقول، متشفيا: "هذا الرجل عاش يحلم فقط".

بالمقابل سيرتفع صوت آخر ليقول: "هذا الرجل عاش بلا يأس".

يا لها من موازنة حياتية مثيرة حقا؛ كفّتها الأخرى تميل إلى صالحك!

ألا يشبه هذا خاتمة سعيدة في فيلم غامض؟!

خاتمة سعيدة، ليس لأنها سعيدة حقا، بل لأنها ليست تعيسة على الإطلاق. رغم ذلك، والحال هكذا، لا أحد يتوقّع أن تنطلق موسيقى

مرحة، الجميع سيصمت بينما النّغمات الحزينة تحفر عميقا في الداخل.. فيتفجّر نبع الحنين.. الحنين لشخص لا نعلم من هو، لمكان لا نعرف أين.. لشعور باهت حد النصاعة.. لذيذ حد الحزن، تحرّكه فينا ذكريات موقف لم يكنْ قد مرّ في شريط حياتنا من قبل، لكنه سيمرّ بالتأكيد، طبعا سيمرّ في حال عشنا ما يكفي من الوقت ليتحقّق هذا.

سنرى أنفسنا في حالة هيام، ويكون الوقت عصرا، أو قبل مغيب الشمس بنحو ساعة أو أكثر قليلا، وتكون السماء قد همّتْ أن تمطر، وراء جبل شاهق، أو في أي مكان غير الذي نحن فيه. ها هي ترسل أولى قطراتها المكتملة فوقنا. كل قطرة على حِدة؛ قطرة على الكتف.. قطرة على الخد وأخرى غير متوقعة على الأنف! وفيما بعد، تتّخذ الحياة شكل حلم نراه من خلال نظّارة بلون قوس قزح.

قبل سنوات قليلة كنت أحيانا أكسر قنينة الدواء الفارغة، ذات اللون العسلي، ثم آخذ أكبر شقفة منها، وأضعها أمام عيني وأنظر من خلالها إلى الشارع أو إلى السماء وأقول: هذا هو الحلم.

الحلم يا «بيبي» هالة تتقافز الأنوار الملونة داخلها!

وأنا!.. هاه.. إذا لم أكن قادرة أن أحلم، فسأكون قادرة على تلقي الحلم؛ أفتحُ ذراعي، أفتحُ قلبي، أغني، أغني.. أغني.. أغني وأدع مشاعر الحنين تغمرني؛ الحنين لفتى لا أعرف من هو.. لمكان لا أعلم أين يقع.

«بيبي»؛ هل جرّبتَ أن تغني لتحلم؟

لا.. لا.. اسمعْ؛ أعني ذلك النّوع من الغناء الْـ...

بلا كلمات ولا موسيقى ولا أي شيء آخر له علاقة بالغناء أصلا؛ أي ما يشبه النّبع السّحري المنساب في الداخل، عميقا؛ هنا.

ويسري الدفء في معدتي، أغمض عيني وأسترخي، وإذا بي أنفصل عما حولي. يا للإحساس الناعم بالاكتفاء!

إنني أحلّق كـ "واو" متأرجحة بين الماء والسماء؛ أبحر بذهني وجسدي بعيدا وأحلم.

أحلم؛ فتنفتح الأبواب أمامي على عالم يفيض زرقة؛ أجل يفـيضُ زرقة. إن هذه العبارة لا تعجبني، فالزرقة لا تفيض، الزرقة تبقى دائما ثابتة، وإلا فلا تكون! إنّها كما في أول مرة.

الزرقة مجردة من الظلال، أو لنقلْ لا تعمّر الظلال حولها فهي دائما سطحية. هل صحيح ما أقول؟

السّماء زرقاء لهذا فهي سطح الكون.. البحر أزرق لأنه مسطّح.. رغم ذلك فالبحر عميق؛ يا لهذا التناقض!

أنا أغني وأحلم.

أحلم؛ فلو لم أكن «سونيا» لكنت فراشة زرقاء، ولَطرتُ بعيدا.. إلى هناك.. إلى حيث تكون الدنيا كما في البدء؛ زرقاء، حقيقية وباردة.

أنا أحلم، أغني وأحلم! لكنني سرعان ما أعود إلى واقعي، فأثبتُ باتزان أمامك. أعني أحطّ كفراشة زرقاء بهدوء، فأجدك تنظر وتنظر مشغولا بتجفيف ملامحك تعبيرا عن الهيبة.

أنت في الواقع لا تكتبُ حكايتي بقدر ما تنظر إلي فقط. ابدأ بالكتابة وأُنظرْ إليّ ما شئت! أُنظرْ إليّ بإمعان؛ حرضْ خيالك واسْتعنْ بما قرأتَ من أشعار! تأملْ وجهي؛ إنه يزداد وضاءة كلّما اسودّتِ الدّنيا أمامي! تأملْ خدي؛ إنهما يتورّدان حتى وإن نمتُ ليالي أخرى في العراء.

أُنظرْ إلى هذا البدن النّقي، إلى قامتي الفارعة؛ في كلّ مرة أكون أطول من ذي قبل.

قم.. واقتربْ نتقايسْ.. اقتربْ ترَ: الكتف للكتف، القدم للقدم، البطن للبطن، اقتربْ أكثر.. هاه.. جيد.

ما بالك تغمض عينيك؟!

ألا ترى أنني أطول حتى من دون كعب ومن دون أي شيء؟!

أمسكْ.. كلا.. كلا.. أقصد.. امْسكْ يدي؛ هكذا مرة ثانية!

التصقْ بي أكثر.. أكثر. بوووووه! كم أنا الآن أطول منك يا «بيبي»! أقصد يا أستاذ. أرنبة أنفي على مستوى جبهتك! أنا أطول إصبعا.. إصبعين.. ذقني أعلى؛ أعلى قليلا من رأسك. يا لرأسك وأنت مغمض العينين وكلّ شي فيك مغمض! حتى الكلمات والأفكار. الأفكار أيضا مغمضة!

أنت مغمض من أسفل حزامك -غير القابل للحل- حتى آخر شعرة تخدش دائرة صلعتك المثالية حيث يحلو للضّوء أن يتزحلق.

أنت محصّن ولا شيء يخلُّ بهيبتك؛ لا شيء يحطّ من أستاذيتك التي تخنقك كلّما واجهتني مغمض العينين! وأنا أحتذي كعبي العالي الذي يجعل مؤخّرتي ترتفع بنسبة الخُمس مما هي عليه أصلا! ويسعدني أن أضيف إليك بلغة أهل الاختصاص، أي من قبيل: ترتفع مؤخرتي فيرتفع منسوب الإغراء إلى ما فوق الركبة.

أنا تعلمتُ هذا من مجلة قرأتها، مجلة؛ (كلّها صور وليس فيها كلمة واحدة)؛ قرأتها بعمق حتى صرت شغوفة بالمطالعة وبالكعوب العالية وبنفسي! طبعا أنت لا تصدق أن هاتين العينين التقتا ذات يوم بحرف

مرسوم على صفحة؛ فهما لا توحيان بذلك! لكن، صدقني يا أستاذ، أنا أقرأ، أنا مُحَمّجة الأخلاق، الزقاقية الماجنة! لكنني أقرأ..

أنا سونيا... أتفهم!

شعاري في هذه الحياة؛ "الخبز والما والراس في السما"، أنا معجزة ذاتي ولا فضل لأحد عليّ، لأنّ الكلّ لا يستحق؛ صح!

إذن اكتبْ، لا تتردّدْ، اكْتبني، لا تكتبْ عني. أقصد.. كيف أقول لتفهم؟ دعْك من الصّيغ، دعْك من ضمير المتكلّم فهو جاحد، واستمعْ إليّ أنا.

دعْك من تقنية السّرد والحبكة وما إلى ذلك. دعْك من هذا الذي تسمّيه الرّاوي؛ أتفهمْ؟ اطردْه، كنْ قدره وارْم به إلى الشّارع كما رمى بي قدري إلى حيث النّتانة والحشود، الدّم وأشباه الرجال، البرد والوحشة والصّديد، المساطيل وبنات الليل... إلى هناك؛ إلى حيث تنعدم أيّة فرصة لتعريب الحياة العملية.

## - 2 -

«الكاتم» رياضي سابق؛ يقال أنه مارس لعبة كرة القدم إلى أن اعتزل، ويقال أيضا أنه كان يكسب لقمة عيشه من التّدريب؛ تدريب ماذا.. تدريب من..؟؟ من المؤسف أنني لا أدري. ربما كان يدرّب اللاعبين على ركل الكرة إلى مسافات بعيدة، أو يدرّبهم على تسديد اللكمات القاتلة والقفز داخل الحلبة. إن له هيأة ملاكم حر لا ينهزم أبدا، ذلك أنه ينتمي لأثقل وزن ممكن، ناهيك أن طوله غير معقول.

بعض هذه المعلومات غير المهمة عرفتها من «الدرّاجي»، سابقا، وقد صاغها خلال أحاديث عابرة، على شكل تخمينات غير أكيدة، لكن أخيرا تبيّن أنها صحيحة، ربما كان لديه المزيد من المعلومات، لكنه لم يشأ إخباري بها، حتى جاء الوقت المناسب، فعرفت تفاصيل أخرى أكثر أهمية من أشخاص آخرين على رأسهم ذلك الرجل المصنّف من فئة "الكبار".. «نجيب دواوة»، الذي أجابني حتى دون أن أساله عن كل الاستفهامات التي ظلّت تدور بذهني، ومحتمل أنّها تدور بأذهان قرائك الآن، كما أضاء لي نقاطا لم أتفطّنْ لضرورة إضاءتها حول شخصية ذلك الرجل المجرم المسمّى «الكاتم».

هل تصدّقني يا «بيبي» إن قلت لك إن «نجيب» هذا -وهو صاحب شركة مقاولات وظيفتها إتلاف المعالم التاريخية للاستفادة من مشاريع ترميمها، كما أنه حاليا شريك «الدرّاجي» أو حاميه الأول- هل تصدّق أنه قبل تسعة أشهر قال لي:

"من المستحسن أن نحصل على صورة لهذا «الكاتم» حتى نتأكّد أنه الشخص الذي تعنينه"..

والغريب أنه حصل على صورته بالفعل وأراني إياها. حتى أنني أصبتُ بالدّهشة، إذ كيف يمكن لرجل من الأرض أن يحصل على صورة لرجل فضائي.

فيما بعد تبين لي أن «نجيب» هو الآخر قادم من فضاء آخر. لكن، رغم فضائيته إلا أنه يبدو أقرب ما يكون إلى الواقع، إذ يمكن الوصول إليه، والتّحدث معه، مادام على علاقة بـ «الدرّاجي». فيما يظل «الكاتم» رجلا لا علاقة له بأحد، فهو نوع خاص من الرّجال المدرّبين على العيش بمفردهم في عوالم مختلفة، رغم أنه كان في السابق لاعب كرة قدم أو ملاكما حرّا، أو مجرّد مدمن على أوراق اليانصيب. ولسبب ما ترك حياة الرياضة هذه واشتغل في سكّة الحديد لسنوات عديدة، قبل أن يلتحق بعناصر قوّة الحراسة الشخصية لمسؤول هام في الدولة، حيث كانت مهمته مقتصرة على قيادة السيارة. أقول "مسؤول هام"، ولا أدري مدى هذه الأهمية التي يتميّز بها هذا المسؤول، لكنني أدري تماما أنه من جماعة الـ "فوق".. الفوووووق جدا.. هل يمكن أن يكون الرئيس مثلا.. الرئيس يا «بيبي»؟.. الرئيس أو أحد الذين يرتدون بدلات سوداء ويرافقونه دائما ويوشوشون له في أذنه.. بينما أعينهم تتطلّع إلى الأعلى..؟؟..

كلا.. كلا.. أظن أنه شخص آخر، من ذلك النّوع الذي لا يظهر في التلفزيون مهما كان الوضع سيئا أو جيدا؛ لا يظهر في الكوارث ولا في الأعياد، ولا يكشف عن نفسه أبدا، ولا يعطي معلومات عن الدور الذي قام به أو يقوم على الدوام. إنه باخْتصار رجل متكَتّم عليه جدا لهذا اخْتار سائقه بعناية، وأطلق عليه هذا الاسم؛ «الكاتم».

"لا تخافي أبدا.. سأقوم باللازم".

قال لي «الدرّاجي» هذا في أول يوم لجأتُ فيه إليه، بعد أن ازدادتْ مخاوفي من أن يتعرّض لي هذا «الكاتم» مرة أخرى، ويجهز على ما تبقى من حياتي، خصوصا أن زوج أمي كان لا يزال يشعر أنه مهدّد، لكنه لم يكن يفصح عن ذلك. وحتى وإن أفصح فإنني لن أصدقه تماما، لأنه لا يقول الحقيقة عادة. إنه يروي الأحداث والوقائع، لا كما حدثتْ ووقعتْ، بل يرويها على هواه، والأسوأ من ذلك أن ما يرويه لي، غالبا ما يكون مختلفا جدا عما يرويه لأمي، وقد يكون مناقضا تماما لما يرويه للدراجي. وإن حدثَ أن التقى مؤرّخا محترفا وجلس أمامه، وبدأ يسرد عليه أحداثا معينة بهدف تدوينها في كتب التاريخ، فستكون -بلا شك- روايته في آخر الأمر منافية تماما للحقيقة. لكنها ستكون في حالة واحدة شديدة الواقعية ومبنية على منطق إذا كان هذا المؤرخ شديد السخاء، بحيث يدفع بعض النقود لزوج أمي مقابل كل كلمة يقولها. وفي حال كان هذا المؤرخ امرأة وليس رجلا، أو شيخا وليس شابا، أو يعمل لحسابه وليس مبعوثا من هيئة رسمية، أو يرتدي بدلة سوداء وليس قشّابية*.. فسيتغير مسار الرواية جذريا،

* القشابية لباس معروف في الجزائر تُصنع من الوبر والصوف.

أي حسب حالة وطبيعة متلقي الرواية الأول، أعني هنا المؤرّخ المفترض. لكن في كل الحالات فإن زوج أمي لن يقول الحقيقة أبدا. لأنه هو ذاته يكون قد نسيها، فهو من فرْط انْغماسه في الكذب يجدُ نفسه مؤمنا بصدقيّة أكاذيبه، ولا ينقصه سوى أن يعمل على تأصيلها حتى يضمن شروط بقائه واستمراره. إن زوج أمي مجبر أن يكذب دائما، لأسباب عديدة، يصعب حصرها. لكن، إن شئت يا «بيبي» سأجتهد في وضع هذه الأسباب على شكل نقاط متتالية:

## - 3 -

أين آخر كلمة قلناها في المرّة السّابقة..؟ إليّ برأس الخيط ولا تهتم، سأتكفّل بالباقي.

آه، نبدأُ من هنا.. وخلال ذلك نستمر في وصف المكان. أفهمك جيدا؛ التّسلسل مهم في هذا النّوع من الكتابة، هذا ما قلته لي دائما.

إنّني ملتزمة بكلّ بنود الاتّفاق وأشعر بالمسؤولية تجاه نجاح مشروعنا؛ كيف لا وقد رماني رحم أمي إلى الشّارع ورماني الشّارع إليك، فكنتُ حصيلة من التّناقضات الرّهيبة، وآن لي أن استثمر كلّ هذه التّناقضات؟!

في الواقع إنّ شعوري بالمسؤولية يغلبُ على شعوري بالحريّة، وهذا ما لم يحدثْ معي أبدا. لطالما كنت أطلقُ العنانَ للساني فحسب، أتكلّم ولا أبالي باخْتيار الألفاظ والعبارات، لا أهتم بالزمان والمكان والحبكة والشخصيات وما إلى ذلك. كنت أشارك الجميع ضجيجهم بإطلاق النّكات والضّحكات والشّتائم، ولم يكنْ من بين كلّ من عرفت رجل واحد يدوّن ما أقول، وها أنت تفعلُ هذا الآن.

إنّها حقا تجربة فريدة أن أتحدّث عن نفسي، ثم أرى كيف تتحوّل أحاديثي إلى آلاف من الأسطر مرتّبة على ورق أبيض، ليأتي أفراد آخرون يجمعون أحاديثي ويضعونها في كتاب أنيق، يتداوله النّاس فيما بعد، وأخص بالذكر هنا؛ (القارئ والقارئة).

مادمت أنا بطلة هذه الرواية فلا شك أنّها ستكون الأفضل في العالم. ألا تظن أنّها ستكون الأفضل في العالم يا «بيبي»؟!

ألا تظن أن الناس سيقفون طوابير.. طوابير.. ليحصلوا على نسخهم قبل فوات الأوان؟!

أراهن على ذلك، فقصّتي هذه لن تمرّ بسلام على حياة أي قارئ أو قارئة، إنّها ليست مجرد أوراق وحروف وفواصل وتأوهات، بل هي نهر من الحياة لا يتوقّف، كنز من الحكمة، ريح تحمل السّحر والأعاجيب، أو وباء يستفحل في المدن والقرى، وتصعب بعد ذلك مقاومته.

أتصور أن أوّل امرأة تقرأ قصّتي ستشعر بجنون عاصف يملؤها، وهكذا يكون من الصعب توقّع ما ستُـقْدِمُ عليه لاحقا؛ ربما سترغب في ممارسة السّحاق مع زوجها.

وأتصور أن أول فتى لطيف يقرؤها سيشعر بتموج لذيذ داخل أحشائه، فيستلقي ويمسّد بطنه بيديه، هه.. ثم يقال عنه؛ "لقد أصبح الفتى حاملا بتوأم، وعما قريب سيضع ضفدعين جميلين".

هيا أكمل الرواية يا «بيبي» لتزخر البلاد مستقبلا بالنساء اللوطيات والرجال السحاقيين والضفادع.. أكملها؛ فإن نشرها سيكون أهمّ ما يحدثُ في الحياة بالتأكيد، أقصد في حياتي، لكنّه لن يحدث دفعة واحدة للأسف، كما هو الحال عند

حصول مفاجأة سّارة، إذ أن الأمر يحتاج لمزيد من الصّبر حتى يتحقّق مشروعنا ونذهب أنا وأنت، ذات يوم، إلى صاحب المطبعة ونستلم منه أوّل نسخة من قصّتنا هذه. سنتنفس ساعتها بعمق قائلين: "أوف، هاهي ثمرة عملنا".

سيحدث هذا للمرة الأولى ولا يمكن أن يُعاد أبدا، كما لا تُعاد لحظة الميلاد، هل يولد أحد مرتين؟

إنّك لتذكرُ بالتّأكيد بعضا من تلك التّجارب التي تحدثُ في حياة أيٍّ منا لأوّل مرّة، ويكون لها الأثر الظّاهر على باقي مراحل العمْر، بعض التّجارب لا تتكرّر أبدا.. وبعضها تصبح عادة سيّئة أو حسنة أو غير ذلك، بعضها نسعى إلى تكرارها فلا نوفّق إلا قليلا ، أو لا نوفّق أبدا، وبعضها تحدث من قبيل الصّدفة أو يدفعنا إليها الحظّ العاثر أو السّعيد، وبعضها، وبعضها.

حدّثْني عن شعورك وأنت تستلم للمرّة الأولى أول كتاب لك من تلك المجموعة البائسة التي نشرتها ولم يقرأها إلا الغبار.

حدّثني عن أول امرأة أعطتك موعدا، فقضيت الليل كله تحلم بذلك المنظر الخارجي للبطل وهو يتّجه إلى بوابة العمارة، ثم يلتفت يمينا ويسارا كلص ليلي، ويرتقي السلم إلى الطابق السابع والسبعين، حيث الشقّة المقصودة: يطرق الباب، وما إن تفتح له حبيبته العارية تماما حتى تجذبه من حزامه وتجره إلى الأريكة، ثم تسمح له بالاستيلاء على شفتيها، وتبدأ القبلة المدوية التي تقضّ مضاجع الجيران في الطوابق العليا والسفلى وما بينهما.

حدثني عن يوم ختانك وكيف أمسكَ الطّبيب بشيئك الغضّ، وقطع جزءا غير يسير من كبريائك، وإذا بالزّغاريد تنطلق والبارود، وما إلى ذلك احتفاء بك.

حدثني عن أول عملية اسْتمناء ناجحة قمْت بها في جُرْف أو تحت شجرة صفصاف. أقول.. عملية استمناء؛ لأضفي طابع الأهمية على هذا الفعل الذي يُحتمل أنّك أدمنتَه فيما بعد. أنا لا أتكلّم عنك شخصيا؛ فأنت كاتب محاط بأكثر من هالة تمنعني من مجرّد التّفكير بأنّ هذه اليد التي تخطّ الآن قصّتي هي اليد ذاتها التي تستخلص ماءك الثّقيل؛ هل فعلتها من قبل؟

قل لي ولا تخجل؛ فهذا ليس سيئا بالضرورة، هي مجرّد عادة يمارسها الجميع سرّا، ثم يكونون بعد ذلك محترمين.

إنني لأموت وأراك تستمني؛ هل فعلتها يا «بيبي»؟

ليس سهلا أن أتخيّل هذا المشهد النّادر بالنّظر إلى مقامك وهيبتك. هه، حتى التخيّل يتطلّب بعض الجُرْأة..! رغم ذلك سأجعل خيالي يتخيّل.

## - 4 -

أولا، زوج أمي يكذب، لأنه ببساطة زوج أمي. وما دام كذلك فهو كما هو، يكذب ويكذب ليظلّ مدى الحياة والموت، جديرا بحمل هذا اللقب الذّهبي؛ "زوج أمي". وهو لقب يمكن أن تسحبه منه لجنة التّحكيم في أي لحظة، لهذا فإنه قلق.. قلق جدا. ومصدر قلقه ليس إلا خوفه من أن يفقد لقبه الأغلى، ذاك الذي حصل عليه سابقا بالكذب أيضا، وقد يخسره لاحقا إذا صار مردود الكذب لديه أقلّ من اللازم، كما قد يخسره إن هو تمادى في الكذب أكثر مما ينبغي له أن يكذب.

أليست معادلة شديدة التعقيد يصعب تحقيقها؟ إنّها تشبه تماما حال من يُطلب منه الكلام دون أن يسمح له بالتّنفس، في الآن ذاته، أو يُطلب منه التّنفس بينما أحدهم -على شاكلة «الكاتم»- يكتم على أنفاسه. كلا، كلا يا «بيبي».. لا أظن أن هذا التشبيه مطابق تماما. دعنا نبحث عن تشبيه أكثر دقّة. هاه.. حسنا، ما رأيك فيما يلي: تخيّلْ، على سبيل المثال، أن شخصا، أي شخص كان، يقول لك: حاولْ أن ترتفعَ عاليا.. لكنْ، احْذرْ أن تعلو.. وحاولْ أن تنزل إلى الأسفل، إلى أسفل السّافلين، لكنْ احْذرْ أن تصل إلى حدّ السّفالة.

ثانيا، زوج أمي يكذب، والكذب في جميع مستوياته يكون أحيانا بالإشارات أو الإيماءات، بالسكون أو الحركة، بالتّسجيل أو الكتابة، بالصّمت أو الكلمات. والواقع أن الكلمات غالبا ما تكون هي المادة الأكثر استعمالا في عمليات الكذب الأصلي. وصِفَةُ "أصلي" أستعملها هنا لأستثني أنواع الكذب الأخرى؛ الكذب المستند إلى نوايا حسنة، الكذب لأغراض نبيلة، الكذب غير المقصود، الكذب المدعم بالأدلة الدامغة، الكذب بدافع المجاراة أو لتجاوز عقبة الإجراءات الشكلية التي يتحصّن بها البيروقراطيون بذريعة أنهم ذوو مصداقية، الكذب الأبيض، الكذب بالمعنى الفني لنقل الواقع كما هو، كذب الزوج على الزوجة وكذب السائق على شرطي المرور، الكذب.. الكذب الأصفر، الكذب الذي يُراد به حق.. إلخ.. إلخ..

إن أنواع الكذب هذه هي مجرد كذب ظرفي لمعالجة أمر ما بغية تجاوزه، أما زوج أمي فهو يكذب ليغيّر بالكذب طبيعة البذرة الأولى لأي شيء حقيقي يريد تشويه مسار نموه، فإذا نما هذا الشيء فإنه ينمو على أنه حقيقة، لكن، حقيقة ذات منبت أولي كاذب. إن زوج أمي يؤصّل كذباته ويظل يكذب.. يكذب بالشم، باللمس، بالصوت، بالصورة، بالفعل، بالقول.. وأغلب الكذب لدى زوج أمي يكون بالقول. إن لسانه هو أداته الأساسية والكلمات هي منجمه ورأس ماله لممارسة الكذب الأصلي، ضع يا «بيبي» لفظة (أصلي) بين قوسين دائما.

هل تتذكّر تلك العبارة في الكتاب المدرسي! تلك العبارة العابرة للأجيال؛ املأْ الفراغات في النص بالكلمات المناسبة. ويكون أمامك نص

من فقرة أو فقرتين، به كلمات محذوفة، وفي مكان كل كلمة محذوفة يوجد فراغ على شكل سلسلة نقاط يكفي لتعويضه بكلمة مناسبة لسياق الجملة، من ضمن مجموعة كلمات معروضة في أسفل الصفحة بخط مختلف؛ هذه الكلمة (أ) لهذا الفراغ (ب)، وتلك الكلمة (ج) لذاك الفراغ (د) وهكذا.. وزوج أمي يفعل هذا أيضا، إذ لديه خزّان لا ينتهي من الكلمات، وهو يقوم بملء الفراغات التي تواجهه، ثم يقدّم ما لديه على شكل كذبة. إنّها كذبة لكنها محكمة السياق. فهو يحتفظ بالحدّ الأدنى من المعلومات والوقائع والقرائن والتعابير المتّفق حولها حتى يُضفي طابع المصداقية على كلامه، وبالمقابل يستخدم جميع مواهبه وحواسه ونقاط قوته وضعفه، في اللعب بالتفاصيل حيث يستوطن الشيطان في الفراغات القابلة للملأ. وعندما ينجز هذه العملية يطلق النّسخة الأولى من روايته الكاذبة، ويجتهد في بثّها للأطراف المعنية بالموضوع، كل طرف على حدة. إنه يقوم بحملة حقيقية، كتلك الحملات ذات المنفعة العامة، التي تقوم بها الحكومة لتحذير الناس من الأخطار المحدقة بهم.

عندما ينجح زوج أمي نسبيا أو كليا في هذا العمل المعقّد، يتريّث. ذلك أن الأطراف الأخرى تبدأ بإحداث تغييرات في معطيات الرواية بما لا يتضاربُ مع طموحات زوج أمي التّحريفية. وفي هذا الوقت تكون بعض التفاصيل التي ضمّنها زوج أمي في روايته، قد أصبحت في خانة المتّفق عليه. وخلال المرحلة الثانية يقوم بالعملية ذاتها؛ أي الاحتفاظ بالحد الأدنى من المعطيات واللعب بالتفاصيل، ثم البثّ الانفرادي.. وهكذا. مرحلة تتلو مرحلة، والكذب جار على قدم وساق.

في آخر الأمر -وبفعل التّنقيح المستمر الذي قام به زوج أمي- نحصل جميعا على نسخة أخيرة من الرواية، مختلفة كثيرا أو كليا.. مناقضة أو منافية تماما للنسخة الأصلية، فهي الخلاصة الأكثر مصداقية للكذب الأصلي. لأنّها مع الوقت تصبح أكثر شيوعا وإقناعا من الحقيقة. بل إن الحقيقة لتخجل أمامها ويساورها الشكّ في ذاتها.

الحقيقة يا «بيبي» لا تلمع ولا تصدر رنينا، لا تزاحم ولا تهرول لتكون في الصف الأول. إنّها تقبع في ركن مهمل، في أقاصي الهامش، في الجهة الأقل توقعا. تقبع هناك؛ منبوذة، يتيمة، عارية، ولا أحد يفتقدها.

عندما كان العالم أول مرة، هادئا وشفّافا، كان صوت الحقيقة يُسمع وكان وجهها يُرى، أما اليوم، فالفوضى تملأ الدنيا والجلبة تطغى على كل شيء، ولا مجال للتبصّر والمكاشفة.

العمى يتفشّى في الناس والأشياء يا «بيبي».. يستفحل في الأرواح والعقول والأجساد، يستولي على أعماق الأعماق. الناس لا يرون حقائق الأشياء لأنهم عميان، والأشياء لا يمكن رؤية حقائقها لأنّها تتحرك وفق نظام تعموي دقيق. يسهر على استمراره وتعميمه، ونشر شبكاته في كل الأنحاء، رجال تم إنتاجهم في مخابر خاصة لتنفيذ مهماتهم الإعمائية دون زيادة أو نقصان:

"افقأْ العيون بقدر ما تشاء، لكنْ، لا تفقأ أبدا أعين العميان".

العالم منقسم إلى فئتين: أغلبية من العميان وأقلية من الإعمائيين. إنّهم أقليّة من حيث العدد، رغم ذلك فهم يتحكّمون في حياة الأغلبية بما لديهم من قوة ومن عدّة، ووسائل تعمية يستمدّونها من قابلية ضحاياهم للانعماء.

أقلية، لكنهم أقلية غالبة؛ منظّمون تلقائيا ولا قائد لهم! يستمعون لصوت مبثوث في رؤوسهم، يأمرهم بشدة، فيستجيبون للأمر وينفّذونه على الفور بلا أدنى خطأ. وهم مقَسّمون إلى طبقات: طبقة فضائية من زمرة «الكاتم» وغيره.. وطبقة ما "فوق فضائية" من زمرة المسؤول الهام في الدولة الذي لا يمكن رؤيته أبدا، وهكذا..

ثمة طبقات أخرى يا «بيبي»: طبقة ما "تحت فضائية".. طبقة وسطى.. طبقة ما "تحت وسطى".. طبقة أرضية.. طبقة سفلى.. طبقة ما تحت سفلى.. أقول، "ما تحت سفلى" وهي الطبقة التي ينتمي إليها زوج أمي، تعمل تحت شعار: كنْ في الأسفل، في أسفل السافلين لكن، احْذرْ أن تصل إلى حدّ السّفالة. وأظن حتى زوج أمي في آخر المطاف قد صار مبَالغا في سفالته، وهكذا جرى إقصاؤه تلقائيا من النظام: النظام التّعموي القائم على تعميم العمى.

ثالثا، زوج أمي..

رابعا، يكذب..

خامسا، هو ذاته في الأصل كذبة؛ كذبة تقوم عليها حياة كائن يقاوم ويقاوم ليظلّ شبيها بذاك الذي يحمل لقب "زوج أمي". إنه يحتفظ بالحد الأدنى من مواصفاته الشّكلية حتى يبقى في نظرنا هو وليس شبيهه. إذا دققنا في التفاصيل التي يستوطن فيها الشيطان دائما، فسنكتشف أنه ليس إلا نسخة أولى، نسخة كاذبة عن نفسه. وبعد التّدقيق أكثر، ومحاولة تحريف التفاصيل عبر كل مرحلة، وذلك باستعمال منهجية الاحتفاظ بالحد الأدنى من المعطيات وإضفاء مزيد من التّزييف على التفاصيل المزيّفة مسْبقا، ثم بثّ المنتج وهكذا.. بعد ذلك كله نحصل على النّسخة النّهائية الكاذبة

عن زوج أمي، التي هي أكثر مصداقية من النّسخة الأصلية. ولأنّها ذات مصداقية فلا مناص من الاعتماد عليها أحيانا لملأ الثّغرات التي تتخلّل تغطيتنا لشخصية «الكاتم»، كي لا تظلّ شخصية مكتّما عليها حتى في نصك هذا. أظن أنك تفهمُ ما أقصد؛ تفهمني؟!

## - 5 -

الناس ليسوا بالضرورة مثلك يا «بيبي».. إنّهم فضوليون بطبعهم، ويريدون معرفة كل شيء دفعة واحدة، عن الأشخاص المحَبّبين لديهم.. الأشخاص النّادرين، المرموقين، الجديرين بالاقتداء بهم.. الأشخاص الذين عملوا بجهد حتى استحقّوا الآن ما خبّأت لهم الأيام سابقا، من مفاجآت سارّة.. وهذا ما سيحدث معك أنت أيضا.

إن جلستك غير الصّحية أثناء الكتابة لَخير دليل على ما أقول؛ فاهْنأْ بنفسك يا «بيبي». وعندما تتغير حياتك وتبلغ أقصى درجات المجد تَصرّفْ كرجل عظيم؛ أتفهم ما أقصد؟

احصلْ على ملابس سوداء أو بيضاء من محل خاص، واحرصْ أن تكون بمظهر لائق، طيلة الليل والنهار، وأثناء النّوم، أو في المرحاض.. حتى إذا جاءك ملك الموت ليصطحبك إلى قبرك الفخْم يجدك مستعدا استعداد العظماء! فلا تكون مضطرا للتوسّل إليه أن يمهلك دقيقة كي تغيّر ملابسك وتجري بعض المكالمات الضرورية، أو تشترط حضور محاميك الخاص معك.

إن هذه اللحظة هي الامتحان الأخير، وعليك أن تتجاوزه بسلام ليتمّ وضع اسمك الذهبي على رأس قائمة رجال التاريخ النّادرين. ألا تعلم أن اسمك مناسب لمكانتك الحقيقية.. ألا تعلم يا «بيبي»؟

تخيلْ معي تلك العبارة المحفورة على الرخام؛ (هنا يرقد الدكتور «محمود الساهي» رحمه الله)، وتخيل أنني عجوز هرمة بمعطف أسود كما في أفلام السينما؛ شالي على رأسي! وثمة دمعة تلمع على خدي وأنا أردّد بضع كلمات مؤثّرة بينما السّائق بلباسه الرّسمي يقف على بعد مسافة قصيرة مني. إنه ينتظرني، وعندما أشير له، يجلب إلي باقة ورد ويضعها في يدي؛ يدي وهي داخل القفاز الأسود! ودونَ أن ألتفتَ إليه آخذ الباقة منه، أو لنقلْ تكون الباقة في يدي دون أن أكون قد أخذتها منه! ثم أضعها بكل أناقة على شاهد قبرك. وهكذا تنطلق موسيقى حزينة وتفلت ثلاث دمعات أخرى من عينيّ يكون لهن التأثير الكبير على المشاهدين والمعجبين بك وبمآثرك وصفاتك الحميدة.

يا إلهي ما أروع التخيل!

أريد دائما أن أتخيل! أما أنت، فاجْلسْ عند قدميّ وابدأْ بنقل الواقع، بأمانة.. واقع لا يستقيم إلا بوصف هذا البيت اللعين؛ هل أخبرت قراءك أنك أنت من استأجره، وأنك -وهذا من باب الأمانة طبعا- دفعت لأجله مبلغا تسبيقيا كلفك مدخراتك المالية لعشر سنين ماضية أو للسنين كلها، الماضية منها وغير ذلك! بينما أنا في الصورة المنقولة (بأمانة)، مجرد ضيفة طارئة، متوهّجة بذيئة، نحيلة مرنة مثل أفعى مباركة، أجيء إليك بعد فصل متخم بالتّبغ والعبث، بالصّخب والرّقص والنّبيذ.

قد تطول إقامتي هنا، معك، لأسابيع أخرى عديدة، أو ربما سأبقى حتى النهاية، لكن ليس إلى ما لا نهاية! لأن هذا البيت مضجر -وغالبا ما يكون خاليا من الألفة- منفّر، طارد للأحاسيس الصغيرة، فكل فضاءاته تم استهلاكها، فلا مجال إذن لصنع ذكريات حميمة به. كما أنه يذكرني بشيء ذي علاقة بالجرب أو البرص أو تلك البثور المزروعة عنوة على وجوه الأشخاص المريبين! وبالتالي فمن العبث أن أجتهد في وصف هذا البيت لقرائك؛ ماذا لو تتكفل أنت بهذه المهمة؟! وخلال ذلك أقوم أنا بوضع قطعة قماش خشنة على زجاج النافذة فيخفت هذا النور المنهمر من الخارج.. يخفت تماما إلى أن تتقارب الأشياء بظلالها وتتجاور، فيما تتمازج الألوان وتتداخل، بما يوحي أنها في حالة كسل شاعري غامض.

# - 6 -

لم تكن «بَهِيّة» وحيدة تماما، أو لم تكنْ وحيدة أبدا، فلديها صديقات يزرنَها في كل وقت ومعظمهن يطقطقن اللبان، كما أنّها لا تخفي علاقتها برجل غريب يقضي بعض الأوقات في بيتها، وهو يشبه زوج أمي! لا أظن أنه يشبهه، أو -في الواقع- يشبهه من حيث أنه دخيل؛ دخيل لكن ذو هيبة.

«عمو يونس» هو الآخر ذو هيبة. الحق أقول لك؛ إن شكله الخنثوي لم يفقده هيبته وهيبته لم تمنعه من التوغل في حياة أمي حتى صار واقعا يسهل تقبّله. يدخل بيتنا متى شاء: يأكل، ينام، يتعطر، يحلق شعر عانته، يغير ثيابه ويثرثر مع أمي حتى مغيب الشمس.. يثرثر كأنه الأخت الكبرى المصابة بداء العنوسة. إنه رجل صابوني، يندمج بيسر وسلاسة، لكنه لا يستفحل، لهذا فهو ليس دخيلا كما زوج أمي، وبالرغم من أنه ليس دخيلا إلا أن وجوده في أوقات معينة يوحي إليّ أن أطلب الإذن من أمي حتى تسمح لي بالذهاب إلى «بَهِيّة» وأفسح لها أنا المجال مع «عمو يونس»، فقد تكوّنتْ بينهما -كما قلت لك سابقا- أسرار وربما أيضا مشاريع مشتركة.

صارا يتكلمان في كل شيء. وكانا قد تكلما أول مرة كمسافرين، في قطار واحد، قادهما الحظ إلى مقعدين متجاورين فما كان منهما إلا أن يتعاونا

على إهدار الوقت، ولو بالكلام، حتى تنتهي فترة السفر. وهي فترة كانت ظرفية، لكنها لم تعد كذلك، فقد اكتشفا خلال حديثهما مدى التقارب بينهما فقررا أن يبقيا متلازمين حتى بعد أن يصل القطار محطته النهائية.

وقد لا تكون الصدفة هي التي لاقتْ «عمو يونس» بأمي، بل إرادة ما دفعت باتجاه أن يكون هو دون سواه، المكلف رقم واحد بالتحقيق في حادثة اختطافي، باعتباره رجل أمن، ويكون عليه فيما بعد أن يبقى في الصورة على نحو ما. وهذا ما يبرر زياراته المستمرة لبيتنا، وتلك الثرثرات التي يتبادلها مع أمي على مدار ساعات، إلى أن يأخذه النوم أحيانا.

لا أظن أنه يفعل هذا بدافع إهدار الوقت، بل -بلا شك- أن لديه شيئا خاصا تفتقده أمي؛ شيئا ذا أهمية! لكن ما هو يا ترى؟ لنقلِ (السلطة) مثلا؟ هه. السلطة! باعتبار أن أمي تحتاج إلى الحماية؛ هذا محتمل جدا أليس كذلك؟!

ثم إن لدى أمي شيئا ما، هو بحاجة إليه؛ موهبتها. أجل موهبتها في إدارة شؤون الآخرين، وقدرتها الفائقة على الوصول إلى خصوصياتهم. إنها مستودع أسرار! وهذا مهم جدا لرجل مثل «يونس» يرتدي ثيابا مبهرجة، وفي عنقه قلادة ذهبية. ناهيك أنه ينظر بعمق وتمعن، ونظرته حسب ظني لا تخيب أبدا. إذن فمن المحتمل أنه رأى في أمي امرأة مناسبة أن تعمل لحسابه. وهكذا توافق الاثنان وتقاربا.

لقد تخلّت أمي عن لقب زوجة فلان، وصارت تسمّى: (صديقة يونس)؛ «يونس» المقرّب أكثر مما هو زوجها مقرب إليها! كيف لا وقد سمحتْ له -عن طيب خاطر- أن يدخل غرفتها ويبدي رأيه حتى في لون قميصها الداخلي!

كما أن «يونس» تخلّى عن لقب رجل الأمن، وصار يقضي كثيرا من الوقت معها؛ يتكلم ويضبط مواعيد ويتصل ويسدي النصائح ويلقي من عل برزم من الأفكار النيّرة تتلقّاها أمي باندهاش -مبالغ فيه- يصعب على ملامح وجهها الرّاكد مجاراته.. لقد لاحظتُ «بَهيّة» كيف تعبّر أمي عن إعجابها بكلِ ما يقوله «يونس» وما لا يقوله، فقامت بتقليدها عدة مرات، بطريقة تبعثُ على الضّحك. وكانت تقلّد «عمو يونس» أيضا، وتنسج حوله طرائف صغيرة:

"أُنظروا؛ أُنظروا كيف يفعل.. هكذا"!

وهكذا تَمد «بَهيّة» رجليها، وتشبك يديها وراء رأسها، مستندة على مخدّة كانت قد ثنتْها بإحكام، وضغطتها على الحائط، ثم تطلق عبارات خطابية. وبعد ذلك تحرر يمناها وتؤدي حركة ماجنة مصحوبة بضحكات عامرة بالانطلاق.

"أُنظروا.. فهو إذا لَمَلم خصيتيه.. هكذا.. نعم هكذا.. إذا لَملمها فهذا يعني أنّه انتقل للتو من فكرة إلى أخرى.. أما إذا..".

وهذه الـ (أما إذا)، تكررها لأكثر من مرة: "أما إذا"..! ثم تكون تلك البرهة الوجيزة من الصمت المدعم بنظرة نصف شاملة للجميع، يبدأ مؤشرها من الدرجة (٥) ويصل إلى (180)، وهذا ما يوحي أنها على وشك الإدلاء بأهم تصريح في حياتها. لكنها لا تكمل المشهد بإتقان إلى نهايته، بل تدع ضحكتها تفلت منها. "أما إذا".. وتضرب على إحدى إليتيها، وتبدأ بتدوير مؤخرتها حول محور افتراضي، بما يشبه "حركة المطحنة"..

"أما إذا.. أما إذا.. غيّر من وضعية جلوسه فانتبهوا.. لا شكّ أنّه سيضرط موضوعا جديدا"!

من المحتمل أن لفظة "يضرط"، تستفز أمي وتثير غيظها، لما فيها من رائحة استخفاف بعمو «يونس»، الذي يعني كل شيء لها مادامت تحتكره لنفسها لقضاء مآرب شتى، وتحقق به بعض الأفضلية على صديقتها «بَهيّة» التي -حتى هذه اللحظة- لا يعني لها «يونس» شيئا مادام يتحرك بعيدا عن دائرتها. إنه في نظرها رجل بلا قيمة، وسيظل كذلك، إلى أن تستجيب أمي لمطلب «بَهيّة» -غير المعلن- بضرورة إشراكها في كل ما يدور بينها وبين يونس في الخفاء. لهذا فإن «بَهيّة» تستغل لحظات المرح للتطاول على شخص «عمو يونس» في غيابه -طبعا- لكن بحضور أمي، وحبذا أن يحدث هذا بحضوري أيضا، ليكتمل -مع التكرار والتنويع- مشهد التقليل من شأنه، حتى تطيح بجميع الهالات التي تحيط صورته داخل بيتنا. وعندما يتحقق لها ذلك يصبح يونس رجلا كباقي الرجال في نظر الجميع وهكذا تقترح «بَهيّة» خططا أولية لما يجب فعله لاستغلاله، وتكون أمي شريكتها في ذلك.. أمي التي تدرك حقيقة هذه النوايا الخبيثة الكامنة في نفس «بَهيّة»، لكنها تتغاضى عما يصدر عنها دائما، كما تغاضت عن وصفها لـ«يونس» بأنه "يضرط المواضيع".. وتظل تتحملها وتتحملها رغم خبثها، ليس لأنها صديقتها المفضلة، بل لأن الخبث هو أفضل ما فيها كصديقة.

"هيا كفي عن هذا يا «بَهيّة»".

لكن «بَهيّة» لا تكفّ، بل تظل تمزح وتمزح بأسلوبِها المسرحي الحقيقي، فتكون حركاتها دائما شيقة وجريئة، إنها ليست كتلك الحركات المبتذلة في المسرحيات الرسمية، حيث يَخِرّ الممثل على ركبتيه ويرسم عشرين نصف دائرة افتراضية على يمينه وعشرين مثلها على يساره، تتخللها بضع كلمات منمقة يستجدي بها إعجاب الجمهور، والغريب في الأمر أن الجمهور

يصفق، خصوصا جمهور الصف الأول، إن منهم نساءً ورجالا، يعطونك الانطباع بمدى عجزك على فهم ما يدور خلال المشاهد، ما لم تتدرب سنوات طويلة على مشاهدة المسرحيات الغامضة، أي تلك التي يقال إن بها معاني غير ظاهرة، يتعمد الممثل وضعها خلف حركاته وكلماته، كما يضع التاجر سلعه الخاصة وراء ستار ليخصّ بها زبائنه المفضلين، ويحصل منهم مقابل ذلك على هزات رأس محسوبة وعبارات اندهاش، إعجابا بِموهبته في انتقاء الأفضل لهم، ويحصلون هم منه على شهادة "تجديد الاعتراف" ولو معنويا بأنهم من الصفوة.

أظن أن لدى «بَهيّة» موهبة خارقة في فن التمثيل، خصوصا أنها ترتجل المشاهد وتحسن وضع النهايات:

"ذات مرة لم يعدّلْ «يونس» وضع جلوسه فتعفّنتْ مؤخرته".

# - 7 -

هل ترغب بشيء ما؛ حليب مضاف إليه بعض القهوة مثلا؛ ما رأيك؟

حسنا، سأعده لك حالا، هيا أكملْ ما بدأت به، وكن بارعا في وصف المكان ما استطعت. المكان الذي هو بيتك؛ صفه جيدا.. صف جدرانه المتفسّخة عليها آثار بغي كانت تسكنه قبلك، أقول كانت؛ لكن الظروف واتتْها فيما بعد فارتقت إلى طبقة عليا! وهكذا قررت على الفور مغادرته. في غضون ذلك ساءت ظروفك -أو هكذا أنت تظن- فوجدت نفسك تحل مكانها، هنا؛ بقاع الطبقة السفلى.

صف ما ترى في هذه الطبقة السفلى، وإن أصابك الكسل، توقف، ولو مؤقتا، أو دع مساحة فارغة على الصفحة لتملأها لاحقا، املأها وصفا دقيقا للمكان وحتى للأمكنة المجاورة، هكذا تكون قد أنجزت المطلوب منك، فأعطيك علامة 16 من 20.

«بيبي» لو كان لدي أوراق مزدوجة لأعطيتك واحدة، لتدون فيها وصفك اللعين هذا في شكل إجابة؛ أليست فكرة مجنونة؟! والأكثر جنونا أن أستغرق وقتا طويلا في تفحص إجابتك فيما تكون يدي مرتاحة على

كتفك.. وتظل كذلك، حتى أفرغ مما يسمى بتقييم الإجابة؛ إجابتك التي لن تكون أبدا مجرد عمليات ضرب أو جمع أو قسمة تنتهي جميعها إلى رقم محاط بهالة يفترض أنه الحل المنشود لمسألة حسابية كتلك التي كان المعلم «دحمان» في القسم الابتدائي يطالبنا دائما بحلها.

أقول لن تكون كذلك بل ستكون وصفا روائيا لمكان بائس لا جدوى من الاستمرار في وصفه. هذا المكان ليس إلا بيتك وهذا الوصف ليس إلا الواجب المنزلي الذي أطالبك الآن بإنجازه. وفي الغد أستلمه منك، متقمصة دور المعلم «دحمان» الذي كان يستغرق الوقت الكافي وأكثر قبل أن ينتقل -خلال عملية تفحصه لإجابتي المدونة على الورقة المزدوجة- من فعل تربيت بريء إلى مداعبة تتعدى تدريجيا حدود مساحة لوحة الكتف، كتفي، أُنظرْ، ألا ترى آثار إفرازات يده عليها؟

كان معلما بليد الحس، ولديه اعتقاد راسخ أنه مرح ومثير، وكان يرتدي بدلات سخيفة وفي منخريه شعر كثيف يمنعه من التنفس بسهولة، كان يبدو مرتاحا للغاية، وسر ارتياحه على الأرجح كونه لا يتنفس بسهولة.

يا إلهي كيف يعيش امرؤ وليس لديه عمل أهم من كونه يتنفس طيلة الوقت! إنه يتنفس! وأنا بانتظار أن يموت في أية لحظة، أو ينهي تقييمه لإجابتي بأن يقرأ بأم منخاريه تلك العبارة المحاطة بهالة: وعليه فإن سعر المتر الواحد، لقطعة الأرض التي باعها الفلاح للتاجر يساوي 5000 دينار جزائري.

لاحظ يا «بيبي»، إن الجميع على دراية تامة بمبلغ البيع؛ الفلاح، التاجر، المعلم "دحمان" وأنا.

المبلغ الإجمالي معروف وسعر المتر مجهول! سخرية ما بعدها سخرية، والغريب في الأمر أن الجميع على دراية بحساب مساحة هذه الأرض؛ عرضها، قياس زواياها، عمق البئر الذي تم حفره بها وكذلك محيط دائرة الفتحة التي سيحدثها لا حقا ابن التاجر في مؤخرة ابن الفلاح، يا لكل هذا البؤس!

كنت دائما مضطرة لتحمل ما يفعله المعلم «دحمان» بي وهو يواصل -باستمتاع تام- مراقبة كل تفصيلة تخص المسألة التي قمت بحلها، حلها جيدا؛ يا إلهي، هل إجابتي تستحق منه كل هذا الجهد، هل تراني كتبت ذكريات الكفاح التي عاش فصولها بطل المسألة الحسابية تلك قبل أن يبيع أرضه للتاجر المعتوه هل تراني فعلت ذلك وأنا غافلة؟!

إنه لشيء مقزز حقا أن تظل يده على كتفي كل هذا الوقت بسبب مسألة لا أتفه منها إلا هؤلاء الذين اخترعوها، وأعطوا لها صفة الواجب المنزلي؛ ألم يكن من واجبهم أن يطرحوا سؤالا أهم ويكلفوا الجميع بإيجاد حل مناسب وصحيح له! ويكون السؤال كالآتي:

أحسب مساحات الأراضي التي على الحكومة بيعها، لحكومات معادية، بهدف تأمين مبلغ يكفي لمعالجة المعلم «دحمان» من هذا المرض اللعين حتى ترتاح أكتاف التلميذات من يده القذرة!

لا حظ أنك لم تبد انزعاجا، بينما أنا أحدثك مبقية يدي على كتفك، تنتقل -تدريجيا- من فعل التربيت البريء إلى ما هو أكثر إثارة من ذلك! لندع كل شيء للغد، ففي حال أنجزت واجبك المنزلي على أكمل صورة، مبديا كل براعتك في وصف هذا المكان؛ بيتك الذي لن تستقيم الحكاية إلا بوصفه جيدا! في حال نجحت في ذلك، سأجازيك بأن أترك يدي حرة تتجول على

مساحة كتفيك، وأراهن أنك ستسعد أكثر مما لو أمنحك علامة 16 من 20. يا للمفارقة العجيبة؛ «دحمان» كان يستمتع بوضع يده على كتفي وأنت تستمتع بكوني أضع يدي على كتفك، وأنا..

أنا، ماذا علي أن أفعل أو ألاّ أفعل لأستمتع؟!

لا تشغل نفسك بهذا السؤال فإنه أخطر مما تظن، ربما سأنجح لاحقا في إعطائك إجابة وافية عنه، أو على الأقل مجرد لمحة، لكن، كما ترى؛ نحن تحت رحمة السياق. ألم تكن تتوقع مني إبداء الحرص على احترام خاصية السياق هذه؟!..

على أيّة حال إذَا تفضّل ذاك المسمى "السياق العام للأحداث" -وبمساندة من الراوي الملازم لي على امتداد الليل والنهار- على إعادة فتح هذا الموضوع المتعلق بسؤال: "ماذا علي وما ليس علي في الوقت ذاته أن أفعل وألا أفعل لأحصل على المتعة؟" فإنني سأجيب مستعملة أكثر الكلمات دقة ووضوحا، وسيظهر لك ولقرائك لاحقا، بأنني أكتنز قدرا لا بأس به من الحكمة، مصدره حساسيتي المفرطة إزاء نفسي.

إنني دائمة الإصغاء لصوت من داخلي يبث نشرات في كل حين، لا تتناول إلا أخبار رغباتي المتعددة؛ الثابتة منها والمتغيرة.. رغباتي بكل ما فيها من تناقض وتآلف وتطرف وتعقل وحرارة وبرودة.. رغباتي الآنية، المستعجلة، الطارئة، الاستثنائية، القاعدية، المتدفقة، الجارية، الراكدة، المجهولة، المدفونة عميقا هنا في القلب.. المكورة والملتوية، الهشة، الصلبة، الممططة، الشفافة، الحقيقية، الكاذبة، الأساسية، الثانوية، المفرّقة، الجامعة، المتوسطة، الابتدائية، البلدية السجن، المكتبة، الحقل السرير، المائدة، و...و...إلخ... إلخ حتى النهاية...

النهاية المغلقة..

النهاية المفتوحة..

ذراعاي مفتوحان؛ وأنا أقول هذا لأترك الأمور أمام قرائك مفتوحة، في شأن السؤال المفتوح سالف الذكر؛ لا أريد أن ينتظر القراء فصلا من الأحداث والأحاديث في..

ياه.. ألم تسمع؛ "أحداث وأحاديث"؟!

ألا يذكرك هذا ببرنامج إذاعي أو ما شابه؟!

إذا كان بالفعل اسما لبرنامج إذاعي أو عنوانا لكتاب أو أي شيء آخر، فلا بدّ سيتناول فكرة تهم الأكثرية. لاحظ؛ أكثرية الناس يهمهم أن أتحدث في وقت لاحق عن المتعة.. ومن المؤسف أن ينتظر القراء والمستمعون وصول هذا الوقت اللاحق.. ويبقون بالانتظار دون فائدة.. بحجة أن السياق لم يسمح بذلك.

ما دامت الأمور ليست بيدنا دائما، فمن الحكمة تفادي إطلاق الوعود حتى لا نقع في ورطة اسمها التقصير.. ويأتي فيما بعد ناقد محترف ليقول: "إن هذا النص يحتوي على فجوة خطيرة"، وما إن يسمعه النقاد الأقل احترافية (وهم أخطر من غيرهم وأكثر عددا، كما أن نواياهم أسوأ)، حتى يتحمسوا للبحث ولو مجانا عن المزيد من الفجوات، وينتهي الأمر بأن يقول أحدهم، على سبيل المثال:

"لاحظوا، الفتاة «سونيا» في أسطر سابقة، كانت ستعدّ حليبا بالقهوة ولكن لا أحد أخبرنا، خلال كل الفصول، إن كانت قد أعدته، إنها مجرد فتاة تتكلم فقط، تتكلم ولا تفعل شيئا؛ هذه فجوة!".

أنا نفسي لاحظت هذه الفجوة، فبينما كنت أراجع صفحاتك السابقة، بقي ذهني مشغولا بالبطلة (التي هي أنا طبعا)، قالت سأعد لك حليبا بالقهوة، وبقيت تتكلم بلا نهاية، كان عليك أن تصف على الأقل مشيتها وهي تحمل صينية صغيرة وبعد ذلك.. وقوفها.. ثم باقي المشهد.. كما حدث في الواقع وكيف أنها وضعت حليبك على الطاولة بكل رقة ودعتك..

لا تقل إنها دعتك بكل رقة، مستعملة لفظة "حبيبي"؛ دعتك أن تجلس لتتناول الحليب وضعت يديها على كتفيك، وما إلى ذلك من خراء المسلسلات...

# - 8 -

كنت لا أزال صغيرة، حين أعود من المدرسة رفقة زوج أمي وأجد أن أمي قد غادرت البيت، تجيء «بَهِيّة» بعد دقائق لتأخذني معها كما جرت العادة، وأكون لحظتها في غرفتي أغير ملابسي أو ربما بالمطبخ أضع المربّى في الخبز، فأسمع «بَهِيّة» تناديني:

"سونيا.. سونيا".

أظن أن هذا ما حدث ذات مرة فعلا، فقد نادتني: "سونياا.. هكذا! وهي كلما نادتني أو همّتْ بمناداتي -أنا بالذات- تقوم بحركة توحي أنّها ستطلق أطول زغردة ممكنة. وعندما تنهي نداءها، تثبّت وقوفها جيدا، بما لا يدع مجالا للشكّ بأنّها واقفة، وأنّها للتوّ كانت تتحدّث أمام أميّين بالعربية الفصحى. أظن أنّها نادتني فعلا في يوم من الأيام، وكان زوج أمي على بعد خطوة منها، فارتفع صوتها بأكثر مما تحتمله المسافة بينها وبينه. وإذا كان ظني صحيحا بأنّها قد نادتني فلا بدّ أنّها فعلت هذا ثم مضغت لبانتها بضرسين لا ثالث لهما، تأكيدا على رفضها الاعتراف بأن لزوج أمي صلاحيات في هذا البيت. وما حدث بالفعل، وليس مجرد ظن أنّها نادتني

ولم أسمعها، أو سمعتها ولم أرد عليها، فتنَازلتْ وأخبرت زوج أمي أنّها بانتظاري وأن علي ألا أتأخر.

وعندما فرغت مما كنت أفعل، أو مما كنت لا أفعل، كان زوج أمي قد دخل الحمام، وقد تناهى إلى سمعي صوت سعاله مخلوطا بعبارات من قبيل:

«بَهيّة» سألت عنك، كانت هنا قبل قليل"، "انتظري خمس دقائق"، "سأخرج"، "أظن أن أمك، أظن بأنها لن تتأخر".

تتأخر أو لا تتأخر؛ أنا سأذهب إلى «بَهيّة».

قلت سأذهب، لكنني بقيت واقفة في مكاني، ثم خطر لي أن أتلصص على زوج أمي من ثقبة المفتاح في باب الحمام. وقد فعلت هذا، ربما في ذلك اليوم أو في يوم آخر. ورأيته عاريا منكبّا على بعضه البعض، محني الظّهر من الأعلى، مضموم الكتفين، كأنه يقوم بخنق حيوان صغير. ولأنه كان موليا لي ظهره فقد وجدت صعوبة في تخمين ما يفعل. وبعد وقت قصير عرفت: لقد كان زوج أمي يَحلق شعر عانته.

ذهبت إلى «بَهيّة» بعد ذلك ووجدتها غارقة في مشاهدة فيلم غامض، خال من أي تشويق أو إثارة. ثم أنه غير مدبلج، ولا وجود فيه لأي لقطة تشدّ الانتباه؛ مجرد كهول يعتمرون قبعات سوداء ويتحدثون مع بعضهم بلا توقف، يتحدثون كـ «عمو يونس» بلا كلل، ثم يضحكون أو يتناولون مشروبات مسكرة؛ يشربون ويشربون دون أن تلعب الخمرة برؤوسهم. شعرت ببعض الملل وطلبت من «بَهيّة» أن توقف البث. إذ لا شيء يجبرها على تحمل ثقل الدم هذا، مادامت تحتكم على ثروة هائلة من أشرطة الفيديو التي تستعملها عادة كلما "توقف البث"، وكما تعلم فإن عبارة "توقف البث"، صارت فيما بعد كلمة السر بيني وبين خالتي «بَهيّة»، وتعني باختصار:

"هل من لقطات ممنوعة هذا اليوم"؟

قالت لي «بَهيّة»:

ـ بعض الأفلام يمكن مشاهدتها ليلا فقط؛ إن بِها صورا ماسخة لا تتحملها البنات المراهقات.

- تقصدين؛ بِها لقطات «العري»؟

- عري! يا «سونيا»، يا بنيتي؛ إنّها كوارث! كوارث حقيقة تحدث على السرير، وهذا لا يليق أن تفهميه.

- لكنني أفهم كل شيء.

عضت «بَهيّة» على لسانها بطريقة بدت فيها أنّها تحذرني، أو على الأقل تُخلي مسؤوليتها دون أن تعلن ذلك، لكنّها مع هذا كانت لا تزال ترفع حاجبيها عاليا، وهذا يعني أنّها بتحذيرها إياي، إنّما هي تشجّعني، على قول المزيد مما لدي.

كلّ شيء؟!

أجلْ كل شيء، ففي الأفلام العادية يسمحون بظهور امرأة ورجل يدخلان على مهل عناقا نيئا، أي بدرجة دافئ، ثم يكون العناق مطبوخا في درجة حار جدا، وبعدها يتبادلان القبل، وما أن يهمّ البطل على مضاجعة البطلة حتى يقوم أحدهما بإطفاء الضوء.

إطفاء ماذا؟

الضوء..

وبعد؟

لا شيء بعدا كل ما أريد قوله فقط هو أن أفلام الفيديو ليست كذلك؛

كيف هي إذن؟

ببساطة، إن الممثلين في تلك الأفلام لا يتضاجعون ليلا، وبالتالي لن يكونوا مضطرين لإطفاء الضوء؟!

وفهمت «بَهيّة» أنني أريد مشاهدة أفلام الليل التي لا وجود فيها لمشاهد غير مكتملة؛ كوارث على السرير أو داخل الحمام أو في الغابة. أريد.. أريد تطوير عبارة "توقف البث".. أفلام ماسخة جدا..

أريد أن أرى كيف يحلق رجل..

رجل؟! يحلق ماذا؟!

يحلق الشّعْر؛ الشّعْر الذي هنا!

وأظن أنني وضعت يدي في المكان المقصود.

هل رأيت أحدا من قبل يفعل هذا؟

رأيت زوج أمي يفعل هذا..

يحلق الشعر الذي هنا! تقصدين شعر عانته، يسمى هذا شعْر العانة؛ هل تدرين؟ لكن كيف رأيته؛ أهو فعل هذا أمامك؟!

أنا تلصّصت عليه من ثقب الباب وهو في الحمام، لكن المنظر لم يكن مكتملا.

لم يكن مكتملا؟!

أقصد لم يكن زوج أمي مقابلا لي، فخمّنت أنه يحلق شعر عانته، أمي أيضا رأيتها تحلق شعر عانتها، ورأيتها تحلق شعر إبطيها، بل لقد ساعدتها في ذلك مرات عديدة.

هل ساعدتها في حلق شعر عانتها؟!

كلا كلا.. بل ساعدتها في حلق شعر إبطيها.

# الفصل الرابع

# - 1 -

«بيبي» أنت رجل عاقل، تعرف ما تفعل، كما أنك حريص على نقل كل شيء كما هو، أو ليس كما هو تماما.

أنت تنقل الواقع لكن بطريقة غير واقعية! على أية حال.. أدرْ ظهرك للجميع وابدأ من جديد، ارسم بطريقة غير واقعية الصورة الأكثر واقعية لنفسك، وأنت تخلف بغيّك الراحلة في هذا البيت؛ أخبر الجميع أنها ارتقت إلى الأعلى بينما أنت نزلت إلى الأسفل وبقيت كذلك.

هاهي الصورة بكل وضوح؛ بقيت مُرخيا رأسك إلى الخلف.. أُنظرْ.. هكذا.. رأسك بين كتفيك، إلى الخلف.. ونظرك إلى الأعلى، يتسلق بيأس مسافة ما بين القاع والسطح، بينما قدماك تظهران مرسومتين بدقة؛ جورب بال وحذاء مهترىء.. مرسومتين على أرض أصلية، تمنحك شعورا راسخا بالثبات الأعمى.

تخيل معي تلك البغي وهي تطل عليك من عل، وترمي لك بمفتاح هذا البيت، فتتلقفه أنت سعيدا، بينما يظل رأسك نائما بين كتفيك، رأسك، هكذا، كسرج دراجة مزروع على ياقة؛ الأذنان تكادان تلامسان الكتفين.

أقمْ فيه ما شئت يا أستاذ وادفع الأجرة بانتظام. بالتأكيد عليك أن تدفع بانتظام، لأنها تركت البيت على ذمتك، لكن على مسؤوليتها، افهم هذا جيدا، كما عليك ألا تحدث فيه تغييرات دون أن تستشيرها أو تطلب الإذن من صاحبته.. لكن من صاحبته؟

أنت تعلم، صاحبته امرأة ذكية وذات أنفة؛ ربما، أو لا علينا!

لكن بالتأكيد بغيك لم يفتها أن تخبرك أن جرأة صاحبة هذا البيت قد تذهلك وطريقتها في الكلام قد تثير ريبتك فيها، كما أنها تدخن، تدخن أمام الملأ وتجري مقابلات مع أشخاص مهمين، أهذا يزعجك؟

من الحكمة ألا تشغل بالك بما ليس لك به شأن.

«بيبي»، أهم ما في الأمر أنها طيبة، تحترم الرجال الصالحين مثلك، ولا مشاكل لديها مع الحكومة.

اتصل بها إن شئت، واحرص أن تكسب ثقتها، اتفقنا؟

هيا نعد إلى بغيك..

أتخيل منظرك واقفا أمامها تهز برأسك لمرات عديدة بما يوحي أنك منصت لكلامها جيدا، لكن، والحق يقال، بغيك يفترض أنها تكلمت أكثر مما كانت تريد هي أن تتكلم، بل وأكثر مما كنت تتوقع أنت، وبالتالي فأية هزة رأس أخرى تقوم بها يا «بيبي»، دون شعور منك، ستكون.. هه.. ستكون حركة زائدة طبعا، زائدة عما يتطلبه المشهد، أنت أعلم مني بذلك، لكن، اسمعْ؛ أتوقع أن آخر هزة رأس منك ستكون بطيئة جدا؛ قد تستغرق أضعاف الهزة العادية، خلاصة القول؛ إن أنت.. إن أنت لم تحسن ترتيب نفسك أمام محدثتك، فستكون في نظرها رجلا يخفي بداخله شيئا خاصا، شيئا يتحلل

باستمرار وتتحلل معه أية إرادة ممكنة تعينه على الأخذ بزمام الأمور؛ حتى لا يقع هذا الرجل، الذي هو أنت، فريسة الشعور بالبلاهة التامة، قلت: شيئا خاصا..، كأن تكون فجوة مثلا؛ (فجوة في ذاتك وليس في النص). أظن أنك محصن من كل الفجوات، محصن بطريقة مضحكة جعلتك في آخر الأمر توافق بالقول لا بهزة الرأس تلك، على شروطها، وربما، بل من المؤكد أنك تلقيت بصدر رحب بعض اقتراحاتها الذكية التي إن عملت بها ستنجح.. يقينا ستنجح في منع المياه من التسرب عبر مواضع عديدة من السقف، ومنع الروائح الكريهة من الوصول إلى أنفك، ومنع الصراصير من تمديد إقامتها في كيس الخبز هذا، وخلف مرآة المغسل تلك، وفي الرف الأسفل من الثلاجة.. لكن المثير في الموضوع أن تكون قد قبلت دون تردد ما أوصتك به فيما يخص الجيران؛ دائما يكون عليك تجنب الجيران ما استطعت، وإن اضطررت للتواصل مع بعضهم فكن شديد التحفظ.. و...

كن مهذبا مع الجميع إلى أقصى حد؛ دقيقا ومهذبا لكن شديد التحفظ.. شديد التحفظ لا البلاهة طبعا.. أهذا ما أوصتك به؛ أهذا ما لقنتك إياه؟

أم تراها أضافت لك المزيد؟! كأن تكون طلبتْ منك التصرف على أنك أحد أقربائها.. إنها بغي، لكنها ذات شأن، ناهيك أنها تتمتع بقدر مقبول من الحكمة والذكاء.. وربما النفوذ أيضا، وإلا لما استطاعت زرعك في مكان يستحيل على الرجال الصالحين وحتى على رجال الحكومة دخوله بأي صفة كانت، ما لم يحصلوا على تصريح يسمح لهم بذلك. إن هذه البغي فعلت معك ما لا تفعله بغي أخرى.. هل ضاجعتها ذات يوم بطريقة لم تخطر ببال أي من زبائنها العابرين فكسبت بذلك ثقتها وتعاطفها؟!

أنت تعرف أن البغايا عادة لا يثقن ولا يتعاطفن مع أحد؛ ليس لهن قلوب تخفق مودة، كما أنهن لا يلتفتن إلى الوراء، ولا أثر في قاموسهن لشيء اسمه "العشرة".. إنهن يتنكرن للجميع ويمضين في طريقهن إلى النهاية.

عموما، أنا لا علم لي بأصحاب النفوذ في هذه المنطقة، ولو كنت كذلك لعرفت سر علاقتك بهذه البغي الطيبة، ترى ما اسمها؟ حقا، إنني لا أعرف اسمها، لكنني علمت أن المالكة الحقيقية لهذا البيت طبيبة أسنان منحرفة.. يا للهول! هل تكون قد ضاجعتها هي الأخرى؟! اعترفْ أنك فعلت هذا ولو مرة واحدة على الأقل، لتفوز ببيت كانت تسكنه بغيك الراحلة.. أظن أنها سكنته لأعوام، أو ربما لأشهر، وفي الأخير تركته لك، مسكونا بها. لو كنتَ يا «بيبي» استعنتَ بأمي، لكان أسوأ بيت حصلتْ لك عليه، أفضل من هذا بكثير؛ إن عطسة نملة واحدة تجعل قشور سقفه تتساقط فوق رأسك.

## - 2 -

خالتي «بَهيّة» لا تطلب مساعدة امرأة أخرى في نتف شعر إبطيها. إنها تقوم بهذا العمل الصعب، كلما احتاجت للترويح عن نفسها أو لتطرد عنها مشاعر الغضب والوساوس الشيطانية.

تنتف وتنتف حتى تستعيد مرحها المعهود، وتكون بأفضل حال. وأنا أيضا كلما داهمتني أحاسيس سيئة، أقوم بنتف شعر إبطي، وأنتف شعر عانتي أحيانا. أما ساقي فهما أملسان على الدوام، وعلى الرغم من ذلك فأنا أستعمل، بغرض التسلية واللعب، تلك العجينة السحرية التي تصنع من السكر والليمون؛ لقد علمتني «بَهيّة» جميع مراحل تحضيرها، واصفة لي المقادير المطلوبة: "كوب من السكر على كوب مثله من عصير الليمون، ثم قومي بخلطه جيدا حتى تري أنه يشبه العسل الأبيض.."، وتستمر «بَهيّة» في الشرح إلى أن تصل إلى تلك العبارة المعروفة لدى نجمات الطبخ في التلفزيون، "على نـار هــادئــة"، إنها عبارة ذهبية فعلا، توحي بأن «بَهيّة» صارت جديرة بالانتقال من طبقة اجتماعية سفلى إلى طبقة أعلى. لمجرد أنها تستطيع تغيير نظرتها لمفهوم القوة، إنها تؤمن فعلا بجدوى اختيار "النار

الهادئة" لإنضاج أفضل عجينة "رجينة". "لا تستعجلي، بل دعيها تأخذ وقتها على نار هادئة واستمري في تحريكها دائريا بسلاسة، لا تكوني بطيئة جدا ولا تسرعي، افعلي هكذا، دون تشنج.. ".. "وبين الحين والآخر خذي قطرة منها ودعيها تسقط على رخامة المطبخ ثم ضعي عليها إصبعك لتقدري مدى تماسكها، إن وجدت أنها جيدة أطفئي النار، ثم اسكبي خلطتك في قطعة بلاستيك خشنة وضعيها في الثلاجة.. وهذا كل شيء...

ما أجمل خالتي «بَهيّة» وهي تنهي برنامجها غير التلفزيوني، ما أجملها! فرغم أنها مجرد خالة إلا أنها ليست خالة رعناء.

لم يحدث أن فشلت في صنع عجينة "الرجينة"، ذلك أن صنعها، يتطلب -إلى جانب ما تعلمته من «بَهيّة»- نوعا من التفاني والإخلاص والنية الصادقة، لأن جودتها عادة ما تكون متناسبة مع درجة الصفاء العميقة التي أبلغها في داخلي قبل أن أفكر في جلب السكر وعصير الليمون والبدء في أولى مراحل الإعداد. بعض النساء خبيرات في صنع عجينة الرجينة لكنهن يفشلن أحيانا ولو نسبيا؛ هل تعرف أين يكمن السبب؟ الجواب بسيط: إنهن يشرعن في صنعها دون أن يكن قد أخلصن نيتهن لهذا العمل. أما أنا فغير ذلك تماما، لأنني أعد عجينتي السحرية بكل جوارحي وكلما فرغت من إعدادها أحيطها بنظرتي الحبية ثم أضعها بكل لطف في الصندوق الأعلى من الثلاجة. وعندما يصيبني الأرق لسبب ما، أقتطع أجزاء منها وأضم عليها كفي حتى أخفف من تجمدها قليلا، وبمهارة كبيرة أبدأ بتمطيطها وثنيها على بعضها حتى تغدو عجينة طيعة، لكنني لا أبالغ في ذلك مخافة أن تتحلل أكثر من اللازم فتفقد تماسكها وتبدأ بالتلاصق على راحة يدي، وهذا شيء سيء، لكنه لا يمثل مشكلة بالنسبة لي، إذ أن فرصة إعادتها إلى درجة اللين المطلوبة

ليس بالأمر العسير، إنني بارعة في هذا وفي غير هذا طبعا، وبراعتي تكمن في أنني أجعل من كل عمل أقوم به مجرد لعب لا أكثر. اللعب يا «بيبي» يقتضي أن تكوّر أي شيء في يدك، ولا تكفّ عن تكويره حتى يسأم من معاندتك. ولم يحدث أن عاندتني عجينة الرجينة إلا مرتين، المرة الأولى، آه، حسنا، دعنا من المرة الأولى، أما المرة الثانية فكانت يوم طلبت مني «زكية» وهي صديقة تعاني منذ طفولتها من مشكلة الشعر الزائد في ساقيها وساعديها وحتى في ظهرها، طلبت مني أن أصنع لها عجينة رجينة، لعلها تخفف بعض همومها الأنثوية الزائدة. حاولت أن ألبي طلبها ففشلت في صنع العجينة بالجودة المطلوبة. وكررت المحاولة لعدة مرات لكنني لم أفلح أبدا.

رغم ذلك فقد لبيت طلب صديقتي «زكية»، بعدما صنعت عجينة كنت أنوي أن أستعملها لنفسي، إذ قمت بإهدائها عجينتي السحرية الخاصة بي. يوم زارتني وتوسلت إلي أن أفعل أي شيء من أجلها.

أظن أن «زكية» لم تكن صديقتي، إنما كانت مجرد جارة بائسة أسعدني كثيرا اللعب معها لمجرد أنها تملك نظرة سوداوية للعالم، وهي تكره نفسها بسبب كثافة الزغب على أجزاء ظاهرة من جسمها، ناهيك عن الأجزاء غير الظاهرة..

لقد أخبرتني مرارا أن شعر عانتها مجعد خشن وتصدر منه رائحة كريهة، وأنها عندما تزيله بالشفرة تشعر بسعادة كبيرة، لكنها سعادة لا تدوم إلا يومين أو أقل، إذ يبدأ الشّعر بالنمو مسببا لها تلك الحكة اللعينة، ناهيك عن ملمسه الشوكي البشع. وهكذا تعاودها المشاعر السوداء فتعبر صراحة عن غيرتها مني وتبدأ بممارسة عادة الحسد ضدي، والواقع أنني لا أخاف الحسد وأستمتع عندما أسمعها تقول:

"يا لبدنك النقي الناعم"

ثم تسألني:

بالله عليك.. كيف حصلت على هذه البشرة الحريرية، هل وهبتك الطبيعة إياها؟

وتكون إجابتي على هذا النحو عادة:

إن بشرتي ملساء.. هكذا.. هي ملساء دائما.

لا يمكن أن تكون ملساء دون سبب.. أظن أن أمك تفطنت لهذا النوع من المشكلات فدهنتك وأنت رضيعة بنخاع أرنب.

كانت «زكية» دائما تحسدني وتلوم أمها التي لم تعمل على إنقاذها من هذا العناء، فهي تعتقد أن بعض الأمهات دهنّ بناتهن وهن رضيعات بنخاع الأرنب أو بدم الضفادع وخصي الديكة، وهكذا منعن الزغب من النمو على أجسادهن نهائيا.

"لقد عالجن المشكلة من أساسها".

هكذا كانت تقول «زكية» وهي ترسل تنهيدة عميقة.. ما أغربها وما أغرب أفكارها التي تجعل الحجارة في الطريق تضرط من شدة الضحك.

فيما بعد عرفت أن العجينة عاندتني في تلك المرة، لأنني كنت أعدها لشخص هو بحاجة إليها فعلا.

أظن أن النساء المريضات بأمورهن الأنثوية الخاصة، هن الأكثر تعافيا من الناحية النفسية والأطول عمرا. أقول المريضات.. وأعني بذلك نوعا خاصا من النساء، يختلف تماما عن «بَهيّة»؛ هن أقلية اليوم، لكنهن

سيكتسحن العالم مستقبلا، وتكون خالتي «بَهيّة» في مقدمة صفوفهن باعتبارها مثالهن الأعلى، فهي تتبادل الخبرات والتدابير في الشؤون النسائية الزائدة، وتقوم بتجارب مجنونة، وتنفق الوقت والمال، لا لإصلاح عيوبها الخلقية، بل تفعل ذلك من أجل الفعل ذاته؛ أي دون أن يكون لها هدف ملزمة بالوصول إليه غير اللعب والمرح.

لعل «بهية»؛ بسبب ما تكتنزه من معارف وأفكار نادرة، تخاف أن تموت دون أن تورّث مواهبها وحكمتها لمن تستحق أن تخلفها لتواصل المسيرة بعدها. وقد اختارتني لهذه الرسالة، وراهنتْ علي، لكن، ما يؤسف له حقا يا «بيبي»، أنني خيّبت ظنّها وانحرفت إلى طريق آخر، رغم قناعتي أن «بَهيّة» امرأة عظيمة لم ينتبه رجال التاريخ لأهميتها؛ ذلك أن التاريخ كالمبولة العمومية ذات الأحواض المتجاورة المعلقة بجدار، حيث لا يمكن أن تستعملها امرأة ما لم تتعلمْ التّبوّل واقفة. ثم إن رجال التاريخ لا يهتمون إلا بقادة الحرب والساسة المتآمرين والأباطرة العظام والثوار والمتمردين؛ هؤلاء جميعا يذكرهم التاريخ دائما ويذكر زوجاتهم وخليلاتهم رغم أنهن مجرد زوجات وخليلات! أي نساء فقط، وليس فيهن ما يجلب الانتباه.. إذن من سمح لهن بالتواجد في مبولة خاصة بالرجال فقط؛ اسمها التاريخ؟!

## - 3 -

ها كما ترى، إن الأفكار تأتيني الآن؛ معطّرة، منتعشة، ونابضة بالحياة. أحب الحياة ولا شأن لي بغيرها، أما شخوص الوهم المحسوبون على الماضي فليذهبوا إلى جحيم الماضي، لا شأن لي بهم وبما يدل عليهم؛ إنهم كومة قش في رصيف مهمل، وأنا الريح الكانسة.. إنهم لا شيء.

بدأ العد التنازلي، انتهى العد، وانتهتْ حقبة التفكير والتشاور بالنسبة للفريق (صفر). والإجابة كالآتي.. كالآتي أو كأمك، ما دخلي أنا؟

مهما كانت الإجابة فالكلمة الأخيرة ستقولها لجنة التحكيم.

من الواضح أن شخوص الوهم لم يحلوا المسألة جيدا؛ حسبوا مساحة حضورهم في حياتي خطأ؛ جمعوا الأرقام وطرحوها أرضا، ضربوا بعضها ببعض، قسموا، رفعوا، نصبوا، استلفوا واحتفظوا بالبواقي، نصبوا، استبدلوا، افترضوا، بعثروا كل شيء بأيديهم وأرجلهم ثم رتبوا من جديد.. والنتيجة..؟!

مهما فعلوا أو لم يفعلوا، لجنة التحكيم تعلن: (العلامة صفر). هيا نلعب؛ الحساب صفر.. الرياضيات صفر.. الصفر صفر.. صفر يصفر.. الجمهور في المدرجات يصفر أيضا.. مادة الأدب تصفر.. قلة الأدب.. الجغرافيا

تصفر.. التاريخ، النجاح، الرسوب، الانتقال إلى الحياة العملية، كشف النقاط، الأوراق المزدوجة.. الحصيلة حسب الفرق.. العدو الريفي.. الآحاد آحاد والعشرات عشرات.. وهكذا، افتح كتاب القراءة وضعْ فردة حذاء في فمك.. تحذير؛ لا أحد يطلب الخروج إلى المرحاض.. لا أحد، مفهوم؟

ممنوع الخروج إلا في حالة الضرورة القصوى). ضرورة..!.. بأي معنى؟!

إن أسراب الذباب الأزرق تتجه إلى آخر الصف، حيث يجلس على وليمة من البراز، تلميذ رخو، متضخم الملامح؛ حاجباه يتهدلان على الجانبين، ببطء.. تراه -وهو على طبيعته يقاوم استخفاف الذباب بمؤخرته- كأنما أنت تراه من داخل بيضة.

"الضرورة القصوى"!.. طز..

ما معنى هذه الضرورة القصوى بالنظر إلى حالة هذا التلميذ؟! طبعا لا معنى لها سوى أنها تختصر ـ تقريبا ـ فكرة غشائية.. أو لا أدري.. ربما هي فكرة ذات علاقة بالتكور أو التمطط.. تقريبا التمطط؛ افتح قوسا.. هكذا.. (التمطط مبقعا عند أسفل البطن، أغلق القوس..).. هذا هو خراء اللغة، لا فكرة تستقيم.. كل فكرة تأتي مخدرة، كسولة غير قابلة للتقشير.. فكرة كأي شيء آخر مدلى.. أو بالأحرى، أقصد الفكرة: تغميسية، عجينية، حسائية، متذاوبة على بعضها؛ صابون على كبريت على قضيب كلب وباختصار: تعبنا.

هيا، أحدكم يستدعي الحارس لتنظيف المكان من مهرجان الخضر الذابلة.. تخمرت على أوسع نطاق، داخل أمعاء التلميذ القابع بآخر الصف. أحدكم يستدعي الصف لإزالة الحارس.. يستدعي القدر لرفع

الأيادي الرطبة عن الأكتاف اللينة، لرفع مستوى التأهب لدى الشعب العظيم، خصوصا في آخر الصف، لرفع مستوى الجاهزية، لرفع الأثقال، المعنويات، لرفع التنورة وإلا...

تحذير آخر:

ستتسع دائرة العرق في منطقة الإبط؛ مفهوم؟

إذن، هيا بنا إلى لعبة التركيب.

التدبيرة سهلة: ياقة وربطة عنق، نضيف إليهما صف أزرار وحزاما، ونضع كل هذا على كرسي دوار ثم نحرك مفتاح التشغيل.

الكرسي يدور والخلطة تدور حوله، تدور عكس اتجاه عقارب الساعة، تدور وتدور، الخلطة تخثرت جيدا.. بعد قليل تتماسك وتصبح جاهزة.

يرتفع صوت ليقول: النتيجة الايجابية ستظهر حالا.

يبدأ العد التنازلي من عشرة إلى، هكذا.. إلى.. ثلاثة، اثنان، واحد، صفر.. وأخيرا لدينا شخصية فريدة منجزة؛ ربما شخصية من سلك التعليم، أو من سلك القضاء، شخصية من عالم التراث مثلا.. من قسم الأرشيف.. من علكة مثبتة جيدا أسفل الدرج.. درج المكتب.. خدمات الهاتف.. الأرض والفلاح.. هيا بنا نلعب بالحكم النادرة.. بالأقوال المأثورة.. بالكلمات.. الكلمات المتقاطعة طبعا.. المقالات.. المقولات وأخص بالذكر مقولاتك أنت، كنت تلقيها على مسمعي، فيتهدل حاجباك على الجانبين وتنبسط كفك اليمنى، تنبسط، هكذا.

"في النهاية يا «سونيا» أنت ابنة بيئتك".

بيئة؟!.. طزْ.. طزْ.. أرأيت كيف أنك تتصرف كشخصية فريدة؟!

أرأيت؟ وتكون أكثر فرادة عندما تضيف، بلغة تشبه إناء سقطَ للتو من أعلى سلم:

"كل إنسان في هذه الدنيا هو ابن البيئة التي ولد فيها".. إنها مقولتك، أتذكّرها جيدا، وأتذكّر، كنت تحاول تبسيطها لي، لكن، بكلمات شديدة التّعقيد.

وقلت أيضا: "الإنسان لا يعطي الآخرين شيئا هو ذاته يفتقده".

وهناك رزم من المقولات تعد بالعشرات سمعتها منك؛ أغلبها سخيف، لكن بعضها، تقريبا استعراضي، به شقلبات لغوية ومراوغات..

مقولاتك تبنيها بقصد إثارة الدهشة، أنا أعرف ذلك، تستعمل، أولا؛ حيلة الجمع بين المفارقات العجيبة، وفي المرة الثانية تقوم بالصياغة وفق أسلوب مشوق.

أنا لا أكره مقولاتك كرها مطلقا.. صدقا.. لديك مقولات من نوع خاص تعجبني، حتى أنني أحيانا أتخيل اسمي يلمع تحتها.

ماذا لو كنت أملك من الحكمة والذكاء ما يؤهلني لقول عبارة ذهبية تخلد في عقول وقلوب الشرفاء..؟!..

يا إلهي، لو كنت أستطيع ذلك لأطلقت عبارة رائعة، يسمعها الناس في البداية فلا ينتبهون لأهميتها وقوة معناها، لكن، مع مرور الأزمنة المتلاحقة تتقادم تلك العبارة وتتخمر إلى أن تصبح مقولة استثنائية، ويحدث أن رجلا في لحظة استثنائية، يكتشفها، بالصدفة، أو بعد رحلة بحث طويلة ومغامرات شاقة، يكتشف مقولتي، ليكون بعد ذلك رجلا استثنائيا، يحمل صفة (مكتشف)؛ رجلا من طينة خاصة، قلق، أشعث، أغبر، كما أنه.. أو بالأحرى...

تخيلْ صورته وهو يمشي، في الزحام تائه النظرة، النظرة التي توحي بهول ما لديه من أسرار يخفيها، اسمع، إن عبارة: "توحي بهول ما.."..يمكن استبدالها بأخرى أفضل (أقصد هنا؛ النظرة وليس العبارة)، استبدالها بـ"تعطي انطباعا عما.."، أقول هذا لتوضيح الصورة، حتى لا يعتقد المشاهد أن هذا الرجل مثير للريبة...

إن غموضه يدفع الشرفاء دون غيرهم إلى أن يثقوا به ويقفوا إلى جانبه، فربما هو بحاجة إلى ذلك، باعتبار أن زوجته هَجرته وتنكر له المقربون منه، فقد ظنوا أنه مجنون، ظنوا أنه مريض بالوهم، يعيش على حلم لا وجود له إلا بين سطور قصة غامضة، تدور أحداثها في أجواء من الرطوبة والضبابية، ويكون بطل هذه القصة رجلا بلحية كثة ومعطف بال وحذاء عتيق؛ يهدر حياته في البحث عن مقولة تعيش داخل صندوق مذهب؛ (إنه الرجل ذاته الذي أنا بصدد الحديث عنه)! يهدر حياته في البحث، بلا فائدة!

في النهاية، أو قبل النهاية بدقائق، تُظلم الشاشة لبرهة يسيرة، ويظهر من هنا، يظهر (ثقب في الصورة) يرمز للنقصان، ويظهر من هناك (سائل قميء) يرمز للشك، هذا (السائل) يبدأ بالتسرب من خلال ذاك (الثقب) إلى أعماق الرجل الباحث عن حكمة فريدة، الشك يتسرب والرجل يستعين بما تبقى لديه من الإيمان ليبقى صامدا.. صامدا، أطول وقت ممكن!

عليه أن يصمد حتى إعلان النهاية...

دقائق قليلة، وينتهي مخزون اليقين لديه...

إنه ينزف، الرجل ينزف، ويفقد ثقته في إيمانه بجدوى ما يفعل، يكاد ينهار؛ يا للخيبة! إذًا انهار تماما فسيصبح في نظر نفسه مجنونا حقيقيا.

دقيقة أخيرة..

ثوان أخيرة..

أنفاس أخيرة، وينتهي كل شيء.

عقربا الساعة الحائطية الضخمة على وشك أن ينطبقا!

الزمن توقف، وأخيرا، نشاهد الرجل.. الرجل الاستثنائي، الرجل الغامض يعثر على صندوق مذهّب به نقوش مهيبة؛ يمسك الصندوق بكلتا يديه ويفتحه، (موسيقى مؤثرة ترتفع)، لقد وجدها، وجد القصاصة الورقية، قصاصة من الزمن الماضي الجميل مكتوبا عليها مقولتي التي يُفترض أن تخلد في عقول وقلوب الشرفاء.

"الحياة لؤلؤة خرافية وجودها يكمن في البحث عنها".

مقولتي أنا؛ أليست رائعة؟!

ألا تلاحظ أن بناءها محكم؟! كما أنها.. أو...

أظن أنها ليست مقولة بقدر ما هي حكمة؛ تقريبا حكمة شعرية.

في الواقع، كنت أتمنى أن أنجح في صياغة ما هو أفضل؛ حكمة ممتعة أكثر من كونها مفيدة. حكمة مركّبة من كلمات منتقاة بدقّة كلمة تتبع أخرى، والأخرى تهيئ للتي بعدها والتي بعدها تثير الفضول لمعرفة الكلمة الموالية وهكذا...

أحب الحكم التي تجعلني عند نقطة معينة أشعر باقترابي من الفهم النهائي والممتع لمعاني كل هذه الكلمات مجتمعة.

لا أحد يستمتع بالوصول للفهم النهائي في حدّ ذاته، بل بكونه يقترب منه، يقترب رويدا رويدا إلى أن يوشك على الوصول.

وماذا بعد؟

هيا يا «بيبي»، أطلق نغمة أولى.

كلمة واحدة ثم يتحقّق الحسم، تماما كما يحدث للناس في اللحظة الجنسية تقريبا؛ يتلذّذون بتصعيد شهوتهم أكثر فأكثر إلى أن يكونوا على مرمى شهقة واحدة من الوصول إلى القمة. بعد ذلك، تتدافع النغمات الموسيقية عاليا...

لا تنقص إلا هزّة واحدة لإدراك الشهوة النهائية، كلمة واحدة لإدراك الفهم النهائي.

المثير في نوع الحكم التي أحبها أن الكلمة الأخيرة المنشودة، كالهزّة الأخيرة، تأتي لتهدم كل ما بنته سلسلة الكلمات السابقة، أقصد الهزّات السابقة. ويحدث السقوط من القمة، يا للذة السقوط من القمة!

يا لكل هذا الرّخاء!

رخاء.. رخاء.. استرخاء ثم.. إلى السرير سرْ.

ما أريد قوله؛ إن مقولاتك -أنت بالذات- سخيفة جدا، إذ يمكنني معارضتها بسهولة.

ابدأ من أول السطر وسجل ما يلي:

"الإنسان ابن آلامه الدّاخلية"؛ هل فهمت؟

ها.. حسنا، أطلق أكثر النغمات التهابا يا «بيبي» وتابعني في هذه الحكمة الموالية؛ "أنا لا أعطي إلا ما أفتقد".

سجّلْ كل هذا في دفترك أيضا، ولا تنس تلك العبارة المشروطة: "حُرِّر بـ.. كذا وكذا.."، واحرصْ على أن تكتب اسْمي في الأسفل؛ «سونيا».

أنا واثقة بك وباسمك، إذن مقابل ذلك، ثق بي وباسمي.

# - 4 -

انطباقة شيء على شيء آخر ذي صلة، تتبعها امتقاعة منهجية. إنّها طريقة أمي لضبط أحمر شفاهها؛ ضغطة سريعة بفلقتي فمها. ويكون كل شيء على ما يرام. بيد تفتح حقيبتها، وترمي داخلها أدوات عديدة باليد الأخرى.

كانت أمي قد ذهبتْ منذ الصّباح إلى أسواق عديدة، ودخلتْ عشرات البيوت، وتفاوضت مع جميع الناس، واشتقتْ أخبارا وبثّت أخرى، وباعت واشترت، وعادت إلى البيت عصرا. ومن دون أن تمنح جسمها المتمايل فرصة استرجاع نفس واحد، بدأت تتحدّث عن مشقّة عودتها مستقلّة القطار كالعادة.

إنّها تختلق أحداثا من قبيل أن أحدهم زكم أنفها برائحة إبطه وأن آخر تحرّش بها، وأن مشاجرة قامت وتدخّل بعض الرجال الطيبين فحسموا الأمر، وما إلى ذلك من تلك القصص التي لا تملّ من ترديدها يوميا.

الغريب أن أمي تذهب كل يوم، في أوقات مختلفة إلى أماكن مخلفة وفي كل الاتجاهات؛ شمال، جنوب، شرق، غرب، فوق، تحت، أمام وراء.. إلا أنّ طريق عودتها في النهاية سيكون من محطة (الربعية) وبالقطار ذاته،

مع إضفاء مقادير غير محسوبة من بهارات (الأحداث المشوقة)، التي تنمّ عن فقر حاد يكتنف حسّ التّخيل لدى أمي، يا للعجب.. إنّها تكون في «البليدة» وتعود من «الربعية»، وتكون في (البويرة) وتعود من «الربعية» ولا تكون في أي مكان وتعود من «الربعية».

دائما يكون قطار «الربعية» بسكّته القديمة جزءا من حكاياتها الواهية.

أمي دائمة التشكّي، لكنها رويدا رويدا تستعيد عافيتها، بعد أن تفرغ حمولتها من القيل والقال. وتشعر بالراحة أكثر فور خروجها من الحمام. ثم تأكل ما تجده أمامها وتمضغ العلك، وتتّجه إلى المرآة. تضع أحمر الشفاه وتقول:

"حسنا؛ سأخرج الآن".

وفي مساء ذلك اليوم من صيف 1994، خرجتْ أمي بخطى مسرعة وتركتني وحيدة في البيت، بعد أن ألقتْ على مسامعي بلائحة من الواجبات التي علي أداؤها:

"اسْمعي سونيا، أُنظري إليّ، ما أنْ تشعري بالضّجر شغّلي الرّاديو، فهمتِ! وخفّضي الصّوت، لكنْ لا تطلّي من الشّرفة، ولا تفتحي الباب لأحد.. وإنْ سقط شيء من حبل غسيل هؤلاء الحمقى، جيراننا، فلا تعيديه إليهم، وضعي الخشبةَ على عتبة الباب كي لا تدخلَ قطط العمارة، لا تنسي أن تضعي الخشبة بمجرد أن أخرجَ؛ فهمتِ!".

خرجتْ أمي، وجاء زوجها بعد ساعة وأخبرني أنّها لن تعود إلا بعد يومين أو أكثر. ذلك أنّها تلقّتْ اتّصالا مهمّا من أهل والدي وهي مضطرّة للسّفر إليهم؛ وقال:

"لا شكّ أن والدك أرسل لها بعض المال، ليتها لا تهدره ككلّ مرة فهي لا تحسن التّصرف".

إن عبارة "لا تحسن التصرّف" فاجأتني، لأنّها تصدر عن شخص مفضوح تماما بالنسبة إلي، فكلّ أمعائه بين يدي، ولا أسرار بوسعه إخفاؤها.

وأضاف:

"إنّه يرسل لها المال من أجلك".

هذا ما قاله بالضّبط، ويكون عليك -يا أستاذ- أن تتخيّل كيف كانت هيأته بعد ذلك. لقد تراجع إلى الخلف وهو في وضع الجلوس، دون أن يرفع مؤخرته عن الأرض. وهكذا أسند ظهره إلى الحائط وطوّق ركبتيه بيدين مشبوكتين، بينما ساقاه بقيتا منفرجتين. وكانت نظرتي المارقة مصوّبة إلى.. إلى الأسفل، حيث الطيّة الرئيسية التي تشكّلها انزلاقة عفوية لإحدى خصيتيه. وهناك طيّات ثانوية أخرى تُحدِث في ذهني إرباكا لذيذا، سرعان ما ينعكس على مرآة عيني. ويكون كل هذا ردّا على عبارة:

"إنّها لا تحسن التّصرف".

"وأنت هل تحسن التّصرف لو وضعت إصبعي هناك"؟

(إصبعي هناك)؛ عبارة أتبعتها بنظرة منزلقة وأرسلتها باتّجاهه على نـحو ما، ويكون عليه أن يتلقّاها.

النّظرة المنزلقة أيضا ألحقها بابْتسامة ماكرة، ابتسامة صفراء، تحاكي وضع خصيتيه المحشوّرتين في سرواله القميء، ابتسامة تبدأ بزاوية حادّة قليلا ثمّ تنفرج، ابتسامة مائلة، والسّقف مائل، أمي مائلة، ووجه زوجها مائل أيضا، وكل الوضع مائل، وعبارة: (لا تحسن التّصرّف) مائلة كذلك.

إنّ زوج أمي ضحيّة أمي؛ السّيدة الأولى في فنّ التشكّي والميلان والتّبجّح بالأوهام. وإنه هو ذاته، جزء من هذه الأوهام التي تواصل أمي التشبّث بها والدفاع عن جدواها، وفي جميع الظروف أكون أنا الجمهور المستهدف.

أمي وزوجها كلاهما يسعى لأنْ أكون في صفّه. وأدعم كلّ واحد منهما ولو بصمتي، في حملته ضدّ الآخر؛ هي في نظره امرأة لا تحسن التّصرّف، وهو في نظرها رجل لا يحسن التّصرف. والفرق أنّها تعلن هذا أمامه بينما تدافع عن شخصه أثناء غيابه، ربّما، لتحبّبني فيه، أكثر مِمّا تعتقد خطأ أنّني أحبّه. وهو يقول ذلك عنها، من وراء ظهرها، ويقبل بكل شيء أثناء حضورها. لكنها الآن غائبة وقد لا تعود إلا بعد يومين أو أكثر.

كانت هذه واحدة من المرّات النّادرة جدا التي تسافرُ فيها أمي دون أن تكون قد أخبرتني مسبقا، وأظنّ أنّها المرّة الوحيدة التي تتغيّب فيها عن البيت ليومين كاملين. لقد اعتادتْ أن تأخذني معها إذا سافرت إلى مكان قريب، وغالبا ما كانت تزور «بَهيّة» قبل سفرها وتتركني عندها، لتعود إليّ في وقت متأخر، وفي حالات قليلة عندما أكون أنا في المدرسة تطلب من «بَهيّة» أن تأخذني إليها فور عودتي، موصية إياها ألا تدع عينَها تغفلُ عني. وكانت «بَهيّة» أثناء غياب أمي تبالغ في الاعتناء بي، وتحرص على أن أكون تحت أنظارها طيلة الوقت. وفي حال كان لديها شغْل في البيت فإنّها كانت تقوم به وهي تسردُ لي قصصا عجيبة عن طفولتها وعن زوجها السابق، وعن الصداقة المتينة التي ربطتها ولا تزال تربطها بأمي. وكيف أنّهما قضيا كثيرا مع الوقت كرأسين في طاقية واحدة.

كانت «بَهيّة» تمازحني كثيرا، كما لو كنتُ فتاة ناضجة وكانت تتحدّث إليّ بلا حذر وتستمع إليّ بانتباه شديد، وكانت تصحّح بعض تعابيري، وتطلب مني أن أعيد صياغتها، فإذا فعلتُ، تعطيني علامة 16 من 20.

بل إنّها كانت تُبدي دهشتها غالبا من سرعة استيعابي. والواقع أنّني كنتُ أحب البقاء معها لأطول وقت ممكن، وأحيانا كنتُ أجدني متمنية في قرارة نفسي لو أنّ «بَهيّة» هي أمي. ذلك أنّها تتصرف على الدوام بمرح لا يضاهيه إلا مرح الممثلات الشرقيات. إن لديها قدرة عجيبة على إزالة أدنى مظاهر التّشنّج من الحياة، فهي تجعل الزمن بيني وبينها يَمر كخيط حرير.

لكن في ذلك اليوم لم تحضر «بَهيّة» كعادتها لتأخذني إليها، لأن «بَهيّة» هي الأخرى قد سافرت رفقة أمي.

وحاليا لدينا وضع خاص.

هه، حسنا.. انتبهْ..

فللمرّة الأولى يحدث أن تغيب أمي عن البيت، ليومين، ويكون عليها أن تتركني مع زوجها، أوقاتا طويلة من الليل والنّهار. فهي إذنْ لم تهتمّ بالأمر لشدّة إحساسها بالثّقة والاطمئنان.

إنّها تستأمنه عليّ، وهذا لا يبدو غريبا بالنّظر إلى تحسّن علاقتي بزوجها، فقد أصبحتُ أظهرُ أمامها تصرّفات وأطلقُ فيضًا من التّعابير التي توحي بمدى قبولي له كأب صالح وجدير بأنْ يكونَ ـ ولو قليلا ـ محلّ فخر، أو بالأحرى ألاّ يكون محلّ احتقار على الأقلّ.

إنّ هذا جزء من فقر الخيال الذي تعانيه أمي في صميمها. فهي تريد من الحياة أشياءَ كثيرةً، وعندما تفشلُ في تحقيقها، تُجري بعض التّعديلات في نظْرتها وفهمها للأمر الواقع. ثم تلجأُ إلى الوهم.

إن أمي تتوهّم وتتوهّم، وتتوقّع من الآخرين مجاراتها وتسهيل فرص انْغماسها في الوهم، وهذا ما فعلته أنا بالضّبط.

وها إنّ الوقت، كلّ الوقت أمامي، وزوج أمي يجلس أمامي، تحت رحمة نظراتي التي لا ترحم.

لقد استأمنته أمي عليّ، فهل فكّرتْ إذا كانتْ تستأمنني عليه؟!

فكرةٌ تدفع إلى التّبوّل من شدّة الضّحك..

والحق إنّ الفرصة كانت مواتية لأضحك، بصوت عال، ومواتية لأزيلَ من ذهني ذلك الإرباك الحاصل بسبب ملاحقاتي البصرية لكمّ هائل من التّجعيدات، تتجمّع في منطقة خصيتيه، وتتحالف كلّها وتتواطأ لتغريني بالمزيد من الجرأة في انتهاك ما تبقّى من حواجز، حتى أطيح تماما برجولة هذا القابع أمامي مستسلما وخانعا، والذي لا يجدر بي إلا أنْ أدعوه زوج أمّي، كما لو أنّ هذا اسمه أو وظيفته.

"وأنت هل تحسن التّصرف لو وضعت إصبعي هناك"؟

قلت هذا، لزوج أمي وكان للكلمات في فمي طعم الكاويتشو. وسمعت غمغمته غير المفهومة، تتخلّلها بـحّة غريبة في صوته، ذكّرتني بموقفه المهين في محل «كولومبيا» وهو مطأطأ الرأس، يتوسّل لـ «الدرّاجي».

لقد حسمتُ في أمره أنا أيضا، وأريد أنْ أجرّب وأرى بعيني وألمس بإصبعي، تلك النّقطة التي يتركّب عليها مشهدٌ كامل آيل للانهيار.

طفلة في الرابعة عشر -بكلّ ما فيها من رباطة جأش وبرودة أعصاب- تُسمّنُ شعورها المفرط بالنّضج على حساب رجل منهك تماما، لا يقوى على أبسط ردّة فعل.

نقطة تبدأ منها رحلة السّقوط التّام.

مددت يدي إلى التّجاعيد وعدّلتُ وضع خصيتيه، كأنني أصفّف معدّة خروف.

الخشبة مثبّتة عرضيا تحت الباب الخارجي. إذن لا مجال لدخول قطط من الشارع.

ولا مجال لتوسيع انفراجة ساقيه.

زوج أمي رجل مختصر في تقويسة ظهر على الحائط.

نظرة مبهوتة، هيا.. هيا.. إليّ بمنشفة وقفّاز طبّي للحماية من المواد البرازية.

سأدخل إصبعا، إصبعين ثلاثا.. سأدخل قبضتي بكاملها في شرجه، أدخلها بقوّة، وأتمادى في سبر أغواره، لأبلغ نهاية قفصه الصدريّ، ثمّ...

وما أنْ أصادف بيدي شيئا في جوفه حتى أمسكه وأسحب، أسحب إلى الخارج. وهكذا أُقلبُه كجورب، وأدعه ينبح، ينبح بالمقلوب، طيلة الوقت.

## - 5 -

أما «نعّوم» هو لقبي، أقصد، حين يقول الناس: «سونيا نعوم»، أقول: حاضرة.

أنا دائما حاضرة باسمي، أما لقبي فهو حاضر بي؛ ورثته عن والد لم أتشرف برؤيته إلا في صورة مبروزة قرب سرير أمي، ولم أعرفْ عنه سوى أنّه كان مفرط الذكاء، يجيد السّباحة ويقضي معظمَ وقته في صيد المحار.

عاش مع أمي أكثر من ثلاث سنوات حتى ظهر حملها بي.. هه.. فطلّقها.

نعم، طلّقها بكل بساطة، وتزوّج فتاة كان قد قرر الزواج بها وخطط لذلك بمجرد وصوله إلى العاصمة مصطحبا أمي في أولى أيام زفافهما، سنة 1977؛ أظن أنه قدم إلى هنا هاربا من عار أو فضيحة أو شيء كهذا تقريبا! وكانت أمي تتبعه، مؤمنة بقدرته الخارقة على تذليل كل الصعوبات، ليصل بها إلى السعادة، في ضربة واحدة. كيف لا يفعل هذا وقد منحته كل شيء؟

آه، صحيح، بالضبط، هذا ما تفكر به المرأة دائما.. بمعنى؛ اللؤلؤة الخرافية! وكيف كانت تملكها، وكيف ضحت دفاعا عنها وفي آخر المشهد أعطته إياها، أعطته اللؤلؤة، ثم كان من حقها أن تنسحب؛ قاعة الانتظار بانتظارها كالعادة، فلتنسحب.

ليس عليها أن تتوقع ما يريد الرجل، لا وجود لمشهد آخر بعد المشهد الأخير، ماذا يريد أكثر؟

بالتأكيد لا شيء، آن الأوان كي يثبت جدارته؛ هكذا تفكر المرأة عموما، وهكذا كانت تفكر أمي وهي تمشي وراء والدي إلى أن وصل بها إلى العاصمة؛ (هذا لا يعني أنهما جاءا مشيا، مجرد طريقة تعبير.. افهم..)، وصل بها، دخل بها، وماذا بعد.. بها؟

أولا: أمضيا ليلتين بائستين امتلأت خلالهما رئتاهما برائحة العرق تنفثها الجوارب والأحذية المرمية، هنا وهناك، بلا حساب، ناهيك عن الغبار والحشرات وبراز الحمام. أقول ليلتين، أمضياهما بغرفة خاصة بتغيير الملابس، ملحقة بملعب كرة قدم، أمّنها لهما الرجل ذاته الذي ساعدهما في استئجار بيت يقع بالقرب من سكة حديد. هذا الرجل لا يزال يزور أمي، حتى اليوم، ويسألها عن حالها. إنه رجل هادئ إلى حد -تقريبا- إلى حد أنه يكاد يموت من فرط الهدوء، ذات مرة تحدثت معه فشعرت بالسكينة. تثاءبت وانتابني إحساس لذيذ بالفتور.. الفتور الذي يجعل أكثر الناس نباهة يقول (نعم)، ولا يكف عن قول (نعم)، حتى دون أن يكون مطلوبا منه ذلك.. هذا ما حدث بالضبط، أقسم! ففي اللحظة الأخيرة كاد يغلبني النوم، لولا أن أمي اقتحمت هذه اللحظة بصوتها العالي، وهي تتحدث عن ألم تشعر به بين كتفيها، ينتقل أحيانا إلى ناحية كليتها اليمنى، ثم يستوطن تحت ثديها الأيسر، على أمل أن يستقر بين فخذيها، وفيما بعد، الرجل.. ..

أو دعنا منه أصلا، كلما تذكرته يثقل جفناي وأرغب بقول (نعم)... والمحير في الأمر أنه هادئ بمعنى؛ الزبدة.. زبدة على زيت خروع، مضاف إليهما شحنة من الإيمان الطازج؛ «بيبي»، رجل كهذا.. (بركة).. ما علاقته

بكرة القدم وبالملعب وغرفة التبديل؟! والأهم، ماذا وجد لدى أمي حتى يحترمها ويساعدها.. بالأدعية الربانية والخشوع وتذبيل العيون، على ملاحقة الألم الذي.. هنا؟

الألم دائما هنا؛ آه.. بل ها هو هنا.. هنااااا.. أكثر.. الألم ينتقل واليدان المباركتان تروضانه، وبمشيئة من الله سيتم تثبيته في نقطة محددة ثم الحجر عليه.

واحد؛ عبئ..

اثنان؛ صوب..

ثلاث؛ أطلق.. واااا...

أخيرا؛ تم استئصال الألم من بدنها.. أقصد؛ أمي.. يا لأمي وهي تتلقى البركات منذ طلاقها حتى اليوم!

لقد طلقها والدي، وسافر مع زوجته الجديدة، وهي حفيدة صاحب الحانة التي احتسى فيها أول كأس نبيذ، هنا، بالعاصمة، أظن أن والدي دخل تلك الحانة ليحتفل بنجاحه في الحصول على بيت، كان رجل البركة ذاك، الهادئ، قد ساعده في استئجاره؛ (اتفاق فمعاينة ثم الدفع أخيرا، هيا إلى البيت، على بركة الله..)، كل هذا تم خلال ساعة من ذلك اليوم الذي تلا الليلتين المتخمتين بروائح العرق المختر في الجوارب.

والحاصل لدينا:

والدي ترك أمي في ذلك البيت المحاذي لسكة الحديد.. بمعنى؛ (أعطاها عربونا معتبرا مقابل تنازلها عن اللؤلؤة، بانتظار المزيد..)! وانطلق إلى الحانة. وقبل أن تتأكد مؤخرته من أنها استقرت على الكرسي الذي جلس عليه، كان هو قد تأكد من صواب ما فكر به؛ لقد فكر ودبر

وبدأ يخطط، وكل هذا حدث في لمحة بصر، لمحة طالت صورة فتاة مرت، حتى أن خصرها كاد يلامس جانب الطاولة، حيث كان يجلس.

فيما بعد، أظن أن الفتاة اختفت في ظلمة ممر يؤدي إلى حيث يؤدي، كما هو الحال بالنسبة لحانة ملحقة بسكن.

أظن أنها حانة سرية، لاحظ؛ و(ملحقة بسكن)، تماما كالغرفة، (ملحقة بملعب)؛ أستنتج أن رجل البركة له يد في هذا الأمر!

بالتأكيد هو من دل والدي على الحانة. أما الفتاة فإن ظهورها تتمة معقولة للمشهد؛ تظهر الفتاة، ويتضح، في حالة كهذه، أنها مجرد حفيدة مات والداها بحادث مرور غامض، من المحتمل أنهما ماتا غرقا؛ (ليس في بحيرة عميقة تتوسط غابة، خلال عطلة صيفية طبعا.. بل في عرض البحر! بكل ما تحمله هذه العبارة من أمواج وأشرعة ورياح سوداء ونداءات استغاثة وإشارات راديوية.. و.. و...

أو.. ربما، والدا الفتاة زارا مطعما راقيا وطلبا طبقي محار، وحين همت الأم بفتح أول محارة مطبوخة جيدا، عثرت على لؤلؤة، بل خمسين لؤلؤة. بدأ الاثنان في تنظيف حفنة اللآليء تلك! وعوض أن يساعدهما صاحب المطعم، قام بقتلهما وما إلى ذلك من الأحداث المؤلمة، فيما بعد تم إرسال الفتاة إلى جدها، صاحب الحانة وهو أحد أقدم قدماء المجاهدين.

كل هذه الأحداث تجري بالأبيض والأسود، إلى أن يظهر والدي؛ يلمح الفتاة تمر؛ المشهد الآن بالألوان:

يتقرب والدي من جد الفتاة.. و...

صدقا لا أعرف كيف تقرب منه...

في الواقع؛ لا أحد يعرف كيف سارت الأمور بعد ذلك.

أمي تدعي أن والدي كان ضحية ابتزاز، وتقسم أن صاحب الحانة استغله بخبث، وأجبره فيما بعد على الزواج من تلك الحفيدة البلهاء، هكذا تصفها أمي، وتقول:

"طلقني وتزوجها فليسامحه الله". نعم فليسامحه، طلق أمي وتزوجها، وكانت من قبل مجرد فتاة مراهقة، لكن بعد ثلاث سنوات صارت امرأة بخمسين لؤلؤة؛ تزوجها وهاجر إلى أوروبا، لعلّه لا يزال هناك، ولعلّه سيظهر في حياتي ثانية، بالألوان، لأسأله.. فقط:

أيّ صوت هذا الذي لا يُردُّ له أمر، جاء من الغيب وأوحى له أن يهجر أمي لمجرّد أني كنت سأصبح ابنتها! وها قد أصبحتها بالفعل، تماما كما أوحى الصّوت ذاته، أو أيّ صوت آخر دخيل لأمي أنْ تأكل وتشرب وتنام قريرة العين، لأنّها ستلدني ذات يوم، طبعا نكاية في المتشفّين، وقد ولدت ورحتُ أنمو وأترعرع إلى أن صرت على ما أنا عليه الآن.

أنا التي ما إن أخذت مكاني في بطن أمي حتى انْتهتْ مَهمّة والدي الذي هاجر إلى ما وراء البحر دون سبب ظاهر.

## - 6 -

«بيبي» أنا تعلمت منك الكثير، على الأقل في مجال الكتابة، ولهذا أحاول إظهار موهبتي في التعبير خلال هذه المقاطع التي كتبتها، والتي أقترح عليك وضعها في الفصل الأخير. أقول أقترح عليك، ومهما يكن.. أن تقبل اقتراحي أو ترفضه؛ هذا شأنك يا «بيبي»! أنا أكتب ببساطة دون حساب لتلك الأمور المعقدة؛ الراوي الأبطال.. المكان والزمان.. السياق؛ وما إلى ذلك.

في الواقع، صارت لي دراية بها، أقصد (الأمور المعقدة)، التي من دونها لا يمكن إنجاز قصة حياتي.

لقد وضعت خطة صغيرة لإخبارك بالأحداث والتفاصيل التي لم تتح لي فرصة التطرق إليها بعد.. ثم.. أو.. اسمع؛ ماذا لو نبدأ عمليا؟! بمعنى أطرح أسئلة على نفسي وأجيب عنها.. فيما بعد تقوم أنت بمعالجة جميع الإجابات وفق خطتك، أليست لديك خطة كاملة لتقديم قصة حياتي لجمهور قرائك بأفضل طريقة..

حسنا.. هاو السؤال: نبدأ بماذا؟

الإجابة: نبدأ بأهم شخصية..

«حمُّو»؛ التقيته أول مرة بعد فضيحة زوج أمي بأربع سنوات. تلك الفضيحة التي أصبحت معْلما رئيسا لكل الأحداث؛ فقد وقعت تحت سمعي وأمام عيني وكانت بمثابة صدمة حقيقية نفذتْ إلى أعماقي بقوة غريبة.

لقد فصلت لك هذا الحدث المزري، أو على الأقل جزءا منه. كان هو آخر شخص اقتحم حياتي وتوج مشهد الدمار الذي عانيته فيما بعد.

لم تكن له علاقة بزوج أمي إلا في حدود ضيقة، لكنه كان صديقا حميما لصاحب محل «كولومبيا»، «الدرّاجي»، وكان شريكه في كل شيء. وهما، تقريبا مختلفان:

«حمّو» أصغر سنّا -قليلا- من «الدرّاجي». بشرته سمراء، بنية الجسم قوية، العينان، تقريبا؛ سوداوان! فيهما أو حولها شيء من الغموض المروع؛ غموض ساطع.

أنهيت الوصف، فيما يلي نبذة عن حياته:

ولد «حمو»! (اسمح لي أن أعبر بطريقة مدرسية كما لو كنت أتحدث عن شخصية فريدة) ولد بـ (السعدونية)، أعرق مدن الجنوب وأكثرها شهرة، طبعا بفضل وجود زاوية (سيدي السعدوني) التي يقصدها أهل العلم ورجال الحضرة من كلّ جهات البلد، ناهيك عن أنّها وحتّى هذا اليوم، تعتبر كعبة المهووسين بتربية وتجارة الخيول ذات السّلالة النّقية.

والده رجل صالح وأمين، يحترف الرّقية الشّرعية، ويجلب للمرضى من مناطق بعيدة بول الإبل غير المغشوش، ويبيعه لهم بأثـمان زهيدة. أمّا أمّه فلا أدري عنها شيئا، لأنّه كان يتحاشى الحديث عنها، ربما تكون المسكينة قد ماتتْ، أو ربما هي الآن تعيش بسلام ولا أثر لوجودها.

غادر «حمّو» بيت والده إلى غير رجعة، في سن مبكّرة، واشتغل متسوّلا من أول يوم، تتقاذفه الطّرقات والسّاحات وباحات المساجد، واشتغل بائع سجائر في محطّة حافلات بضواحي العاصمة. ثم حمّالا في الميناء الكبير، وبعدها حالفه الحظّ فحصل على عمل مناسب لظروفه تماما؛ لقد ارتدي «حمّو» الزّي الخاص بـمنظّف كلاب محظوظ. فتوفّر له فائض من الوقت للراحة وللأعمال الإضافية، والأهمّ من كلّ ذلك. صار لديه طعام كثير ومأوى آمن. فهو يأكل حتى يصاب بالتّخمة وينام حتى يتخثّر دمه، وكان يستقبل أصدقاءه دون أن يتهيّب من معلمه «البركاني»، صاحب المروضة. فهو يسمح له بذلك.

المروضة تقع بأطراف (الحميز) ضواحي العاصمة، وهي عبارة عن دار من الطّراز القديم، غرفتين تطلاّن على حوش واسع به سياج، وعصي للتّهويش، وأوقية ذراع تستعمل في تدريب الكلاب، وسيارة مهترئة، وحواجز للقفز، وأخشاب وعجلات مطّاطية، وأدوات عديدة خاصة بالتّرويض. وخارج الدّار غرفة أخرى صغيرة ملحقة، ذات باب حديدي تطلّ على طريق بلا وجهة ومزبلة وبضعة أشجار وبراميل ومجرى من القذارة وقناني نبيذ فارغة.

أنا دخلت هذه الغرفة ذات مرة وكدت أختنق فيها، وأكون ضمن قائمة الأموات. إنها تشبه تلك الغرف التي يحتجز فيها الإرهابيون رهائنهم؛ البرودة، السقف الذي يلامس الرّأس، السّرير العالي، الصّحون القذرة، بقايا الشّموع وأعقاب السّجائر، المروحة الكهربائية المنكّسة.. و.. المرآة ذات الشّقوق على الحائط.

كدت أختنق حقا.. فكيفما جلست في تلك الغرفة أو اتّكأت أو تمدّدت فإنّ ذلك الشّعور الطّاحن المقحل للروح، ظلّ يتهدّدني ولم يفارقني أبدا، حتى اعتقدتُ جازمة بأنّ حياتي ستنتهي لا محالة بعد سبع دقائق، ولولا أن عمّي «البركاني» برأسه الأشيب ووجهه المستطيل كان كريما معي، فأخرجني إلى الفناء، لاخْتنقت فعلا.

في الواقع إن كرمه أيضا يدعو للاختناق. إنه كهل، متقاعد.. سرعان ما تسري الحموضة في طيبته من فرط إحساسه بالتقاعد.

كم هو غريب، عمي «البركاني». غريب وغامض، غريب وحازم، هشّ، وصعب التّطويع. يعتني بوالده الشّيخ المسنّ ذي الوقار العظيم، ويؤدّي عمله جيدا.

لقد اكْتسبَ «البركاني» شهرة واسعة ومصداقية لا نظير لها، وهذا لا يتحقّق لأي كان. إنّ الجميع يطلب خدماته، فهو رجل لا غنى عنه، يقصده ضبّاط الشّرطة وممثلو الشّركات وأصحاب الأملاك الكبيرة.

في الواقع إن «حمُّو» لم يذكر لي كيف ارتقى من بائع سجائر بمحطّة الحافلات إلى حمّال في الميناء الكبير. لكنّه أخبرني كيف وجد عملا أفضل، فغادر الميناء بعد أشهر من التّعب المضني والجوع الكافر والنّوم على صفائح الحاويات.

كانت مجرّد صدفة عندما طلب منه أحد أعوان أمن الميناء أن يستلم من شخص، يقف على أحد مداخل الميناء، كيسا به مؤونة ويوصله إلى أشخاص داخل حاوية مليئة بالسّلع. وقد فعل «حمّو» ذلك بكلّ كفاءة ودون تفكير وعاد إلى عمله وصمته المعهود.

مرّتْ الأيام.. وصار «حمّو» يتحدّث إلى أعوان الأمن والحرّاس والمراقبين والجمارك ويطعم كلاب المفتّشين، إلى أن سأله أحدهم إن كان يعمل هنا ليحصل على فرصة للهروب من البلد، فأجابه «حمّو» على الفور:

"أنا أعمل هنا لأحصل على فرصة مغادرة هذا المكان. إلى عمل أفضل".

"هل تجيد قيادة الشّاحنات الكبيرة"؟

"لا أجيد قيادة أي شي".

"بالضّبط.. هذا ما يلزم لتنجح في حياتك".

"لا أريد النّجاح، أريد مغادرة هذا المكان فحسب، إلى عمل أفضل".

"حسنا، إنّك مناسب جدا. أنت منذ الآن تشتغل لدى عمّي (البركاني)".

وبالفعل صدق هذا الرّجل وحصل «حمُّو» على عمل لدى «البركاني» صاحب مروضة كلاب ذائعة الصيت، وتعرّف فيما بعد على «الدرّاجي». صارا صديقين وشريكين في كلّ شيء، منذ التقيا، إلى أن افترقا.

# الفصل الخامس

## - 1 -

بإمكاني أن أحدثّك عنهما.. عن والديّ؛ كيف كانا وهما معا؟

بالتأكيد، كانا ككل الناس في ذلك الوقت، شابّين. وكانت الحياة ما تزال بالأبيض والأسود، وكان الرّذاذ والهضبات العاليات وأوراق الشجر وساعة المغيب التي تحين ما أنْ يلتقي الحبيبان وترتفع الموسيقى.

أمي من عائلة ريفية.

ولدت شتاء 1956.

عاشتْ كل طفولتها وشبابها بمنطقة (الحزوة)، وجاءت إلى العاصمة رفقة والدي بعد زواجهما سنة 1977.

في صباها وجدت اسْمها مسجّلا بمدرسة ابتدائية. ربما درستْ بضع سنوات أو أشهرا قليلة فقط. أما أنا، فأظن أنّها جلستْ إلى طاولة القسم أياما معدودات، ثم طردها المعلّم بعد ذلك، فهي لم تخلق لتلقّي العلم. ومجرّد تخيّلها جالسة تكتبُ بضع كلمات، أو واقفة تُلقي نشيدا، يتطلب خمسين رئة لتحمّل الضّحك المميت. إن الجهل ليتباهى بأمي أمام خصومه، فهي آخر (ما) سيخرج به من هذه الحياة؛ الحياة المعرّضة لعدوى التّعليم في كل لحظة.

في سنّ المراهقة أَرسلتْها جدّتي إلى إحدى قريباتها لتتعلّم الخياطة، فتكتسب حرفة تساعدها في حياتها، لكنها فشلتْ في ذلك، وتعلّمت فقط أن تتجوّل بين البيوت، لتسوّق بضاعة معلمتها وتعرض مؤخرتها على الشبّان الطائشين.

قالت أمي مرّات عديدة:

"لقد أَجدتُ عملي منذ صغري، وكنتُ أحصل على مال وفير، غير أن المعلّمة كانتْ تأخذ كل شيء مني وتتنازل لي عن الخبرة".

لا أدري عن أيّة خبرة كانت أمي تتكلّم، لأنّ معلمتها، كما هو ثابت في كتب التاريخ التي أصدرتْها مطاحن القيل والقال، رفضتْ مواصلة إعطائها المزيد من الدروس، وأعادتْها إلى جدّتي متبرّئة من أيّة مسؤولية إزاءها، قائلة بصريح العبارة:

"لو بقيت ابنتُك على هذا النّهج ستتعلّم نوعا من الخياطة لن ينفعها في إعادة بكارتها إلى وضعها الطبيعي".

أظن أن هذا ما قالتْه المعلمة بالضبط لجدّتي. ومن يومها ساء ظنّ الجميع بأمي، فصارتْ تحاول تصحيح نظرة الآخرين لها.

لا شك أنّها سعتْ لتبرئة نفسها، وعندما لم تتلقّ الصّفح عن جرْم لم ترتكبْه وضعتْ لُبانة في فمها، ومرّتْ قرب باب الحمام. وما هي إلا ضربة فك على العلكة المضوغة جيدا، متبوعة بطقطقة حارة، حتى كانت الحيوانات المنوية تتشمّس في رحمها. لا بدّ أن أحد شباب «الحزوة» الطائشين المتربّصين بها منذ كانت تتفنّن في عرض بضاعتها قد استغلّ الفرصة هذه المرة، واشْترى في غفلة من الجميع، وهكذا تمزّق جلد الطّبل

وتفرّق المدّاحون، وتحقّق ما حذّرت منه المعلّمة جدّتي من أن ابنتَها ستلقى مصيرا سيئا.

إذن، فإن أمي اختارتْ أن تناضل لتستردّ شيئا غير مفقود منها أصلا، وعندما فشلتْ في ذلك، وهذا هو المنطقي جدا، تنازلتْ بمحض إرادتها عن هذا الشيء، لا لتستردّه لاحقا، بل لتبرّر نضالها العبثي في الماضي والمستقبل.

لقد فعلت أمي ذلك، نكاية في حرفة الخياطة والخياطات.

أما بالنسبة لقصتها مع والدي فهي تحكيها، كل مرة بشكل مختلف؛ تقول إنها تعرّفتْ عليه في الثامنة عشر من عمرها وعاشتْ معه الحب الكبير، وتزوّجته في سنّ الحادية والعشرين. لكنها في مرّات أخرى تقول؛ إنّها تعرّفت عليه فخطبها وتزوّجها في ظرف وجيز. أما عندما ينقلب مزاجها ويُطبق على مشاعرها اليأس فتطلق عبارتها تلك:

"ما علينا"..

ثم تتثاءب وتستلقي في سريرها، وتكون على بعد ذراع منها صورتها المبرْوَزَة وهي بثوب الزّفاف تتلقّى حضنا دافئا من والدي، بينما ملامحها في الصّورة توحي بحالة تشتّت غامضة:

"ما علينا، لندعْ كل شيء يمرّ"..

ويمرّ الوقت، وتمرّ في مخيلتها أصوات رجال ونساء من الجيران والأهل والمعارف؛ يتناقلون تفاصيل أحداث ووقائع وقصص، حول علاقتها بوالدي قبل الزواج.

هذا يخبرُ ذاك، هذه تخبرُ تلك، وتتشكّل سلسلة من عشرات الحلقات؛ لسان في أذن، لسان في أذن، أنف في إبط، حنك في ورك، دو..دو..دو...

مطحنة تدور وتطحن؛ تطحن حقائق على إشاعات على نتفات شَعْر!

أحقاد، وأحقاد مضادّة..

ردّات فعل غبية..

ضراط، قيء، ضغائن..

مؤامرات محبوكة..

كلام يتكلّم من وراء حبل الغسيل..

كلام يتصاعد مع البخار في الحمّام، يوم الجمعة..

كلام في المراحيض، في الحيض، في السّوق، في الجنازات، في المستقبل والماضي، وهكذا يتشكّل الماضي، هكذا، ثم يَمْثُلُ كشبح أسود تحاولُ أمي مواجهته ذهنيا فلا تستطيع، وعندما لا تستطيع تتنازل عن نفسها لسلطة النوم.

من حسْن حظّ أمي أن ذكرياتها السّيئة لا تأتيها إلا ليلا، لهذا كانت تتغلّب عليها بإطفاء النّور.

لطالما حاولتُ أن أعرف القصّة الكاملة لأمي.. كيف كانت وهي صغيرة؛ تأكل وتشرب.. تجري.. تمرح وتشاغب.. وترفع أستيك كيلوطها قليلا، تنظر إلى ما تحته وتنام، وكيف كبرتْ شيئا فشيئا إلى أن التقتْ والدي، فأحبّته وأحبّها وبقيا يناضلان حتى أنهيا قصّتهما بالزواج؟!

هل هذا معقول؟!

كلا كلا..

لا أظن أنهما وقعا في الحب؛ (والدي وأمي). ربما يكونان قد وقعا ضحية لحظة عاطفية جارفة؛ أي ما يسمّى بالنّزوة. وأرجّح أن أحدهما أَربكَ حياة

الآخر، فتطورتْ بينهما الأمور تدريجيا. وهكذا وقعتْ مشاكل واستجدّت أحداث غير متوقّعة، خلّفت وراءها آثارا صعبة جعلتهما ينكبّان على تغطية جرح هو ثَمرة خطيئة محتمل أنهما ارتكباها.

ومع الوقت، تولّدتْ بينهما عشرة تتغذّى على نزيف عاطفي. صارا شريكين في فجوة اتّسعتْ فسعيا لسدّها، لكنّ الظّروف لم تسعفهما فاضُطرا للزواج، وزادت الفجوة اتساعا؛ إنّها الفجوة التي انزلقتُ منها أنا إلى الدنيا.

ذات مرة سمعتُ أحد أعمامي يقول لأمي بأنّها اختطفتْ والدي وجلبتْ له العار، وأنجبتْ منه رغم أنف الجميع. أما جارتنا «بَهيّة» التي سأحدثك عنها كثيرا، هي صديقة لأمي وأنا أدعوها خالتي، أخبرتني أن والدي غدرَ بأمي وتنكّر للعشرة الطّيبة، لكن «بهية» بينما كانت -ذات يوم- تدربني على لقطة جنسية معقدة، قالت لي:

"افعلي هكذا، هيا، اجعلي جسمك يهتز، كوني خفيفة وطيعة لنفسك، لنفسك أولا، ولا تكوني كأمك التي..

"التي.. ماذا؟".. سألتها.

أجابت وهي ترفع كتفيها وتململ أسفل جسمها:

"كانت غبية، لا تحلق جيدا شعر عانتها، وحتى بعد أن خسرت زوجها، لا تزال غبية"!

واستمرت «بهية» في شرح فكرة واحدة مفادها أن والدي طلق أمي لأسباب (سريرية) بحتة؛ بقايا الطعام في فمها أثناء التقبيل، وكذلك رائحة العفن المنبعثة من بين فخذيها، بالإضافة إلى أمور أخرى مكملة تتعلق بالتأوه والاهتزاز وما إلى ذلك...

الواقع؛ إنّها روايات شتّى، صَعْبٌ فرزها، لكن الأكيد، أنّها -والداي- تزوجا على عجل.. في مكان ما بتلك المنطقة المسماة «الحزوة»، ولم يكنْ بينهما حب ولا أوراق شجر ولا ساعة مغيب ولا أي شيء من هذا كله. وبعد أيام أو أشهر هربا إلى العاصمة، وانتهت القصة بعد ثلاث سنوات بالطلاق...

والدي هاجر مع (حفيدة صاحب الحانة) زوجته الجديدة ليصنع معها ذكريات في أجواء من الضباب والشاعرية، بالمقابل اختارت أمي أن تعيش الحياة يوما بيوم، فلا يكون لديها ذكريات أو شيء تحن إليه. بعد رحيل والدي تزوجت رجلا غير قابل للتعريف؛ لا جذور له ولا اسم، أو بالأحرى اسمه زوج أمي، ولا شيء آخر.

إنها الحياة إذ تكون خالية من المعنى؛ الزمان مفصول عن المكان، كطعم مفصول عن الرائحة؛ شيء، لكن لاشيء، تقريبا؛ العدم مشيدا على ربوة. العدم على شكل بقايا جدار لا وجود له، أو كان موجودا ثم اختفى فلم تبق منه إلا تلك الخربشات والرسومات المحفورة عليه، وآثار البول والتشوهات والهلوسات المدونة بالبراز حرفا حرفا...

تلك هي أمي، مسحت بضربة واحدة تاريخها نهائيا من سبّورة الوجود، وجلست على الربوة، تستمع لأغنية "لا وجود لشيء في هذا الوجود"!

حتى المكان الذي ولدت فيه أمي، لم يعد له أي مكان في التاريخ أو الجغرافيا، لقد امّحى تماما. امحى حتى من الذاكرة. وصار الناس متّفقين جميعا على أنهم لم يسمعوا طيلة حياتهم بمنطقة اسمها «الحزوة»، ولهذا فمن المستبعد ـ حسب قولهم ـ أن تكون هذه «الحزوة» موجودة أصلا. وإذا كانت موجودة فهي مجرّد اسْم دخيل يظهر في الوثائق الثبوتية الخاصة بأمي

على أنه مكان ميلادها. إنه مكان فحسب، مكان بعيد، بعيد جدا عن كل الأمكنة الأخرى التي لا يختلف اثنان على وجودها.

هل تصدّقني يا «بيبي» إن قلتُ لك أن مذيعا ظهر ذات مرة على شاشة التلفزيون الملوّن الذي اشْترتْهُ أمي، بعد أن شرعَتْ في تحصيل ثمار الانتقال من طبقة سفلى إلى طبقة أعلى قليلا، بفضل صداقة مشبوهة ربطتها برجل أمن اسمه «يونس»؟

أظنّ أننا سنتحدّث عن «يونس» هذا لاحقا، لكننا الآن.. هه.. دعنا فقط مع المذيع الذي ظهر خصيصا ليذْكر خلال حديثه اسم «الحزوة»؛ أقسم أنه ذكر «الحزوة» يا «بيبي»! هكذا بالعربية الفصحى.. وكان هذا في نشرة أخبار الثامنة أو ربما في شريط وثائقي تناول أمورا لها علاقة بنزع الألغام والأحداق المخطرة، آه.. نعم.. بالضبط؛ إنني أقصد الأخطار المحدقة أو ما شابه ذلك!

كلا، كلا.. أظن أن المذيع لم يتحدثْ عن الألغام، بل عن الكلاب المتشرّدة، وكيف أن أعوان البلدية يقومون بمجهودات لمساعدة السكان على العيش بطريقة جيدة؛ أي دون كلاب ودون ألغام. ثم ظهرتْ على الشاشة صورة جماعية لكل سكان «الحزوة» وهم يبتسمون ويلوّحون للكاميرا التي غادرتهم رويدا رويدا، بعد أن أنجزتْ مهمّتها.

لقد التقطتْ مسامعنا خلال حديث المذيع اسما انتبهنا له جميعا؛ إنه اسم المنطقة التي ولدت فيها أمي، وفيها اكتَسبتْ مهنة الخياطة، وفيها أيضا خسرتْ بكارتها على يد شاب طائش، خسرتها، لكن، ليس على يده.

إن اليد يا «بيبي» تصلح غالبا للمصافحة والكتابة، وفي أسوأ الأحوال تصلح لترتيب التجاعيد حول خصيتي (زوج أمي) الذميمتين؛ هذا إذا

كانت يدا عادية، أما إذا كانت خشنة فتصلح للضغط على عنقه حتى يسيل البول الأصفر بين فخذيه وينساب على بلاط الرصيف. لكن لا أحد من الشباب الطائشين يفضّ بكارة امرأة بيده، خصوصا إذا كانت هذه المرأة هي أمي، وهذا الشاب هو ذاته الذي تزوّجها فيما بعد وأنجبَ منها طفلة وحيدة لم تكن إلا أنا؛ «سونيا».

هذا الكلام وغيره لم يذْكره المذيع طبعا، ربما بسبب ضيق الوقت، إذ اكتفى بقول هذه العبارة الواحدة ذات الصدى الممطّط: "مدينة الحزوة الشقيقة". لا أظن أنّها شقيقة يا «بيبي» فهي ليست مجاورة لأي مكان، ربما تكون مناضلة أو شامخة، أو صامدة أو أي شيء من هذا الكلام الذي يمكن سماعه في التلفزيون دون أن يكون قد قِيل بالضّرورة.

والدي أيضا عاش في «الحزوة» بضع سنوات كانت كافية أن يجد فيها نفسه آخر المطاف إلى جانب أمي، داخل برواز ذهبي، يحيط بذراعيه خصرَها وهي بثوب الزّفاف، بينما يبدو كلاهما على وشك الإفراج عن ابتسامتهما المشتركة، لولا أن الوقت لم يسعفهما لذلك. إنه برواز الصورة التي لا تزال تحتفظ بها أمي قرب سريرها حتى هذه اللحظة، تحت أنظار ذلك الرجل المسمى -زوج أمي- ألا تعرفه؟! لقد تزوجته أمي ولم تعتبره أبدا رجلا جديرا بأن تزيلَ من أجله صورة زفافها الأول احْتراما لمشاعره.

## - 2 -

بيبي؛ أظن أن الروائيين يهتمون بالشرفات والموانئ، أليس كذلك؟ من حظنا أن قصتي مع حمو تبدأ بمنظر الميناء الكبير.. ضع هذا الوصف الشاعري وزد عليه ما استطعت: (الميناء الكبير، كتلة ممتدّة في مياه البحر الصّدئة. لطخة من الماضي الضّحل تجثو على مضض، مبتورة عن كلّ ما يدلّ عليها. ورم معماري غير حميد وغير خبيث، يضيق ويتّسع بعيدا عن أعين التّاريخ)؛ هكذا؛ وهيا نبدأ..

كان «حمّو» ثـملا وهو يحدّثني عن عمله في الميناء.

وفي إحدى المرّات بكى، لكنّه بكى بشّدة، وحين سالتْ دمعة حارّة من عينيه تلاشى ذلك الغموض المواكب لنظراته، وتجلّى اعْتذار طفيف في ارْتعاشة شفته السّفلى.

حضنته كما تفعل شابّة ناضجة، وأحسستُ أنني مزهوّة بنفسي.

قمت وأعددت له قهوة، وضعت فيها -دون قصد مني- بدل السّكر ملحا. ارتشفَ منها رشفة واحدة، فتسمّر وجحظتْ عيناه، كما يفعل مهرج ثخين، ثم أفلت ما بفمه على ساقي وكان بجوارنا كلب يتجشّأ.

ضحكنا إلى أن شعرنا بالحزن. وتقيّأنا فيما بعد.. وهكذا بدأتْ رحلة القذارة. أعني رحلتي مع «حمو» الذي تهيأ لي في بداية البدايات أنه فارسي المنتظر، باعتبار أن لكل صبية في ضمير الغيب فتى يجيء لينقذها من جور الأهل وبؤسهم، وقد جاء بالفعل، في لحظة كنت فيها بانتظاره؛ لحظة يأس قاتمة استولت على حياتي وأرخت حولها ستارة سوداء، بينما كان غصن صباي لا يزال في أولى أطواره مهيئا للكسر.. لحظة بات فيها مجرد التفكير باحتمال تأخره لساعة أخرى أمرا لا يطاق، جاء.. وكان آنذاك بالهيئة التي كنت أحب أن يكون عليها، فشبه لي أنه فارسي الحقيقي، لكنه لم يكن فارسا ولا حقيقيا، بل كان أحد شخوص الوهم وأخطرهم. إنه «حمو» الذي اقتحم حياتي فجأة، وكنت ساعتها مهيأة للاقتحام. مد لي يده، فما كان مني إلا أن أنصاع له ظنا مني أنني بهذا لا أخالف مشيئة القدر. وهكذا تركت له نفسي ليحررني، وقد حررني بأكثر مما ينبغي إذ رمى بي إلى الغابة وانصرف إلى حياته الخاصة.

الناس يرون المقعد الخشبي محاطا بأغصان الشّجرة الكثيفة، ويرون اليدين المتشابكتين وبقايا من نظرة مذعنة تغيب تحت جفنين مسبلين، ويرون منظر الرّأس ذي الشّعر المسدول يميل على الكتف الواسعة، ويسمعون تنهيدات يخيل لهم أنها ستنتهي بقبلة حارّة عميقة، وهذا ما يحدث عادة، فيقولون: "هذان حبيبان". وعندما تحدث تضحيات بين هذين الحبيبين وتحدث مواقف مثيرة للشجن ويسيل الدمع مدرارا على الخدّين الموردين وتتبلّل جميع المناديل، يقول النّاس: "إنهما في قصّة حب". والواقع أن كثيرا من هذه اللقطات العاطفية تخلّلت فصول رحلتي مع «حمو»، رغم ذلك لم نكن حبيبين. أو كنّا حبيبين ولم يكن ما بيننا حبّا. لقد أخرجني من

بيت أمي وأخذني إلى الغابة، وخلال مسيرتنا رآني النّاس أنسج معه قصّة وتوقّعوا أنها ستكون مؤثّرة، لكن واقع الأمر غير ذلك، فمئة حبة قمح في يدي لم تكن لتعني أنّني أحمل سنبلة كاملة. لقد ذهبتُ معه إلى أبعد الأبعاد، وعند خطّ النهاية وجدتني أحتكم على تراث هائل من المرارات تكفي لطمْس عشرين ألف قصّة حب حقيقية. رغم ذلك.. دعنا نر الأشياء من زاوية مختلفة، ونقل.. نقل فقط من باب الافتراض: إن ما حدث بيني وبين «حمو» كان فعلا قصّة حب من نوع خاص. وحجّتي في ذلك أنّك تكتب قصّتي الآن يا «بيبي».

هل كنت لتكتب قصّتي لو لم يكن الحب محورها الأساسي..!؟!..

ليس بالضرورة دائما أن تبدأ قصص الحب قرب سور بستان، وتكون نظرة الخجل تلك، والبسمة التي تتدارى تحت ظل الرّموش، ثم تلي ذلك حركة تدوير السّبابة على الخصلة العسلية.. يا إلهي كم هنّ متشيطنات بنات الرّيف! إنهن يمشين ويتلقين الكلام الجميل من خلف الكتف المنمّشة. يتلقين ويتلقين حتى تغوص القدمان في العشب.. وقبل الوصول إلى الربوة المقابلة تنطلق صيحة دلال.. و..

إليك هذا المنظر: حمامة في عشّ وقدم حافية محنّاة في حِجْر الفتى الراعي. إنه يحاول أن ينزع منها شوكة ملعونة..

صيحة دلال أخرى. لقد نجح الفتى في مهمّته رغم أن الشّوكة لم تكن موجودة أصلا. وتبدأ قصّة الحب التي غالبا ما تكون نهايتها سعيدة.

هكذا هي قصص الحب يا «بيبي»؛ زاخرة بمقاطع وفصول مؤثّرة، أبطالها فرسان أشدّاء، يموتون خلال الأسطر الأخيرة، دفاعا عن حبيباتهم.

لكن هذا لا يحدث أبدا في الحياة، أو يحدث لبرهة يسيرة ثم يتلاشى بمجّرد أن نخلع نظّارات القراءة وننخرط في يومياتنا العملية كما هي دائما: نأكل، نشرب، ننام، نبول، نغتسل، نتأفف، ندفع الفواتير، نتبادل التحايا مع الجيران، ونشتم الحكومة..

بربك قل لي: منذ متى لم تسمع بخبر يتداوله الناس منذ الفجر عن فتاة وقعت في حب أحد الفتيان ووثقت به، فدعته أن ينقذها أو دعاها هو أن تهرب معه، أو أنهما الاثنان خططا لذلك. لا أهمية للتفاصيل ما داما سيرحلان معا إلى بلاد بعيدة، ولن يعودا إلا بعد أن يصير حبهما الكبير أمرا واقعا وعلى الجميع تقبّله والاعتراف بثمراته.

أظنّ أنك لم تسمع بهذا يا «بيبي». ذلك أن الرجال كفّوا عن إنقاذ النساء على طريقة الفرسان، كما أن النساء صرن أميل إلى احتمال العيش تحت نير الأهل، لأن ذلك أرحم من طعنة الغدر التي يتلقينها عادة بسبب حب غير مؤمّنة دروبه.

في بداية البدايات كانت "هي" وحيدة وسمعت نداءه الخفي فاهتزّ قلبها.

حدث هذا في ليلة مقمرة: فتاة ذات ضفيرتين وخصلة جانبية، وفي زاوية فمها زهرة برية، فتاة طاوعها قلبها فطاوعته، قلبها الذي مال غصنه الغضّ ناحية فتى غريب، فمالت هي الأخرى مع الغصن..

التوى الغصن حتى كاد ينكسر، وكادت هي أن تنكسر أيضا، لولا أن الفتى اندفع نحوها كفارس أسطوري مذهل. رمى بنفسه إليها، بسط ذراعيه وتلقفها بهما.. إنها في حضنه تنعم بالأمان وهو على ظهر جواد؛ عيناه إلى الأفق المفتوح.. الله.. الله يا لروعة المشهد..!!.. لا ينقص سوى

أن يبصم "هو" بشفتيه على شفتيها إيذانا ببدء سريان اتفاق كانت عيناهما قد أبرمتاه مسبقا..

سيرحلان الليلة تحت ضوء القمر إلى بلاد بعيدة، وفي الغد يستيقظ الناس فجرا ليتناقلوا الخبر فيقال هنا: يا الهي.. "إنّها" هربت.. هربت مع الفتى الغريب.. ويقال هناك: "إنه" اختطفها.. اختطف الفتاة البدوية في غفلة من الجميع..

أنا أيضا طاوعني قلبي فطاوعته، ومال غصني.. مال إلى أن انكسر، وملت أنا أيضا إلى أن انكسرت، وهكذا صرت في متناول فتاي «حمو».. هل تعرف «حمُّو»؟..

آه.. طبعا، أنت لا تعرفه. فلا يليق برجل في مثل مقامك أن يعرف شخصا بهذا الاسم، لكن دعني أخبرك أنني أنا أيضا لم أعرفه.

لطالما اكتفيت بالنظر إلى عينيه وفكرت أنه؛ أن عينيه لا تثبتان على لون واحد، ولا تكونان بالعمق ذاته بين اللحظة والأخرى.

أصْدقك القول، إن صورته في ذهني تطغى دفعة واحدة فتلتهم حضورك.

ما أبهتَ صورتك الآن وأنت ببدلتك الرمادية وانحناءة ظهرك وأسنانك التالفة تغادر لحظتي ويأتي «حمُّو» من الذكريات العميقة، يقف على مسافة قريبة من السور، أقصد سور البستان الذي حدثتك عنه، حيث يفترض أن تبدأ قصّة الحب. يقف فتاي المتحل «حمو» ويظل واقفا حتى يتحقق وجوده كاملا، وأضيع أنا في الدروب الملتوية فيما تطوف ظلال ساطعة حول نظرته تلك؛ إنها على أية حال ليست نظرة الفارس المنتظر بل نظرة السفاح الواثق من قدرته على إبطال كلّ النهايات السعيدة!

## - 3 -

(ذات الصدر العالي).

هذه العبارة تستعملها عادة «بهية» خلال وصفها لأمي، فهي تقول مثلا:

"أمك بلغت الأربعين وبقي صدرها يتسع ويعلو ويهتز مع كل خطوة تخطوها"، وتضيف:

"كما أن مؤخرتها تبرز وتمعن في بروزها، حتى لكأنّها تريد أن تصرخ بأعلى نتانتها؛ أُنظروا.. أُنظروا.. إنني مؤخرة!".

والواقع؛ إن أمي ليست سوى صدر ممتلئ.. ممتلئ بأكثر مما ينبغي له، ويزداد امتلاء، خلال عودتها منهكة، أوقات المساء، فهي تحاول أن تسرع في مشيتها، كما اعتادت دائما. تحاول وتحاول.. لكن سببا ما لا تدركه، يمنعها من ذلك؛ إنه الإرهاق.

يا لإنسان مرهق لا يكتشف أنه كذلك!

أظن أن أمي لا تملك ذرة واحدة من الخبرة في مجال التوازن وتوزيع الطاقة، ولأنها كذلك تدفع بصدرها إلى الأمام، لتشعر أنها تتقدم. وتستمر

في هذا الوضع المزري مما يضفي عليها مسحة غباء، أو على الأقل.. هيا نستعمل عبارة أخرى لخالتي بهية؛ "تبدو أمك سهلة المنال"!

بالنسبة لمن؟

طبعا للرجال المكبوتين، المنكوبين جنسيا، معدومي المواهب؛ تراهم يجلسون أوقات المساء -في أماكن مفتوحة حد الاختناق- بها لافتة مكتوب عليها عبارة "أشغال عمومية". وفي الجانب الآخر أنصاف براميل؛ عددها ثلاثة. تم إحراق القمامة بداخلها فهي على الدوام ترسل خيوطا من الدخان، وثمة كلب أجرب يدور حول آلة ضخمة صدئة مركونة جانبا.. وعند انعطافة السور المتداعي تنطلق موجات هوائية لا مصدر لها، تثير -في اللقطة الأولى- دوامة صغيرة من الغبار، وفي اللقطة الثانية ترفع -إلى الأعلى- كيسا بلاستيكيا، وتتركه يدور في حركة حلزونية متشنجة.. ترفعه بلا طائل.. وأمي.. هي الأخرى ترفع صدرها وتدفعه إلى الأمام، تاركة مؤخرتها تواصل تخلفها عن الركب، وهذا كما تعلم يا «بيبي» هو سرّ اكتشاف عبارة ذهبية يردّدها الجميع: "الأنوثة الصّارخة"، أي تلك الأنوثة غير القابلة للتعقّل، فهي ذات لسان طويل؛ تصرخ وتصرخ حتى يخرج الناس ويشهدوا أنهم وقعوا أسرى.. ولا حول ولا قوة إلا بالله.. وقعوا في شراك فتنتها. كيف لا وقد تجلّت هذه الأنوثة دفعة واحدة مع أول صرخة، وحدث الانهيار الكبير، فلا مجال إذن للتروّي في انتقاء أجود ما فيها.

إن نظرة واحدة تلقيها على صورة أمي مع والدي يوم زواجهما تجعلكَ على يقين بأن علاقتهما لم تبدأ بالحب وما كان ينبغي لها ذلك، بل بدأت كعلاقة شهوانية صريحة؛ نتوء يطبق على تجويف ويملأه، بينما كان هذا

التّجويف قد أعطى إشارات مسبقة أنه مهيأ للامتلاء. وهكذا فلا حاجة لأي مشاهد إيمائية.. نظرة محمومة من هنا تتلقى غمزة موافقة من هناك.. وهذا ما يعادل مدلول عبارتين في لغة الكلام مفادهما:

"كم أشتهيك يا هذي الفتاة العصيّة"!

"مادمتَ لا تكفّ عن اشتهائي يا هذا الفتى الصّبور.. إذن هيا بنا".

وهكذا؛ هوووووب! طار الاثنان من الشارع.. هوووووب.. حطّ الاثنان على السرير.

حطا عاريين على السرير أو على ظهر حصان. بل ربما على حصيرة، ومحتمل جدا أنهما كانا واقفين في مرحاض أضيق من اللازم؛ أضيق من أن يسمح لاثنين أن يتعريا جيدا.

واحد.. اثنان: سحاب السروال ينزل.

اثنان ثلاث: الملاءة ترتفع. هيا؛ هيا ابدأ التشغيل.

هل تظن أنهما استغرقا الوقت الكافي في عملية الأخذ والرد؟

في الواقع لا أهمية للوقت ما دام لكل طرف حسابه الزمني الخاص: النتوء يحفر عميقا ويناضل للوصول إلى المنبع، بينما يعمّق التجويف قابليته لتلقّي الضّربات تباعا، على أمل أن تكون الضَربة الموالية هي الحاسمة لجعل النبع يتدفق بسلاسة. إن هذا النوع من الانسجام بين اثنين ليصل من الكمال درجة عالية بحيث يكون كل واحد على دراية تامة بما يجب القيام به دون الحاجة لاستدراج الآخر أو التلميح له أو التمعّن في مشاعره. وهذا يشبه على نحو ما حبيبين في مشهد سينمائي يؤدّيان على السرير دورهما الذي تدرّبا عليه جيدا.

أقول: مشهد سينمائي؟!

ما أتعس هذا التّشبيه خصوصا إذا تخيلنا أمي وهي تطلق هتافات حَماسية من فرط اللّذة ظنّا منها أنّها تتأوّه. أيكونُ على الحكومة أن تنشئ مدارس لتدريب النساء على بلوغ المستوى الأعلى من اللاوعي، أثناء هزّات الجماع! أظن أن عليها أن تفعل ذلك. ما رأيك أنت؟

إذا حدث هذا فلا شك أن الحكومة ستنفذ هذا المشروع، مستعينة بجيش من الخبراء تقوده خالتي «بهية» باعتبارها ملمة بلائحة من المعارف الحقيقية والحِكم والتدابير التي لا غنى للدولة عنها.. إن «بهية» خبيرة بكل شيء؛ خبيرة بالحب والرّجال والعطر والزّينة.. بالتوليد والطبخ والرياضة، بالتنظيف والأزياء والطب النبوي، بالرقص والدّلْك والحلاقة.. وخبيرة بالرياح وتقلّب الفصول والغش في الانتخابات وتفسير الأحلام وقصّات شعر العانة.. والأهم من كل هذا أنّها خبيرة بمشاهدة الأفلام، والتلصّص على حياة الأبطال خلال المشاهد المعروضة على الشاشة وحتى خارج الشاشة.

إن الحياة في نظرها مجرد شاشة، يمثل الناس داخل إطارها أدوارهم المطلوبة منهم، لكن فئة قليلة فقط هي التي تحصل على أجر مقابل تلك الأدوار. وعندما تقوم «بَهيّة» بتأليف مشاهد مضحكة عن أي شخص كان، فإنها تفعل ذلك بروح مخرجة سينمائية محترفة. أو كاتبة سيناريو ذات شأن؛ لقد قضت نصف حياتها أمام التلفاز تتابع بحماس شديد اللقطات المتلاحقة؛ لقطات سريعة وأخرى بطيئة.. أحداث وأحاديث.. بكاء، رقص وضحك.. مطاردات.. صيحات.. عنف.. توجّس.. جماهير تتراشق بالحلوى.. مجرمون يطلقون الرصاص في كل اتجاه.. صيادون.. بغايا..

جنود.. مغامرون.. متسلقو جبال.. كلاب تتميز بِحس مدني عال.. هنود حمر يتدافعون.. طين.. أسوار وحقول شاسعة مُمْتدة إلى أقاصي المغيب.

أحداث لا نِهاية لها وقصص مسلّية وأخرى مُسِيلَة للدموع، وهناك قصص مبتذلة، وقصص بائسة، قصص سوداوية، قصص خيالية، وقصص خالية من الحبْكة لكنها متخمة بالصور المثيرة التي تبدأ عادة بمنظر صفحة رخام تستقبل حرير قدمين ناعمين. وهووووب.. هكذا.. صعودا إلى اليد.. اليد التي تزحلق الشّعر من جهة الكتف الأيْمن إلى الأيسر بحركة تموجية تتجاوب معها العينان بينما القرط ينوس ثمّ تلمع اللؤلؤة التي في القرط، تلمعُ فيحدثُ تعتيم خاطف متعّمد يطال بصر الممثّل الذي يتلصّص من فتحة الباب. يتلصّص على الممثلة طبعا وهي وراء الستارة الشفافة في الحمام، عارية. الممثلة عارية جدا لكنها لا تدري أن عيني الممثل وجميع العيون مصوّبة نحوها، بينما هي تضع الإسفنجة المصبّنة بين نَهديها ثم تضغطها برفق فيهيج البياض المفقّع، وتفلتُ من بين أصابعها رغوته التي سرعان ما تتّخذ مَجراها إلى الأسفل، مرورا بالسّرّة ثم قوس العانة و...

بعد ذلك يكون الاثنان؛ الممثل والممثلة واقفين.. حيث يمكن رؤيتهما من وراء السّتارة في غرفة النّوم. وفي هذه الأثناء تسقط على الأرضية الخشبية فوطة لا يزال بياضها يحتفظ بشكل الجسد الذي كان ملتفّا به، ثم تظهر اليدان الخشنتان حول الخصر المحاط بِنعَمٍ لا تحصى.

تنطلق موسيقى حارّة، حارّة بحيث يمكن لمسها.

الممثلان يسبحان الآن ويُنغّمان حركاتهما، يسبحان في مياه غائبة عن الوعي، أو لنقلْ إنّهما في حالة طيران أرجوحي داخل حلم وردي، والحلم

عادة يحدث بالتصوير البطيء، أقول، بطيء، لكنه في الواقع ليس بطيئا كما أنه ليس سريعا.. إنه؛ سلس.. تلقائي.. وشديد الدّقة.. بل إنه أكثر مثالية من ذلك الطّيران الذي لا يمكن تحقيقه إلا خارج نطاق الجاذبية.

ومع ارتفاع الوتيرة يصبح الطيران رقصا ملائكيا ضاجّا بالتّدفق والأحاسيس السّارّة: الوجه للوجه، الصدر للصدر، البطن للبطن ويتصادم قوسا العانتين فتحدث رشّة ندى خفيفة.

في مثل هذه الحالات لا وجود لاتّكاء على المرفق، فكل الحركات دائرية، والتّربيت دائما يبدأ على الجانبين، التمدّد يكون وفق إيقاع محسوب، الاستلقاء على الظهر يعطي انطباعا بأن حواف السرير تلاشت، السرير صار غيمة، والعرق على الجلد الطري أوحى للسماء أن تمطر.

واحد، اثنان، ثلاثة، هزات متتالية، آهات محمومة، أظافر تنغرس في التربة المعشبة، انزلاق، صعود، هبوط، تداخل، أنفاس متلاحقة، واليد الخشنة مرة أخرى تدَلّك حول بؤرة التوتّر.

الرعد يدمدم، يا إلهي، الرعد قادم من بعيد، مسرعا، حتى لا تفوته لقطة بلوغ الذّروة. وفجأة يا «بيبي» تحدث التماعة برق قوية تَهتزّ لها أوصال الطبيعة. الملاك الذكر يشبع ملاكه الأنثى ويسترخي الاثنان، لكن المتفرجين يشعرون في نِهاية المشهد بتوتّر شديد. هيا إلى الحمام؛ سرْ.

خالتي «بَهيّة» لا تذهب إلى الحمام ولا تتوتر. إنّها في نِهاية كل مشهد من مشاهد أيّ فيلم، سواءً كان من نوع الأفلام العاطفية أو كان مجرد سلسلة مغامرات، يقوم بها أبطال شجعان داخل غابة كثيفة، تنتهي غالبا بموت بعضهم ونجاة بعضهم الآخر. سواءً كان كذلك أو كان فيلما جنسيا مؤشّرا

عليه بمربع أحمر تظهر فيه بطلة لا يَشك أحد أنّها سليلة عائلة محترمة، لكنها تمارس- بلا رحمة وأمام الجميع، أقذر أنواع المضاجعات -مع رجال من كل لون وصنف. أقول؛ في نهاية كل مشهد تتفضّل خالتي «بَهيّة» مشكورة بإعطاء ملاحظات غريبة. وأحيانا تخبرنا عن أمور تعتقد أنّها حدثت ولم يسمح أصحاب الفيلم بتصويرها، كما أنّها ترصد أخطاء وقع فيها المصور وأخطاء تم إخفاءها بذكاء، وقد وصل بِها الهوس أن صارت تتحدث عما يدور في ذهن الممثل وعن نواياه وحالته النفسية ومزاجه ورغباته التي لم يعلن عنها.

في واقع الأمر، أنا شاهدت العديد من الأفلام غير المحتشمة مع خالتي «بَهيّة»، وكان هذا بطلب مني. وتطورت الأمور فيها بعد حتى صار بيني وبينها كلمة سر ألقي بها على مسامعها، فتفهم أنني أريد مشاهدة اللقطات الماسخة:

إنها كوارث! كوارث يا «سونيا» تحدث على السرير أو على ضفة نهر في مساحة من العشب ممتدة ومنبسطة، كوارث وأنت يا بنيتي لا تزالينَ بعد صغيرة.

# - 4 -

اسْمعْ يا «بيبي»؛ إن ما لا يحدث في هذه الحياة إلا نادرا هو أنْ نلتقي. وها قد التقينا؛ أنت الآن تحمل رتبة "مؤرّخ محترف"، وأنا أجلس أمامك.. أسرد عليك حكايتي، على أمل أن تنجح في تدوينها، ثم طبعها ونشرها في كتاب أنيق، سيأخذ مكانه ذات يوم ضمن سلسلة كتب التّاريخ الهامّة. لكن، ماذا لو أن زوج أمي وجد كاتبا لا يقلّ موهبة عنك، واتّفق معه على تدوين هذه الحكاية ذاتها، من وجهة نظر زوج أمي..؟.. ترى؛ من منّا سيحصل على تعاطف الجمهور وتأييده.. أنا أم زوج أمي..؟

أظن أن الجمهور سيميلُ إلى النص الأكثر إقناعا وتأثيرا، بغضّ النّظر عن قرْبه أو بعْده عن الحقيقة. إذنْ فلتجتهدْ يا «بيبي».. اجتهدْ لتفوز على منافسك المفترض، وستفوز حتما لأنك معي.. معي؛ أنا «سونيا» الحقيقية. وإن شئت ألا تكون معي فستكون أحمق.. أحمق وغير حقيقي. والأسوأ من ذلك أنك لن تنتقل من طبقة إلى طبقة أعلى. مثلما ينتقل جميع الأبطال في هذه القصّة.

«الدرّاجي» كان صاحب محل صغير يقدّم جميع الخدمات لجميع الزبائن، لكنه نجح في الانتقال إلى طبقة أعلى؛ صار رجل أعمال مهم يؤسّس شركات

كبرى ثم يقوم بحلّها في لمحة بصر. صارت له طموحات جليلة في عالم السياسية؛ ينصّب هذا ويعزل ذاك، يقدم مساعدات لأشخاص مرموقين في حزب «الجبهة»، ومع الوقت حمل لقب "سيد الرجال".

«الكاتم» كان في السابق رياضيا، ثم اشتغل في سكّة حديد، إلى أن انتقل إلى طبقة أهم، بعد أن حمل لقب "سائق شخصي" ضمن فريق حراسة يحيط برجل ذي مكانة عليا جدا في الدولة. ولم يكن يعمل بصفة رسمية، أي أنه لا يحصل على أجرته من الحكومة، بل يحصل عليها من جيب ذلك المسؤول الهام الذي كان يثق بـ«الكاتم» ويمنحه كل الصلاحيات لإدارة شؤونه الخاصة. هذا الكلام دقيق جدا يا «بيبي» فقد أخبرني به «نجيب دواوة» الذي التقيته يوم 11 ديسمبر 1997، بمكتبه، ووعدني أن يحصل على صورة للكاتم، وقد حصل عليها بالفعل ووضعها أمامي في اليوم الموالي؛ صورة يظهر فيها عدة أشخاص؛ ثلاثة نساء وبعض الرجال من بينهم «الكاتم» وفي الوسط شاب تم إخفاء وجهه بغشاوة حتى لا تظهر هويته.

لست بحاجة لمزيد من الذكاء يا «بيبي» حتى تعرف أن «الدرّاجي» هو من حرّف الصدف وحوّرها وفق إرادته، ثم انسحب بعيدا.. ليس بعيدا جدا.. ربما يكون قد قام بانعطافة عبقرية وبقي يتفرج: أُنظرْ جيدا.. ها إن الأمور تسير على ما يرام.. تسير -بكل سلاسة وتلقائية-.. أو بتعبير آخر -كما في أفلام الجوسسة- الهدف يتقدم في الاتجاه الصحيح، بتمهل وسكينة، لا يحيد عن مساره؛ الهدف سيصل إلى هناك! إلى النقطة المعلومة، تلك التي عيّنها الدراجي مسبقا، الهدف سيصل حتما، في الوقت اللازم، حينها فقط سيحدث ما يجب أن يحدث، يا للصدف الذكية التي استدرجتني إليه! بينما كان هو يراقب عن كثب، فيما لا يبدو عليه أنه يتصرف بقصد محسوب، لقد

وصلت في الوقت المناسب، ورآني هو في الوقت المناسب. وبينما كان ينزل من سيارته التي أوقفها على الجانب الآخر من الطريق، نادى علي: «سونيا.. سونيا»؛ هكذا.. ثم بصق بخفة ومهارة -حتى لا أقول باحترافية- مستعملا كفه كجدار صد ليتفادى ارتداد الرذاذ على وجهه، وهذه الحركة عادة يقوم بها رجال عمليون، يتباهون بسمنتهم، غير المعيبة طبعا. و«الدرّاجي» رجل عملي، علاوة على أنه يبصق جيدا، لكنه بعد لم ينجح تماما، في إظهار منحنى الرفاهية فوق حزامه، رغم ذلك.. هه يمكن القول إن بطنه مؤهلة أن تتكرش ولو قليلا، هذا ما يبدو على هيأته وهو يتقدم نحوي. مرت نسمة هواء قوية فطيرت ربطة عنقه. أدار وجهة قليلا ثم قام بحركة مرحة لم أتبينها جيدا. بمجرد أن أزحت شعري عن عيني وجدته أمامي.

نسمة الهواء القوية أنهت مرورها غير المتوقع؛ شعري مرتب وربطة عنقه الحمراء مثبتة جيدا.

الآن فقط يمكن أن أتفاجأ: "الدرّاجي أنت هنا!".

بادرت بمد يدي له؛ يدي بالكامل مددتها له! فقط، حتى لا أقول صافحته.

"أنا محظوظ أني وجدتك الآن"!

في موقف كهذا تكون النظرة المتمنعة معلقة تحت الجفن، بينما تتأرجح بين الشفتين ابتسامة خضوع مائلة، مائلة إلى حد أن «الدرّاجي» مال معها، مال قليلا، وكانت يده ملجومة وهو يشد على يدي بحرارة زائدة، تنم عن اعترافه المبكر ببلوغي مرحلة النضج الكامل.

تخيل المنظر، تخيله لتفهم. إنها طريقة خاصة تجعل المصافحة أكثر من مجرد سلوك يعتاده الناس دون أن يكونوا قد تدربوا عليه. إنني أتحدث

عن المعاني التي تتحقق من انطباق يد على أخرى، وتكون هناك نظرة مسددة جيدا وابتسامة عشوائية وكلمات قصيرة متبادلة. هذه طريقتي أنا، إن شئت جربها، أو سأريك كيف أفعل، لكن قبل ذلك، افهم جيدا هذه القاعدة: المصافحة فعل يخص اليد وحدها، طبعا اليد بملحقاتها الأساسية؛ الكتف، الذراع، الساعد، أُنظرْ، اليد، هكذا، اليد وحدها، بمعزل عن باقي عضلات الجسم، بل حبذا أن تتحرك عضلات الجسم إلى، إلى الوراء، كلا، ليس إلى الوراء، لاحظ الوضعية، كل الجسم ينسحب، ينسحب، تاركا اليد تمتد في الهواء، الجسم في هذه الحالة لا يبذل نقطة جهد واحدة ليشعر أنه منسحب، أو يكون منسحبا حتى دون أن يشعر، ليس من السهل تلقين هذه الأمور، إنها رياضة معقدة.

جرب أن تصافح بهذه الطريقة مئة مرة، وستنجح في الأخير، قف أمام المرآة، دع جسمك ينسحب واترك يدك تصافح الهواء، إذا كان جسمك يتعمد أن ينسحب، فستحصل على مصافحة بها نوع من الـ...

أنت تعرف النساء المتعاليات، عندما يقمن بفعل المصافحة، تتحرك عضلات أجسامهن، أو توحي بأنها تتحرك، ولو رمزيا إلى الخلف، أقول عضلات أجسامهن، كم هو مضحك هذا التعبير، إذ لا وجود لعضلات في أجسام هذا النوع من النساء، بل لا وجود لعضلات في أجسام النساء أصلا، ثم إن المتساليات لا يصافحن، المتعاليات هن النساء المرموقات في أفلام السينما، وخاصة البالغات منهن سن اليأس، أو اللواتي فقدن أزواجهن واكتشفن فيما بعد أنهن على وشك أن يفقدن البيت وصندوق المجوهرات والمزرعة وفريق الخدم، أظن أن بعضهن يعطين أيديهن للمصافحة بطريقة تغلب عليها عادتهن المعروفة عندما يأمرن أحدا بالانصراف.

لو أن امرأة من هذا النوع صافحتك -وهذا لن يحدث أبدا- ستشعر بأنها تقول لك على نحو ما: "انصرف"، أقول لن يحدث أبدا! لأن هذا النوع من النساء سيظل من نصيب الرجال الأذكياء، أذكياء إلى حد أننا لا نراهم إلا في الأمسيات الداكنة، يرتدون معاطف ويعتمرون قبعات سوداء، ولديهم دائما علب معدنية، خاصة بحفظ السجائر، يفتحونها وقت اللزوم.

هل هم حقا أذكياء؛ لمجرد أنهم يظهرون أمام بوابة عمارة قديمة، حيث يكون على الجانب الأيسر صندوق بريد، ناهيك عن منظر الحمام الدّاجن في الساحة المبلطة. إنه منظر مهم جدا، يوحي بأن طلقة ما ستدوي، ليطير الحمام، وهذا كل شيء؛ ما رأيك؟

أقول هذا لأقودك إلى فكرة خارقة، مفادها أن مهنة المحقّقين هي البحث عن الحقيقة، وهذا ليس بالأمر الهين، فلا أحد بوسعه أن يحصل على هذه التسمية إن هو لم يتدرب جيدا، "محقّق"، يا للهول، إنه محقّق، رجل خمسيني بملامح خاصة، تنجذب إليه كل النساء. لكن، لا امرأة تجرؤ أن تقول له: "إنك وسيم". وإذا سمح لإحداهن أن تقول له ذلك، فبلا شك سيتلقى قريبا رسالة لبقة، تنهي مهامه المهنية على الفور، وتحيله إلى التقاعد؛ فلا يكون بعد ذلك مساء داكن، ولا عمارة قديمة، ولا صندوق بريد، ولا خطوات رزينة على السلم ولا جرس باب، ولا عين سحرية، ولا حمام يطير.

عندما تقول امرأة لرجل: "أنت ذكي"، فهي تعفيه بلباقة من صفة الوسامة. ولكن المرأة لا تمتدح رجلا لوسامته إلا إذا تأكدت أنه لم يكن ولن يكون في يوم من الأيام ديكتاتورا نازيا، أو قائدا عسكريا فذا، أو عالم فيزياء، أو لاعب شطرنج، أو دماغا في العمليات الحسابية، أو مـحـ..ـقـ..ـقـ..ـا..

## - 5 -

أتعرف؟! إنّ أمّي لم تذكرْ والدي يوما إلا وبكتْ؛ فهو -كما تقول- لم يعاملها أبدا بسوء، بل إنّها تعتبره زوجا مثاليا وسيّد الرجال. أحبّها واحْترمها إلى أن تدخّلتْ قوّة الحسد ففرّقتْ بينهما، ولم يبق من أمل لها سوى أن تلدني. وكان القدر رحيما بها، فحقّق لها ما أرادتْ بخروجي من بطنها إلى الدنيا، لأصبح -فعليا- «سونيا»، في 29 أوت 1980، يوم ميلادي طبعا.

لقد أصبح هذا التاريخ بمثابة عيد نصر، تحرص أمي على إحيائه كلّ سنة، ربما من أجل نفسها لا من أجلي، ولا أدري ما إذا كانت في المرة السابقة قد أَحيتْه كالمجنونة بمفردها، بعد أن ودّعتها وغادرت المنْزل إلى غير رجعة، لألتقيك في يوم لم يكنْ بالحسبان ونصبح شريكين.

كانت أمي تحيي عيد ميلادي كل عام، وتستعيد تفاصيل ولادتي، وأحيانا يعود بها الحنين إلى مقتبل العمر: ذكرى لقائها بوالدي.

يا لأمي وهي تستعيد القصص المشوّقة والأحاجي، وتستحضر الماضي الجميل على ضوء الشّموع!

«بيبي» أنصحك بإبعاد الشموع عن أمي في نصك، احرص على التقاط صور لها تظهر شخصيتها الحقيقية، واجعل هذه الصور متسلسلة تتحرك، طبعا ليس كالصور المتحركة، أنت تفهم قصدي، تتحرك، على الأقل معنويا داخل "السياق العام"، بالمقابل اترك أمي داخل إطار هذه الصور جالسة. منذ ولدتُ، لم أرَ أمي إلا وهي جالسة؛ تمضغُ العلْك أو توبّخ الجميع، تفرّك شعرها أو تتكئ على جنبها معرّضة أسفل جسمها لأشعة الشمس. ولم أرها إلا وهي تعدّ النّقود كقابضة في مبولة عمومية، أو تضع الأحمر الصارخ على فلقتي شفتيها، ثم تضغط عليهما وتتوجّه إلى المرآة. وكانت دائما تفتح فمها. هل رأيت أمي وهي تفتح فمها؟ أعني تتكلّم. هل رأيتَ كيف يخرج منها الكلام؟!

دعني أخبرك أنّها لم تعد تملك سوى أن تتكلم، بعدما أفقدها «حمّو» بعض أسنانِها العلوية، قبل أربع سنوات، بالضبط يوم أفقدني أنا كامل عذريتي، فلم أعدْ أملك سوى أنّني من برج العذراء، بينما اسْمي لا يطابق جسمي.

سأحكي لك هذه الحادِثة لاحقا حفاظا على "منهجية السّرد"، تلك التي اتفقنا عليها. أنا سأحكي، وأنت ستكتب، وسيعرف الجمهور بعد ذلك ما فعله بي «حمُّو» في أحد أيّام الأسبوع الثاني من أوت، شهر الأخطاء السّبعة؛ هكذا أسمّيه. وكم يرعبني أنّني في أوت من هذه السنة أبرمت معك اتّفاقا بموجبه أكون أنا جاريتَك وأميرتَك وتكون أنت كاتب سيرتي. وكم يرعبني فيك أنّك -أنت بالذّات- من مواليد هذا الشّهر الذي طالما ارْتكبتُ فيه أفدح الأخطاء، وتعرّضْت فيه للذلّ والمهانة. وطالما ذهبتُ في هذا الشهر الخطأ، إلى المكان الخطأ، والْتقيتُ الشّخص الخطأ وجعلته يخطئ في حقي. إنني بكلامي هذا لا أعني إلا قاتلي «حمُّو» ولا أبرئ نفسي،

فقد كنت شريكته في الجرم لكوني قبلتُ أن أكون قتيلته. لا أدري، ربما آذيت نفسي لأسبّب قدْرا من الألم لأمي، التي ما إن أبلغتها بها حدث حتى هرولتْ إليه، حاملة سكّينة المطبخ لتطعنه، لكنها عادت إلى البيت ليلا دون سكّينة ودون أسنان. وصارت فيما بعد لا تكفّ عن الكلام. بينما لا أكفّ أنا عن الضّحك. أضحك، أضحك دائما، حتى يتبلّل فخذاي، خصوصا حينما تناديني أمي من بعيد:

"شونيا، شونيا"..

بووووه.. هل رأيت كيف يخرج منها الكلام؟! أعني هل سمعت كيف تخشخش اسْمي؟!

أنت تعرف أمي. قلْ لي إذن، أيعقلُ أن أكون -أنا التي أستكثرُ نفسي على الدنيا- أيعقل أن أكون ابْنتها وأن تكون هي من أطلقتْ علي هذا الاسم؟!

لقد أخبرتني أنّها نادتْني به بينما كنتُ لا أزال مجرّد مضغة في رحمها، ذلك أنّها تمنّتْ أن تنجبَ أنثى أشبه ما تكون بي. تمنّتْ، ثم سوّلتْ لها نفسها أن تثقَ بأنّ أمنيتها ستتحقّق بالفعل. وحين دفعها الوحْم إلى دفن رأسها في حوض التواليت، أقسمتْ بأنْ ليس في بطنها إلا تلك التي ستولد وتنمو وتترعرع، إلى أن تصبح على ما هي عليه أنا الآن، وقد أصبحت بالفعل، وتحقق لأمي ما بشّرتْ به نفسها، مثلما تحقّق فيما بعد ما أنذرت به زوجها، من أن تكون له علاقة بصاحب محل، بينما ظل زوجها ينكر ذلك بشدّة، طيلة سنوات، ينكر وينكر ولا يتعب من الإنكار، مستعينا بحركات تذللية مزرية تثير شفقة التراب عليه، يؤديها أمامها. في الواقع لم يكن يجرؤ يوما أن يواجهها وهو يدافع عن نفسه، بل كان يقف وراءها ككلب أجرب؛

ويستمر في إلقاء ما بجعبته من همهمات مخاطية وسعال، وكلمات لاهثة لا يُسمع منها إلا عبارة: "يا الرّب.."! التي -كلما بلغ الحد الأقصى من اليأس المفتعل- يطلقها ليجدد أنفاسه بها ويضمن حصوله على نظرة من أمي تسددها نحوه من وراء كتفها. وتكون هذه النظرة عادة باردة، باردة، لكنها على أية حال نظرة، فهي إذن بالنسبة له أفضل من لا شيء، أو لنقلْ أفضل من أن تكون متبوعة بسيل مفاجئ من اللعنات والتوبيخات، وذلك الكلام المجاني الموجّه للسقف على أنه السماء السابعة:

"يا ربّ ماذا فعلت أنا حتى أجازى هكذا؟".

وفي حال ألقتْ أمي على مسامعه هذه العبارة المشؤومة فستكون قد ألقتْ أيضا ما بيدها على الأرض. ولا يكون بيدها في هذا الوقت ما يصلح لإلقائه على الأرض إلا صحن رخيص الثمن. تشرررااااااااااخ: صوت تكسير، فقاقيع صابون، وينتهي المشهد بأن ترفع أمي طرف ثوبها وتجفّف به يديها، تجففهما ثم تمرّرهما على مؤخرتها وتقول لمؤخرتها:

"هيا اتبعيني سنخرج".

تتوجه أمي إلى الباب وتخرج دفعة واحدة بكامل لحمها وشحمها وعظمها، ويكون لحركتها أثناء خروجها صوت اللطخة الهائلة، هائلة من حيث الصوت فقط. تخرج أمي تماما وتبقى وراءها ضوضاء تتلاشى، ويبقى زوجها في المطبخ يجمع قطع الصحن المكسور وينظف الأرضية. وبعد برهة أقترب منه أنا فأسمعه يقول:

"يا ربّ، أقسم أني سأمدّ رجليّ أمامها وأدعها تقطعهما بالسّاطور إذا كنتُ قد تخطّيتُ بهما عتبة ذلك المحل الملعون".

أنت رأيت زوج أمي ذات مرة، هل تذكر؟ كان برفقتها يوم جاءتْ تسألك عني فأخبرتها كاذبا بأنني أعمل لديك..

هه.. نعم، هو بالضبط، ذلك الأشقر الخبيث، الذي كان دائما وراءها ككلاب المحطات المهجورة. كان دائما يمشي لاهثا وراءها، يمشي ويمشي، وهي أمامه، لكنها لم تكنْ تمشي أبدا؛ تخيّلْ! من المرجح أن أمي عثرتْ عليه في مكان ما بعد رحيل والدي من حياتها، وقد يكون شيخ البركة ساعدها في ذلك.

عندما بلغتُ السّادسة من عمري أخذتني أمي إلى المدرسة وتزوجته. صار يمسكُ بيدي ويصحبني إلى صفي كما يفعل أبٌ فاضل.

وتنفيذا لأوامر أمي، كان لا يغادر حتى يطمئن على أنني أخذت مكاني في الطاولة الأولى من القسم، وغالبا ما كان يتبادل مع المعلم «دحمان» كلمات قصيرة ينهيها بهزة رأس خجولة ثم يلوّح لي وينصرف.

في أوقات خروجي أجده بانتظاري مكوّما على رصيف محلّ «كولومبيا» الذي يقع مقابلا لبوابة المدرسة الابتدائية..

ماذا!.. اسمها! لا يهم الاسم، ربما كانت -مثلا- تحمل اسم شخصية فريدة؛ شهيد أو مجاهد أو عالم فيزياء، أو ربما تحمل اسم رجل ذكي، بغض النظر عن وظيفته؛ ذكي بمعنى أن التاريخ شهد له بذلك.

أنت لست ذكيا يا «بيبي»، إنك؛ تقريبا في غنى عن الذكاء. لا تتوقف عن العمل، طيلة الوقت، حتى تنجز أفضل ما يمكن، وتتفوق في النهاية على الأذكياء، بل حتى على الذين بلغوا الحد الأقصى من الذكاء! وأغلبهم يرتدون، (هكذا أتخيلهم)؛ يرتدون سراويل قصيرة واسعة ويضع كل

واحد منهم نظارة طبية تمتد من أعلى حاجبه إلى حدود البقعة الموردة على خده! أهي موردة من شدة الخجل أم البرد، أم لأنه يرافق فتاة بلهاء ويعيش في مشهد سينمائي قديم، بضواحي مدينة ضبابية.

ذوو الذكاء الخارق ينقصهم الذوق السليم في اختيار اللباس، ولا يمتلكون حس الجرأة، لهذا تراهم ينسحبون إلى الخلف، بعد أن يكونوا قد انتخبوا أحدهم ممثلا لهم. وعند أول فرصة سانحة، يتزوج هذا الـ (أحدهم) حفيدة صاحب الحانة، تلك التي من غير نوافذ، لكن لحسن الحظ أن بابها مطلي بلون الروث. وهي عادة ما تكون كذلك -أقصد الحانة- لأن مالكها من قدماء المجاهدين، ويفترض أن الله رزقه بحفيدة بلهاء، تفوز في نهاية الأمر بزوج خارق الذكاء، مثلما أفوز أنا -لا بزوج يرتدي سروالا قصيرا واسعا- بل بكاتب حاول -في الماضي- النيل من ذبابات يأس حطت على أنفه طيلة سنوات، وعندما ترك نفسه لي، اقتحمت أنا عليه حياته، فتغير كل شيء لديه؛ وصار (أنت).. كما أنت الآن! في هذه المكان المضيء، حيث لا روث يحرض الذباب على أنفك الشامخ.

أنت لست ذكيا، لكنك مرشح أن تكون -ذات يوم- شخصية فريدة، ويُوضع اسمك مذهّبا على مستطيل أسود، أعلى بوابتها، أقصد؛ تلك المدرسة التي كنت قد تلقيت فيها كل المسائل الحسابية من المعلم «دحمان». إذا حدث هذا -بعد وفاتك ولو بعشرين سنة- وصارت تسمى، رسميا؛ (مدرسة محمود الساهي الابتدائية) بدل أن يسميها الجميع (مدرسة حي اليتامى)، أقول إذا حدث هذا، فلا بد أن الحكومة ستصدر قرارا بشأن ذلك المحل الملعون، المكتوب في أعلاه -حتى يومنا هذا- بخط عريض مائل "خدمات الهاتف"! أظن أن الحكومة ستهدمه، إكراما لك أولا،

أما ثانيا؛ فلا يليق أن تكون مدرسة تحمل اسمك، تفتح بوابتها على منظر مشبوه يسميه الجميع محل «كولومبيا»، مع احترامي للشعب الكولومبي الشقيق، في ظل هذه الظروف العصيبة؛ عصيبة هذه؛ أليست بذيئة يا «بيبي»؟!

أقول؛ إنه لكل الخدمات، المحل وليس الشعب الكولومبي طبعا! لكل الخدمات إلا ما يتعلّق بالهاتف. هذا ما عرفته فيما بعد. وفيه أيضا يباع كلّ شيء: أدوات التعليم والزينة، ومسحوق ياكصا (مزيل الشعر)، ومجلات (فام دو جوردوي)، العملة الصّعبة، صور النّجوم، العطور، البطاطا المقلية، أشرطة الأغاني، الألبسة المستوردة وأفلام الفيديو، والأهم من ذلك أنّه ملتقى شباب الحي وأغلبهم من باعة المخدرات، والشواذ والقوادين وتجّار المسروقات. هكذا كانت تصفهم أمي التي طالما شددت في تحذير زوجها من تخطي عتبة ذلك المحل، أو الاقتراب من صاحبه، بينما كان هو يقسم بأغلظ الأيمان بأنْ لا علاقة له بأي كان في حي اليتامى. لكن أمي تكذّبه ولا تصدّق إلا قلبها، ثم تدع للأيام أن تثبتَ ذلك.

لدي ملاحظة أريد أن تضعها على جانب الصفحة: محل كولومبيا سيشهد، في فصل لاحق من حكايتي، حدثا يبدو في ظاهره بسيطا، لكن، سرعان ما تتطور الأمور وترتفع ذبذبات ذلك المنحنى -كما في شاشة رصد أحوال القلب- ترتفع وتتسارع حتى تلامس المنطقة الحمراء! وهكذا -بكل أسف- تحترق الشاشة وترتسم خيبة الأمل في الوجوه!

وجوه من؟ حقا أنا لا أدري!

## - 6 -

ألا ترى يا «بيبي» أنك أصبحت بفضلي رجلا مختلفا تماما. مختلفا، لكنك طبعا لست ذكيا، كما أنني لست بلهاء، وإلا لما كنت دفعتك إلى التفوق على أذكياء القوم دون أن تكون قد خططت لذلك. ستتفوق عليهم، صدقني، وأنا سأطيح بجميع شخوص الوهم في حياتي، وسألتقيك ذات يوم في مكان ما، ويكون كلّ المكان لي. وسأحتفل معك بالصدفة العظيمة التي قادتني إليك أو قادتك إلي. وستكون على الطاولة بيتزا مارغريتا رقيقة ومتموّجة، ويكون الزمن من وراء الزجاج الشّفاف متموّجا، ووجهك متموجا أيضا، مثلما كان وجه «الدرّاجي» يتموّج كلما تحدّث إليّ. أظنّ أنّ عمره الآن أكثر من ثلاثين سنة.

هو الآخر، قادته صدفة ما، لاكتشاف حقيقة ما، فأغلق محله الخاص ببيع وشراء أي شيء لأيّ كان في أي وقت، ذلك أن الظّروف واتته بينما أعطتْ ظهرها للجميع. لقد صار «الدرّاجي» رجلا ذكيا يدير أعمالا حرة جدا وهو لا يخسر الرّهان أبدا. حتى قبل تسعة أشهر كنت لا أزال ألتقيه أحيانا، ولو بالصدفة. كان يسلّمُ علي ويعاملني بمودّة كبيرة؛ يسألني

عن صحّتي وعن أمي، ويعرض عليّ خدماته بأسلوب شيّق. عندما أتحدّث إليه ينصت بكلّ جوارحه، وغالبا ما يقول: "هه حسنا، أنا محظوظ أني وجدتك الآن". ثم يلتفت كأنه يراقب شخصا ما، ويطلق عباراته التي من قبيل: "إن لدينا وقتا و.. و.. و..". مجرد عبارات تنتهي إلى غمغمات و...

يمسك بذراعي: "«سونيا»، أريد خدمة.. هل تتفرغين من أجلي هذا المساء"؟

ودون أن ينتظر إجابتي، يقول: "حسنا، انتظريني ربع ساعة.. في بيتزيريا الأصنامية.. لا.. لا.. بل تلك التي بالقرب من محلات دهموس.. حيث البنايات العالية.. أقصد.. افْهميني جيدا.. بعد أن تعبري شارع كذا.. سيقابلك كذا وكذا..".. وينتهي بي الحوار الأحادي معه إلى الجلوس وحيدة لأكثر من ساعة، على الطاولة المتّفق عليها، في بيتزيريا الأصنامية. وهذا ما حدث بالفعل آخر مرة؛ أظن في 10 أو11 ديسمبر 1997.

الحق أنني لم أختر الطاولة، بل إن الطاولة هي التي اختارتني؛ جلستُ وتأملتُ -ما شاء لي- الأسماك المختلفة، بكلّ ألوان قوس قزح، تتحرك في الحوض الزجاجي وتتوارى أحيانا بين قطع الأخشاب والحصى والنباتات المائية، بينما الإنارة الموزعة بدقة تأسر القلب.

ماذا لو أنني كنت سمكة تعيش بين الشعاب المرجانية الأخاذة، في المياه العذبة؟ إنه حلم راودني وأنا في «الأصنامية»؛ تلك البيتزيريا الرائعة التي كنت حينذاك قد دخلتها لأول مرة، وهي في نظري أفضل مكان لتحمّل مهمّة انتظار شخص، يصعب توقّع لحظة مجيئه. لقد رحّب بي صاحب البيتزيريا يومها ودعاني للجلوس -على طاولة قرب أكبر حوض سمك رأته عيناي- قائلا: "كلّ المكان.. لك".

ابتسمَ بأكثر مما يتطلّب الموقف، وأخبرني أن اسمه «الحاج حيدر»، وأن هذه الطاولة محجوزة دائما لـ «سيد الرجال». فهمت ساعتها أن (الحاج) يعمل منضويا تحت لواء «الدرّاجي». فهو إذن بأمان؛ لا رقابة ولا ضرائب.

كلّ المكان لي، فاهنأْ بي أيها المكان!

تناولت البيتزا على فترات، دخنتُ سيجارتين، تأفّفتُ، دندنتُ أغنية وقلت في سري: أعدّ من واحد إلى ثلاثة، أو إلى ما لا نهاية، ربما يأتي «الدرّاجي».

بدأت العدّ بينما عيناي تتطلّعان إلى ما وراء حوض السّمك حيث تتراقص هالات ضوئية على الجدار المقابل. فما إن أمعن النّظر وأركزه حتى تتماهى في عيني صور مهلهلة تتغير أبعادها وتتداخل، فيهيأ لي حينا أنّها وردة متفتحة وحينا آخر؛ قمر سحري. وفي آخر المطاف يستقر شكلها على وجه متذبذب القسمات: وجه رجل أسمر، رجل نحيف، رجل حر، أعني أنه من النوع الذي لا تنطلي عليه حيل النساء المزيفات، اللواتي يوهمن الآخرين بأنوثتهن.. رجل صقلته التّجارب وهذّبت روحه المحن، فهو غير مبال. يلتقي نساءً كثيرات ويعبرُ دون أيّ اهتمام.

عينه إلى هدف ما وراء كلّ الأشياء الظاهرة.

تمرّ عليه عارضة الأزياء المرحة، تمرّ سكرتيرة الوزير أو المومس الملكية ذات الرصيد المالي المركون في البنك، لكنه لا يبالي أبدا.

كلّ امرأة تلمع يقهرها ويتعالى عليها ويجعلها تشعر بالنقص حتى يفور الدّم في عروقها فتجنّ. وعندما تأتي لترد الفعل يقول لها:

"إنك لا تروقين لي"!

وهكذا تذهب إلى غرفتها في الفندق. تبدأ بوضع المزيد من الماكياج؛ طبقة على طبقة، قناع على قناع؛ أطنان من الأصباغ لا تنتهي!

لكن عقلها سيعود إليها بلا شك فتعترف أمام مرآتها:

"لا فائدة، إنني بشعة من الداخل".

ثم تكتشف في آخر أيام حياتها أن جميع البغال امتطوها، وأنّها لم تعرف الحب أبدا وأن الرجل الذي تجاهلها هو في الواقع رجل حرّ وطيب، متواضع وحنون. يتوسّل لحبيبته المولودة بحي «اليتامى» ليحصل على رضاها، ذلك أن حبيبته هي أيضا حرّة، طيبة، واسْمها «سونيا». فهمتني يا «بيبي»؟

انتهى العدّا أخيرا جاء «الدّرّاجي». وبمجرد أن وقف أمامي بدأنا نلهو ونمرح ونتبادل النكات.

مرتْ ساعة، ثم ساعة أخرى ولم نتحدثْ في شيء ذي أهمية. كان «الحاج حيدر» يشرف هو شخصيا على خدمتنا، وأحيانا ينضمّ إلينا بخجل ظاهر. يبتذل قليلا من روح الدّعابة ليسهّل على نفسه عملية اندماجه في حوارنا المتسارع، لكنّ ضيق الوقت يخونه غالبا وتثقلُ عليه قلّة ترحيبنا. كان (الحاج) يضحك لأي شيء نقوله، ولا ينسى أن يمرّر يده على فمه بعد كلّ ضحكة يطلقها، كأنه يطمئنّ على سلامة فكّه. كان يستمع أكثر مما يتكلّم. لكن، في طريقة استماعه تكمنُ ثرثرة غير معقولة.

"كلّفْ أحدا بمراقبة سيارتي، لا أريد أن يجرّدوني منها مرة أخرى".

هكذا يخاطب «الدرّاجي» تابعه «الحاج حيدر» الذي يتلقى الأمر فينفذه، لكن، مع تعقيب بسيط، على غرار: "اطمئن، كلّ شيء تحت أعيننا، ثم إن هذا الحي أكثر أمْنا" و...

إنّها عبارات في مجملها تعني بكلّ بساطة: "نعم سيدي، سأفعل".

لكن؛ يفعل ماذا؟ إنه بالتأكيد سيكلّف أحدا من سكان الحيّ بحراسة سيارة «الدرّاجي»، والأهم أنه سيغادر جلستنا لنستريح قليلا، فهو سيعود لاحقا ليواصل ابتذاله طمعا في كسْب ودّ هذا «الدرّاجي» الذي عرفتُ في ذلك اليوم أنه فعلا تبوأ مكانة عليا. لقد صار شخصا مرموقا أكثر مما يعتقد الجميع. بعد أن كان قبل سنوات لا يملك إلا محل «كولومبيا» ذلك الوكر الصغير، المظلم، المحاط بالشّبْهة، والمكتوب على بابه "خدمات الهاتف". وكان يوزع المومسات على زبائنه من الأصدقاء والمعارف، ويحصل على عمولته، بينما زوج أمي -وهو الوسيط بين سيده «الدرّاجي» وفريق المومسات- لا يحصل إلا على لقب القوّاد، مضاف إليه كميّة حشيش ونبيذ رديء وبعض المال.

فكّرتُ في أن «الحاج حيدر» نسخة منقّحة ومعدّلة عن شخصية زوج أمي البائس، وهذا دليل على أن البلاد بخير، والعباد أيضا بخير؛ فمعظمهم يواكبون التطورات ويحسّنون من أدائهم. وقد حسّن «الدرّاجي» هو الآخر من أدائه، فهو اليوم رجل أعمال يملك مصنعا كبيرا للملابس الجلدية يورّد منتجاته إلى أكبر تجار الجملة، كما أنه نجح في إبرام عقود مع مؤسسات ووزارات مختلفة، ولديه خمسة معارض للبيع المباشر في أهم المدن. إنه يدفع الملايين لموظفيه في شركات صغيرة تغيّر نشاطاتها باستمرار حسب الظروف وهو أيضا يشتغل بالسياسة فقد انضمّ إلى حزب (الجبهة)، وصار يشارك في الحملات الانتخابية ويوزع المناصب على المسؤولين وينافس على المناقصات الكبيرة، ويربحها دون أن يكلّف نفسه مشقّة رفع مؤخرته عن مقعد مكتبه الوثير الذي لا يغادره إلا إلى مقعد السيارة.

إنه أكثر الرجال دهاءً في هذا العالم، ودهاؤه لا يصطدم بحسه الطفولي؛ فهو يجمع بين نقيضين يتعايشان جنبا إلى جنب في سلام وألفة.

يفكّر وهو يتكلم، ويسدّد على يمينك فتصيبك الطلقة في شمالك، وعندما تكون أحد ضحاياه فهذا يعني أنك تتواجد في منطقة يتحرك فيها الحظ السعيد بوفرة، حيث الاحتمال كبير جدا لحصولك على فرصة الفوز بالمجد وخسارة نفسك! وهذا ما حدث مع الجميع ممن رفعوا في لحظة غير متوقعة الشريط الأسود عن أعينهم بعد جولات طويلة في لعبة الغمّيضة البريئة، ليجدوا أنفسهم في حدود المربع الذهبي، وهكذا انضموا إلى فريق السعداء واستحقّت أكتافهم نجمة «الدرّاجي».

رجل واحد فقط لم يربحْ شيئا لكنه خسر نفسه بالكامل؛ هو زوج أمي.

# الفصل السادس

## - 1 -

اسمعْ؛ منذ اليوم، لا تدخين قبل الفطور ولا فطور قبل الاستحمام؛ هذا هو برنامجك الصباحي، كلما أنجزته جيدا تحصل على قبلة. في حال حرصت على تنظيف أسنانك، ستكون القبلة عميقة! هاه؛ من يسمع هذا الكلام يعتقد أنني عازمة على قضم أسنانك بشفتي. حقا، شيء مضحك!

على أية حال، من مفسدات القبلة، بقايا الطعام في الفم، كما أن من مفسداتها أيضا، ضع هذه الجملة بين قوسين؛ (نكهة معجون الأسنان).

لأجل هذا فكرت بإضافة ركن آخر لبرنامجك، نسميه: "حديث الصباح"، مدته تكون كافية للثرثرة حول أمورنا الخاصة وكذا مشروع كتابنا.

سنخصص لهذا الركن 20 دقيقة، كوقت إجمالي، نستهلك منه، أظن.. أو إليك الآتي: إذا حسبنا فترات الصمت وتلك الوصلات الموسيقية وما إلى ذلك! سيبقى لدينا فعليا، ربع ساعة؛ (الوقت الصافي).. هذا مناسب جدا.. هل واضح ما أقول؟

إنه مجرد ركن ترفيهي، يكون المطلوب منك اغتنامه في حديث حر، ودي، بلا ضوابط؛ لا فكرة عامة ولا أفكار جزئية! مجرد حديث عابر،

يجري بكل أريحية؛ استبعد من ذهنك موضوع كتابنا وأمورنا الخاصة وحتى ما يتعلق بحساب الوقت. الحديث في هذه الحالة، لا غاية من ورائه، بمعنى؛ كلام من أجل الكلام! هكذا.. تتكلم.. ولا شيء آخر.. تتكلم معي كما لو كنت مع نفسك! أظن؛ ستشعر بمتعة مصدرها انزياح شيء ما ثقيل في داخلك! هو ذاته الشيء الذي يتشكى منه كل الناس؛ الهم.. الهم يا «بيبي»! إذا تكلمت بحرية، ستنجح.. من المحتمل أن تنجح في تخفيف -ولو- القليل من ثقله. لكن المؤكد أنك -بالكلام- ستزيل نكهة معجون الأسنان تماما من فمك، تزيلها دون أن تشعر، وهكذا تكتمل شروط حصولك على قبلة؛ شروط! يا لهذه الكلمة! «بيبي».. ابحثْ -لاحقا- عن بديل لها؛ تبدو باردة إلى حد أنها.. تقريبا، تكاد تتجمد. وهذا ما لا يناسب، أعني.. كنت سأقول لك، من غير اللائق وضع ربطة عنق مخططة (أبيض على أسود)، خطوط أفقية كتلك التي تتميز بها لفظة (شروط).. أقول؛ لا يليق وضعها بجانب فراولة ناضجة كما هو اسم القبلة ناضج!

القبلة؛ في هذا السياق أعرضها عليك كجائزة فموية يفترض أن أمنحك إياها لترحل بي من خلالها إلى حيث تريد؛ رحلة معنوية فقط! أي، دون الحاجة لرخصة قيادة. لا تجعلها يا «بيبي» حارة تماما؛ أقصد القبلة وليس الكلمة البديلة ذات الخطوط الأفقية! لا تجعلها كذلك، وإلا سارت الأمور في اتجاه غير متوقع، وهذا أيضا لا يناسب، لا يناسب هيبة الصباح! أنت.. طبعا أنت تفهم قصدي. بالمقابل لا تجعلها باردة، بل اسْمع، إليك الفكرة من آخر السطر؛ لا باردة ولا حارة.. بمعنى: خالية تماما من البرودة -تقريبا دافئة- دافئة حينا، ثم أكثر دفئا.. وفي حالات الذروة تكون ذات حرارة، حرارة متوازنة.. أي، تتناسب مع..

لاحظْ كم أنا مسكونة بهاجس التناسب والتوازن ولا أدري! أحاول إيجاد تعبير شامل يختصر هذه الفكرة: أُنظرْ -مثلا- نوزع شيئا واحدا، ونكون في حالة توازن كاملة خلال عملية التوزيع -نكون كذلك- دون إغفال قاعدة هامة مفادها؛ هذا يناسب ذاك وتلك تناسب هذه؛ وهكذا.. كما -وهنا يبدو المعنى ولو من باب التشبيه له صلة بتوزيع الطاقة- كما في تلك السباقات الطويلة جدا! ليست السباقات الأخرى! بل الطويلة جدا؛ طويلة إلى حد أنها مميتة. في الواقع؛ لا تميت المتسابق -فهو جزء من السباق- بل تميت المتفرج! مهما كنت صبورا، لا تستطيع متابعتها من الخط إلى الخط. وعليه فستكتفي بمشاهدة صف من السيقان النحيلة جدا، تنطلق في لحظة واحدة بإشارة من أحد الحكام. صوت المعلق يرتفع: "السباق يبدأ الآن"، وأنت أيضا تبدأ؛ في اللحظات الأولى ستتابع اللقطات بحماس. وسيمتعك منظر الأشجار وهي تجري عكس اتجاه المتسابقين؛ تجري إلى الخلف! لكن مع مرور الوقت تشعر بملل ثم... أقول؛ تبدأ بتلهية نفسك. مثلا؛ تذهب إلى السوق الأسبوعي. وأظن، تشتري أي شيء: حصيرة، منبها، مذياعا، وربما، كيسا به 10 مواد تنظيف! عرض نادر؛ (10 بـ 5)! عرض معروض منذ الاستقلال، ويقال؛ نادر. هيا تسابقوا للحصول على كيس الْـ 10.. هيا.. كل هذه الْـ 10.. كلها؛ كلها بـ 5 فقط! هيا تسابقوا، المحظوظون في المقدمة، المتأخرون لا حظ لهم في الفوز. حصلت على الكيس؛ وماذا بعد؟ بالتأكيد ستغادر.

سلام.. 10 سلامات.. بـ (5).. أنت الآن في الطريق تتبادل أحاديث عابرة مع أشخاص من معارفك، وخلال ذلك تتذكر أن عليك زيارة «العمرية»؛ (خياطة ماهرة وطيبة؛ تسكن في حي المنكوبين..)، يا للحظ السيئ، كلما زرتها يقال لك: "العمرية غادرت للتو.. قبل ثانية كانت هنا"..

الوقت! الآن؛ الوقت ظهرا! تعود إلى البيت، تستحم وتنام بعمق، تنام إلى أن تستيقظ على صوت انفجار، الانفجار دلالة على أن محرك سيارته اشتغل، المعنى يعود على جارك، في أسفل العمارة، منذ سنوات يحاول إصلاحه، (وأخيرا نجح في ذلك)، الحمد لله، أصلح المحرك وأفسد نومك، ما علينا.

تقوم من فراشك؛ متأففا حانقا لاعنا أصحاب العواطف المتبلدة.. ولا أدري، ربما بعدها، تتجول.. هه.. (كنت سأقول: تتجولين.. على أية حال.. الأحداث المفترضة.. تصاغ، هكذا، بضمير المخاطب.. أنت تفهمني..)، قلنا؛ تتجول.. أين تتجول؟ يا رب.. دائما أنسى! آه، تذكرت، كنا نتجول، أقصد، نتحدث عن أسلوب تلهية معتاد: (تشغل نفسك بأمور صغيرة لإهدار الوقت؛ بانتظار نهاية السباق)، التلهية تساوي قتل الوقت..

تقتل الوقت، الوقت الطويل! (تعابير خرائية مضحكة)!

أصلع ويمشي مائلا؛ ما هو؟! الجواب كالآتي: "الوقت".. الوقت المقتول بضربة فأس على الجمجمة، بضربة غادرة من الوراء، بضربة حظ، ضربة فاصلة، ضربة شمس، ضربة جزاء، ضربة تحت الحزام، مر وقت طويل؛ سطر طويل! طويل بالمعنى الأفقي أم العمودي؟

طويل وأحمق.. هذه؛ ألا تصلح أغنية؟!

طويل وأحمق لا..لا.. طويل وأحمق لا..لا..

ما هو مؤنث الوقت؟! الجواب: لا مؤنث له، لمجرد أنه طويل.. الوقت طويل وأحمق.. الحقبة جدة بائسة تتوكأ على عكاز وتنادي طفلا يجري في العراء.. الفترة شابة نحيلة.. اللحظة -على العكس تماما- اللحظة يمكن

رؤيتها عرضيا.. اللحظة هكذا، بالألف واللام زاد وزنها، قصيرة وممتلئة، لكن، الحق يقال؛ (مسرارة)!

الوقت طويل، الزمن مستدير، أحب هذه اللعبة؛ أتخيل بعض الكلمات مجسدة! مثلا: يخيل لي أن التاريخ يمشي أوقات المساء محني الظهر، الجغرافيا صفراء، الحكمة مسننة، وأتخيل الحب فتى أرعن يسرح شعره فيظن نفسه جميلا، الصداقة تخرج لسانها وتتهكم، الحضارة.. الحضارة لديها فخذ هو الأضخم على الإطلاق، الحلم يكون بهالات ملونة، الزطلة تبول على نفسها، زوج أمي قلم سيال.. بمعنى؛ حبره يتفسخ فيشوه الصفحة الموالية! أمي مهبل يتثاءب ورجل الحكمة يدعو للتثاؤب! «العمرية» ليست مسرارة.. «العمرية» طيبة فقط؛ دائما تغادر قبل وصولك بثانية واحدة! السوق أسبوعي، البناء والتشييد، الصين الشعبية، كولومبيا الشقيقة، «الحزوة» المجاورة، الشعب العظيم، كل السلع تقريبا بالمجان؛ 10 بـ5! العلامة؛ 16 من ! مدة البرنامج 20 دقيقة نحذف منها 5، يبقى لدينا و..تي راراراراراا.. طويل وأحمق.. تي رارارارا.. عدت إلى البيت، أنت الآن في البيت، في المطبخ تحديدا (ننقل الحدث مباشرة)؛ أنت تأكل شيئا خفيفا، وإلى غرفة الجلوس، (قيام، جلوس)، إنك تتثاءب بكسل قطة، (عفوا.. كسل قط) تتثاءب؛ ظاهر يمناك على فمك المفتوح باعوجاج، هكذا، مفتوح، تثاؤبك المفتوح معوج بينما يسراك المدربة جيدا تهتدي بكل سلاسة إلى مفتاح التشغيل، شغلت التلفزيون يا ولد، أتظن أن السباق الطويل انتهى؟ كلا.. أبدا، قبل ثانية فقط تجاوز رأس السباق منتصف المسافة، السباق الطويل يتطلب صبرا طويلا.. (طويل وأحمق لا لا..). يتطلب صبرا من المتفرج وقدرة هائلة على الموازنة من المتسابق؛ موازنة

ماذا؟ الجواب كالآتي: (موازنة الطاقة). اسمع: في الثلث الأول من المسافة تقشفْ في استعمال طاقتك، في الثلث الثاني، استغل القسم الأكبر منها، من طاقتك التي تعول عليها، للبقاء في مقدمة السباق، في الثلث الأخير استعن بالمخزون، ألا يفترض أنك نجحت في توفير الجهد سابقا، الجهد الذي يمكنك الآن من الاستمرار حتى لحظة الدفع برأسك إلى خط الوصول؟! تلك هي اللحظة الأهم.. لماذا قلت أنا كل هذا؟! لا علينا، حاول يا «بيبي» إنهاء السباق، أقصد القبلة، حاول إنهاءها بطريقة تثير خيال المتفرج، كلوحة معبرة تجسد، مثلا؛ منظر الأشعة وهي تنعكس على الشفتين، ثم تحدث تلك الإشراقة الشاعرية فتتضح ملامح الوجهين وتزداد قربا، وفي النهاية يظهر المتسابق والمتفرج، أقصد؛ يظهر البطلان، (أنت وأنا)، واقفين، على بعد خطوات من النافذة، ويكون خلف النافذة شجرة، وخلف الشجرة منظر الشارع حيث الحركة بدأت تدب؛ وقع خطوات، محرك سيارة ينفجر، أسفل العمارة، تأفف، نداء شخص لشخص آخر.. و...

في الأخير، تنتهي القبلة تماما، ويبدأ اليوم الجديد باكتمال دائرة الشمس في الأفق، لو أن الشمس تطل من وراء نهاية البحر لكان المشهد أفضل، لو لوأنها.. أو.. لا شيء يهم، لقد حصلت على حبة الفراولة الناضجة وآن لك أن تبدأ العمل، إذن فلتبدأ، اجلسْ بهدوء، ثم...

بعد لحظة صمت، تُقدّر أنها مناسبة للموقف...

دقّق في ما أقول: (مناسبة للموقف)، ألا يذكرك هذا التعبير بأمور لها علاقة بالتوازن وتوزيع الطاقة؟!

أنت، طبعا، بالتأكيد تفهمني...

أقول، بعدها.. أو اجعلْ لحظة الصمت هذه امتدادا لأول نفَس يرافق الأحرف الأولى من كلمتك التي يفترض أنك ستلقيها..

أقول كلمة وليس خطابا، الكلمة قد تكون مجرد تحية صغيرة موجهة للجمهور، أما الخطاب، إنه.. كأن تقول؛ "أيها الشعب"! ثم بكل ثقة تسدّد نظرتك الشديدة الحازمة، (لا علاقة لهذا بالحزام المشدود إلى البطن جيدا)، النظرة الحازمة تليق بالشعب الحازم...

تقول: "أيها.".. هكذا، "أيها الشعب العظيم"، وتضيف: "قررنا أن نعاهدكم على تجديد العهد.." وبعد ذلك، أظن، سيعلو التصفيق وتزداد حرارته، خصوصا في آخر الصف.. "قررنا"، (هكذا) تقولها.. و...

افهمني، اجعل (قررنا) هذه.. اجعلها بداية لكلمات متسلسلة، وتيرة تتصاعد.. بمعنى؛ (الحماس)، وخلال ذلك لا تهمل رمز الاتحاد بشبك اليدين وأيضا.. الإصبع.. الإصبع تشير به إلى هؤلاء الأشخاص المندسّين في صفوف الشعب..

وثمة أيضا لقطة مهمة؛ الضرب على المنصة. وكذلك استدارة الرأس يمينا ثم شمالا، "أيها الشعب"، غربا ثم شرقا، واسمع.. أنا لو كنت مكانك لقلت.. أو في الواقع.. لا شيء.. «بيبي» تعجبني النظرة الـ...أقصد؛ النظرة المرافقة لتلك الحركة التلقائية.. تقريبا.. معتادة.. هل لاحظتها؟ تلك الحركة التي.. أقصد.. بالنسبة للمرأة، عادة.. تمرر إصبعين فوق الأذن لتصلح تسريحتها، أما الرجل، أحيانا، يُعدل من وضع جلوسه.. إنه.. في الواقع، الرجل لا يظهر جالسا.. الأفضل أن يعدل ربطة عنقه، أو يثبت نظارته جيدا وما إلى ذلك.. مهما يكن.. لا شيء من هذا سيحدث.. إذ لا وجود لخطاب، أو كلمة ستلقيها

ولا وجود لشعب بانتظار ما يُلقى عليه، أنت ستحيي جمهور قرائك فحسب. تقريبا سترحب بهم قبل أن تبدأ.. وخلال ذلك ستكون مبتسما؛ اسمع.. لا تكن بليد الحس فتكتفي بتعمد رسم ذلك الشيء على شفتيك، المسمى ابتسامة، بل كن أنت.. أنت بكاملك مبتسما.. هكذا بكاملك.. أتفهم؟!.. هذا يتطلب نوعا خاصا من الذكاء.. ذكاء له قوة سحرية تؤثر في الجميع دون أن ينتبه أحد لذلك، وإذا انتبه أحد فلا يمكنه وصف حالته للآخرين وهو داخل دائرة التأثر، وفي حال نجح هذا الـ"أحد" في تجنيد كامل قدراته الذهنية وبدأ بالوصف فسيكون وصفه نتيجة لكونه أكثر المتأثرين بتلك القوة السحرية المسلطة عليه.. (مـ...ســـ...ـلـ..ـطـ...ـة.. «بيبي» حاول أن تجد بديلا عن هذه الصفة؛ (مسلطة).. ألا تلاحظ؟! هي الأخرى ذات خطوط (أبيض على أسود). لكن، الفرق يكمن هذه المرة، في كونها خطوطا عمودية.

عمودية أو أفقية هذا لا يهم..

المهم أن تقوم حالا بتحية جمهورك وهيا نضع العناوين الكبرى.. بمعنى؛ نبدأ الخطّة الآن.

إنّ الأحداث جميعها تتلاحق وتتطوّر، ويمكنُ المرور عليها بسرعة لترتيبها وفهمها جيّدا، كما أن الأفكار تأتيني الآن معطّرة ومنتعشة ونابضة بالحياة، «بيبي» يا معرّب الحياة، أيها الهادئ المطيع؛ خذني إليك.. خذني إلى بيت آخر.. بيت صغير، بنافذة مضاءة مشرعة على البحر، خذني إلى مكان آخر..

خذني.. إلى.. نسيان آخر..

سأعطيك حكايتي وقلبي وجسدي وكلّ ما تريد. وأنت.. أعْطني فقط

الخطة المثلى للتخلص من الماضي وجراحاته.

أُنظرْ.. هنا جرح كبير. هل ترى؟.. وهنا جرح أيضا.. أُنظرْ هنا جرح أكبر. هنا وشم وشامة ومزيد من الحروق.. وصورة رجل لم يستغرق الأمر إلا ومضة حتى وقعتُ فريسة لغرامه الدّامي. و..ها إن نسيانه يتطلّب العمر كلّه. هذا الرجل الذي.. اسمه «حمُّو». هو ليس معي الآن ولا كان في أي يوم من الأيام، بينما أنت الآن تحتل مكانه.

إذن، تعال وارْسم جرحك فيما تبقى من أجزائي. لا تخجلْ، لستَ أقل شأنا منه ولا من غيره. تعال يا «بيبي» خذ حقك مني. سأعطيك كلّ قلبي بحواشيه.. حواشيه التي ستكون مع الوقت أكثر سمْكا من فرْط الخيبة.

ربما كنتُ تعيسة طيلة سنوات عمري، وربما لا أزال. لكنني لا أنوي اعتراض القدر. سأدع للأيام أن تفعل فعلها. أما أنت فاجْلسْ صامتا واكتبْ ما أقول، أو قبل ذلك دعني أراجع معك أهم الأحداث السّابقة في القصّة، وخلال المراجعة يمكنكَ أنْ تدوّن على جوانب الصفحات فقرات مختصرة تكون كل واحدة منها بمثابة خلاصة أولية، تسهّل على القرّاء مهمة المتابعة الجيدة.

سمّها ما شئت يا «بيبي»: خلاصة، فكرة عامّة أو جزئية، ملاحظة، تنبيه.. أو ضعْها تحت عنوان: "هام جدا"، واجْعلْها تلمع كإشارة "قفْ" في الطريق، قف.. هكذا، قف.. منعطف يميني.. قف.. منعطف يساري.. مطب عشوائي.. مسلك مغلق.. منطقة ملغمة.. منطقة كلاب متشرّدة.. منطقة محرمة.. محررة.. حساسة.. شَعر زائد.. رادار تجسس.. ممنوع مرور الشاحنات.. ممنوع البول على الحائط.. ممنوع رمي الأوساخ في الحارة..

ممنوع الاتجار بالبشر.. ممنوع التصوير.. ممنوع القفْز على الفكرة الأساسية.. الفكرة الملوّنة بالأصفر.. بالأزرق، الأزرق الغامق.. الأزرق السماوي؛ لون الأولاد المفضّل. والوردي لون البنات طبعا.. إلخ.. إلخ..

هه.. افعلْ ما أقول لك يا «بيبي»، ولا تعتبرْ هذا الكلام تدخّلا سافرا في عملك. إنني حريصة على راحة قرّائك.. ذلك أنّهم قراؤك. قراؤك أهلك وعشيرتك منذ اليوم.. قراااااؤك يا رجل، وأغلبهم من الناس العاديين الذين تملأ الضّوضاء حياتهم، ويشتّت أذهانهم التلفزيون. ناهيك أنهم متوتّرون ومشغولو البال، ولا وقت لديهم كي يتذكّروا كل مرّة أحداثا معيّنة كنتَ قد كتبتَها وسط حقل من الكلمات. لاحظْ معي، لا وجود لغير الكلمات في كلماتك؛ لا خطّ واحد يتخلّلها، لا مربّع، لا لطْخة حبر، لا زحمة، لا نتانة ولا تلوّث، لا بركة ماء، لا شجارات، لا صياح، لا زفير ولا شهيق.. لا أسنان تصطكّ ولا صحن يتكسّر..

الكلمات.. الكلمات فقط.. هل هذا معقول..؟!..

عليك أن تفعل ما بوسعك لتكسب المزيد من القرّاء.. تكسبهم بمقدار ما تقدّم لهم من تسهيلات وخدمات إضافية. صدقني يا «بيبي»، إذا فعلتَ ما أنصحك به، سترى المئات من الأفراد بل الآلاف منهم يقولون:

"لقد وجدنا ضالّتنا أخيرا.. وداعا أيتها الكتب المعقّدة.. ومرحبا بنا لديك يا «بيبي»"..

وهكذا تخلو الشوارع من المارّة، وتخلو المكتبات من الزّبائن ولا يبقى من مكان للناس يقصدونه سوى الجناح الخاص ببيع كتابك. أليس هذا أروع ما يمكن أن يحقّقه كاتب مثلك..؟!.. إذنْ، خذْ بنصيحتي ولا تتردد.

دَوّنْ حالا فقراتك التّوضيحية على جوانب الصّفحات لتُغلق أمام القرّاء الكسالى فرص تبرير انصرافهم لعمل آخر بحجّة أن "سردك معقد". إذا قال أحدهم هذا فسيتبيّن للجميع أنّه مخادع بائس، وسترى أصغر طفلة لا تزال في الحضانة تلتفتُ إليه وتسحب أنفه إلى المكان المحدّد.. إلى رقعة الفقرة الملوّنة على جانب الصفحة:

«هيا أُنظرْ هنا.. ستجد بكل سهولة ما تبحث عنه»..

يا إلهي.. كيف يمكن أن ينافسك خصومك بعد اليوم..؟!.. أظنّ أنهم سيذهبون إلى كل قارئ على حدة، ويعطونه كتبهم -مجّانا- مضافا إليها مشروبات فاخرة، ثم يبتسمون بكل مرح وينحنون له:

"نتمنى لك متابعة ممتعة عزيزي القارئ".

## - 2 -

في الواقع إن زوج أمي لا يملك نفسه وبالتالي فهو لا يستحق حتى أن يخسرها. ما أصعب أن تكون الخسارة شيئا بعيدا المنال عن رجل لا يصلح أن يكون حليفا ولا خصما لأحد، ولا حتى شيئا بين هذا وذاك. لقد غادر زوج أمي شاشة «الدرّاجي» فانْتعشت الألوان وازدهت، وجاء بعده «الحاج حيدر» وأتباع آخرون لا أعرفهم.

كما ظهر أبطال في الظل فتحوا جميع الطرق حتى الممنوعة منها أمام «الدرّاجي»، بفضل ما لديهم من سلطة وقوة نفوذ وأهمهم «نجيب دواوة»؛ وهو رجل استخبارات سابق برتبة عقيد، يقال أنه قتل امرأة كانت عشيقته ومثّل بجثتها ثم رمى بها إلى الشارع أمام الملأ فاعْتقلته الشرطة وتم سجنه، لكن أفرج عنه بعد أسابيع قليلة بحجة أنه مصاب بمرض نفسي وعصبي.

أظن أنك سمعت بهذا يا «بيبي»، فجميع الصحف كتبتْ هكتارات من المقالات عن هذا الحدث، ونشرت صور الضّحية مع قاتلها الذي فقد عمله في الاستخبارات بعد ذلك، واحتفظ بنفوذه فأسس شركة مقاولات مختصة في ترميم المعالم التاريخية، يسيّر شؤونها من مقر فخم في قلب العاصمة؛

به موظفات أنيقات منهمكات في التنقل بين القاعات والحجرات، يؤدين عملهن في صمت وحزم ولا يلتفتن لكونهن بارعات الجمال، وسكرتيرات مرسومات بألوان خفيفة وراء مكاتب صغيرة يبتسمن طيلة الوقت فتلمع لافتة غير مرئية أمامهن مكتوب عليها:

"اقتربْ نحن الفتيات الطيبات".

واقتربَ «الدرّاجي» بالفعل وأنا معه. تحدث مع إحدى السكرتيرات المحتمل أن اسمها «ناريمان» ومازحها بخفة. فتح درج مكتبها قلّب أوراقا وخرائط. رتب أشياء وبعثر أخرى. جلس في مقعدها واستعمل الهاتف. تكلم بصوت عال؛ صوت عابث.. مجلجل.. مهزوز الطبقات! صوت أكثر مما هو كلام لا يستسيغه ديكور المكان ولا تهضمه تسريحة «ناريمان» بل إنه مع كل كلمة يشوش مسحة الشفافية المهيمنة على ملامحها؛ أقصد السكرتيرة التي يعطي وجهها في البداية انطباعا بأنّها تصلح لصورة إعلانيه على علبة ألوان مدرسية. لكن ما أن يتعمق ذلك التشويش حتى ترتبك ملامحها ويختل نسقها العام، لا أظن أن اسمها «ناريمان» فنظرة الطمأنينة على وجهها سرعان ما استحالت إلى إذعان مفضوح.

شيء ما ليس في مكانه الصحيح، أو.. كل شيء!

أقصد؛ المكان ليس في مكانه تماما.

إن هذا يشبه ما يحدث لممثلة بديلة في مسرح إيمامي، تشعر في أعماقها أنّها تؤدي دور شخصية لا تستحقّ تقمصها. إنّها غير مقتنعة بما تقوم به، أو لنقلْ إنّها غير مقتنعة بقدرة الجمهور على تحمّلها كل هذا الوقت، لهذا فهي تحاول أن تؤدّي نفسها نيابة عن نفسها أمام جمهور ليس إلا هي. وهكذا

تطغى على نظرتها استكانة مبتورة، نزق بليد، مرح زائد عن الحاجة. إنّها تميل برأسها وتمطّط شفتيها، تهزّ كتفيها وترعش خصرها، تلمّ ركبتيها لتقول نصف عبارة. وبعدها تنتبه إلى أنني ما أزال واقفة فتدعوني للجلوس.

وجلست بالفعل.

سألني «الدرّاجي» إن كنت أريد مشروبا فطلبت ماء. جاء شاب بلباس خاص ووضع أمامي قنينة ماء وسألني بدوره إن كنت أريد شيئا آخر:

"هل يمكن أن أدخن"؟

لم يجبني الشاب وبدا عليه الخجل. فما كان من «الدرّاجي» سوى أن يكسر خجله:

"هذا الفتى ابن الحاج حيدر؛ ألا يشبهه"؟

قال هذا ثم ربّت على كتفه كما يفعل أخ أكبر:

"كنا مع والدك قبل ساعة وتناولنا البيتزا عنده".

ابتسم الشاب، وحك أنفه متحاشيا النظر إلى شيء محدد. ابتسمتُ أنا أيضا، لكن بلؤم ملطف.

اسمه «حسان». وهو كاسمه تماما؛ نحيل، متهالك على نفسه، لا يثير مخاوف أية فتاة في مثل سني، كما أنه قابل للنسيان في أية لحظة.

"سيكون له شأن معي".

فكرت بهذا، وشربت الماء فشعرت بطعم الصّلصة الحاذق يذوب في معدتي، ووجه «الحاج حيدر» يذوب في وجه ابنه: إنه يشبهه حقا، لكن السكرتيرة لا تشبه نفسها.

الواقع أن كل سكرتيرة في هذا العالم لا تشبه نفسها. هذا رأيي بكل صراحة. إن أية شابة (مثل التي لا أظن أن اسمها ناريمان)، تعيش دائما على أمل أن تُوفّق في استدراج الجمال والذكاء معا إليها. ثم تقنعهما بالعيش جنبا إلى جنب داخل حقيبتها، لتعتمد عليهما مستقبلا في مضاعفة راتبها والحصول على امتيازات شتى. إن أية شابّة من هذا النوع ستظل تحاول وتحاول، وعندما تصبح على بعد خطوة من غايتها، تندفع بلهفة وتهوّر فيحدث اختلال غير محسوب، ويسقط شيء ثمين منها، دعنا نفترض أنها نجحت كليا أو نسبيا في تحقيق تلك الغاية؛ بحيث صارت جميلة وذكية في الآن ذاته. صارت كذلك بالفعل، أو أنها؛ لنقلْ.. صارت تتوهّم أو وجدت من يوهمها بذلك؛ مجرد احتمالات! لكن الذي يهمنا أن ما سقط منها هو شيء فقدته إلى الأبد، وفقدت معه علاقتها الحسنة مع ذلك الشخص الذي تقابله وجها لوجه كلما وقفت أمام المرآة.

## - 3 -

إليك ما يلي:

أولا، والدي هجَرَ أمي قبل أن تتشرّف الدنيا باستقبال صرختي الأولى؛ أعني يوم ميلادي. وتزوّج امرأة أخرى، عبَرَ معها الحدود إلى غير رجعة. وصار يرسل لنا المال بين الحين والآخر.

ثانيا، أمي انْكبّتْ على وجهها في درب رجل معتوه، محنيّ الظّهر. أدخلتْه بيتها وعاشرتْه مدّعية في بادئ الأمر أنّه من أقربائها؛ بينما كنتُ أنا وقتها لا أزال أتعلّم الوقوف بثبات على الأرض. تزوّجتْه بعد ذلك في أولى أيام الْتحاقي بالمدرسة. وصار يسمّى زوج أمي.

ثالثا، أو.. اسمع، الأفضل أن نبقى في (ثانيا) لنوضح كيف أن زوج أمي حاول في البداية تقمّص دورِ الأب الفاضل، وصار يصطحبني إلى صفّي، ولا يغادر حتى يراني في مكاني على الطاولة الأولى من القسم. وفي أوقات انْصرافي أجده.. أو.. لاشيء.. في الواقع أقترح أن نستمر في احترامنا لخاصية السياق، بمعنى: نخبر قراءك عن هذا المسمى؛ "زوج أمي"! باعتباره أحد شخوص الوهم.

«بيبي» هل التعريف بالشخوص يدخل ضمن صلاحيات السياق أم أن..؟! يا الرب.. حتى هذا! لا أريد.. حقا لا أريد وأرجوك لا تبدأ بالشرح. أعرف مسبقا أنها أمور معقدة، شي له علاقة بالشروط؛ تلك اللفظة الجامدة ذات الخطوط الأفقية.. أبيض على أسود! نقول هكذا: ما هي شروط نجاح الحكاية؟

الجواب كالآتي؛ شروط نجاح الحكاية هي: الشخوص، الحبكة، الزمان، المكان، الحوار، المقدمة، البسط، الخاتمة، السرد، البطل، البطل ومعه البطلة؛ إنهما بسلام لولا أن الراوي يعيش بينهما وأيضا ذلك النقد البناء والصحافة والمناضلون و...

كل هذا من أجل حكاية؟ هيا ندع الحكاية تختَرْ مسارها؛ ما رأيك؟

حسنا؛ زوج أمي! سأخبرك عنه:

تعرفتْ عليه أمي بعد سنتين من ولادتي. ولم يكن له بيت ولا أهل، فاسْتعانتْ به في عملها اليومي؛ فهي تبيع الأواني المنزلية والألبسة النسائية وقطع الذهب، وتوصل أمانات إلى أصحابها، تجلب مبالغ وتردّ أخرى، وتؤدي للجميع خدمات خاصة لا حصر لها، وكان هو يساعدها في ذلك حتى تولّدت بينهما عشرة طيبة، كما تقول خالتي بهية، وهكذا صار من اللائق أن تقدّم له بعض المساعدات إكراما لإخلاصه، وهو بدوره يتفانى في خدمتها أكثر. وهذا ما حدث بالفعل.

عندما تورّطتْ أمي في خلافات حادّة مع الجيران بسبب زياراته لها في كل الأوقات، اضطرتْ لاستخراج عقد زواج رسمي جمع اسميهما على الحلال بجرّة قلم سريعة، في مكتب توثيق معتمد. صارا زوجين في رمشة

عين: لا زغاريد ولا ذبائح، لا حمّام ولا فستان أبيض، لا خاتم ذهبي ولا صورة زفاف كتلك التي أخذتها أمي مع والدي. إنه مجرّد إجراء صوري للجم الألسن المريضة.

لا تضيف خالتي «بَهيّة» تفاصيل أخرى، خاصة بعلاقة أمي مع زوجها، لكنها تطلق عادة قصصا متناثرة، يختلط فيها الجدّ بالهزل؛ فهي تذكر أحداثا غريبة مشوّقة وقعتْ لها مع أشخاص آخرين في أماكن عديدة، وتسهب في سرد التفاصيل ووصف الملامح مضفية بعض المؤثّرات من خلال حركاتها الجريئة، وفي نهاية حديثها تعطي «بَهيّة» إشارات واضحة بأن أمي كانت برفقتها خلال كل ما حدث لها، وقبل أن تطلق ضحكتها المعتادة تكون هي التي كانت برفقة أمي، وليس العكس، ثم تضحك بمرح وتستغفر الله قائلة:

"هذا ما أخبرتني به أمك وأظن أنّها صادقة في ذلك"..

زوج أمي لا علم له بشيء فمن المرجح أنه تزوجها وهو نائم، أو أنه لم يكن موجودا في الحياة وذات يوم فتح عينيه فوجد نفسه في سريرها، وصار بعد ذلك يردّ على المناوئين لأمي الذين هم بدورهم يقولون أنّها كانت تستقبله في البيت كل ليلة، على أنه من أقربائها، لكن الأكيد أن استمرار علاقتها الغريبة به جعل أنوف الجارات تطول وتطول.. لتتشمّم فراش نومها، وهكذا مرّت الأيام.

بالنسبة لي، كنت صغيرة حينذاك، لهذا وعيتُ الدنيا شيئا فشيئا متعايشة مع هذا الوضع، لكن مهما يكنْ فإنّ أسئلة مريبة تسرّبتْ إلى رأسي الصغير وأحدثتْ فيه بعض التّشوشات التي تعمّقت مع الوقت؛ إذْ كنتُ أكبر ويكبر بُغضي لذلك الرجل الذي جَلبتْه أمي وصارتْ تتجاهل الكلّ من

أجله. لكنّها بالمقابل، والحق يقال، كانت تتجاهله من أجلي فتتركه لساعات طويلة نائما على الأرض، وتمنعه من زجري إذا أنا بصقتُ عليه أو شددتُه من شعره الأصهب.

وكم أتمنى أن أبصق عليه دائما.. تفوووه.. هكذا..

في الواقع، كنتُ أتفّ ولا أبصق.

ومن أجل أن تتفّ تعبيرا عن بغضك لشيء ما أو أحد ما، عليك توفير مقدار يسير من الرّيق، تلمّه في مقدمة فمك ثم تفتح شفتيك قليلا.. تفتحهما قليلا أو كثيرا.. هذا يتوقف على حاجتك لإعطاء انطباع صريح بأنك تعني ما ستُقْدم عليه، وتُصِرّ على ذلك إمعانا في إصابة الهدف بأكبر كمية من الإذلال. في هذا الوقت يكون رأس لسانك يتحفّز، ملامسا صفّي أسنانك، استعدادا للتّسديد. ثم تتراجع برأسك قليلا إلى الوراء؛ تضمّ شفتيك وتضغط عليهما وتخضخض ما بفمك.

واحد اثنان ثلاثة.. تفوووه..

هكذا: كمية من الهواء المستمدّ من احتياطي الرّئة مخلوطة برذاذ من الريق تقذف بها في شكل طلقة فموية.

صوت "التّاء" المشدّد هذا أساسي في العملية، إذْ فيه تكمن قوة الدّفع، ثم هناك "الفاء" لتحديد مسار الرمية. أما وووووو.. هذه فهي لتطويل المسافة.

هذه "التّفوووووه" مثالية يا «بيبي» خصوصا إذا فعلتها تعبيرا عن بغضك لشخص مستفحل كالوباء في حياة أمّك. وأنا كنت أفعل هذا في صغري، وكانت أمي تضحك وتقول لذلك الرجل الذي صار يسمّى فيما بعد زوج أمي:

"ما أشقى «سونيا»، إنّها تُخلّص وجهك من بعض النّمش".

وبالفعل فإن هذه الحكمة حقيقية لأن النّمش اختفى تماما من وجهه مع مرور السنوات من فرط ما كنت أتُفّ عليه. لقد تولّد اعتقاد بأن لريقي مفعول المرهم، لهذا برّرْتُ سلوكي العدواني إزاءه فيما بعد مستعينة بالحكمة سالفة الذكر التي اخترعتْها أمي، وأكّدت التّجربة جدواها، فكنت أتفّ على أصابعي وأرطبها جيدا ثم أمررها على جبهته وخديه. لقد فعلت هذا في صغري كثيرا، وفعلته أكثر قبل سنوات قليلة؛ إذ عدت للبصق على وجهه وفي عينيه وفمه، ليس بدافع إزالة النّمش عن وجهه، بل لأزيله هو ذاته من حياتي. وكم أتمنى أن أبصق عليه الآن: تفوووووووه.

تفووووه أيضا على أمي (لأنها تزوجته) فصارت بشعة جدا.. ومن الواضح أنّها لم تكن بشعة قبل أن تدخله حياتها، لكن، بالمقابل، لا يمكن القول أنّها كانت جميلة قليلا أو جميلة جدا. ربما كانت في غنى عن الجمال. يا لهذا الربط الذكي..!!.. الفرصة الآن مواتية لأكمل وصفي السريع لأمي، أليس كذلك؟!.. أقسم أن هذا بالضبط ما يفعله الروائيون عادة.. لا تخبر أحدا بذلك.. سأبدأ بوصفها من أعلى شعرة في رأسها إلى أصغر إصبع في قدميها:

لأمي ثلاث خصلات يفلتن دائما من غطاء رأسها، ولها وجه به عينان يترسّب بعض الكحل في جانبيهما، وشفتان يرتسم فوق العليا منهما خدش مورّد. ولها أيضا.. أقصد كانت لها رقبة مثيرة للانتباه، تكون قصيرة في أوقات الاسترخاء لكنها تطُول، ويزداد طولها إذا تكلّمت بغضب، وتزداد أيضا حركة اهتزاز صدرها ذي التّوتر العالي. إنّها تتعمّد لملمة صدرها في

كل حين بحركات ترويضية سريعة، دون أن تسمح لذرّة خجل واحدة بالمرور على ملامحها، فهي تفعل هذا بتلقائية متناهية لكي لا تثير شكوك الآخرين في نواياها، وفي الوقت ذاته لا تخسر نظراتهم الزائغة نـحوها.

أمي مشهورة جدا بأسلوبها الملعون هذا، ولها جمهور واسع في الحي الذي نسكن فيه وفي الأحياء المجاورة، وربما كان لها جمهور أوسع في مسقط رأسها «الحزوة». إنّها باختصار بطلة العالم في حركات الإغراء غير المقصودة، فرغم محدودية خيالها وقلّة مصداقيتها في نسج الأكاذيب والقصص الوهمية، وفي اختلاق المبرّرات والأعذار والحجج الواهية، إلا أنّها بالمقابل تخصّصت في مجال "اللقطات الملعونة" وأبدعتْ فيه، بحيث فعلتْ ما فعلتْ فكانتْ الأكثر احترافية وإقناعا، ولا ينقص الحكومة سوى أن تكرّمها في نهاية مشوارها على دورها الكبير في تطوير حسّ التّخيّل الاستمنائي لدى الجيل الصاعد.

ذات يوم رآها شاب تساعد خالتي «بَهيّة» في تنظيف سلم العمارة وهو عمل تتناوب عليه أسبوعيا الجارات في البناية التي نسكن فيها. وكانت أمي في ذلك اليوم ترتدي جبّتها القبائلية ذات الحزام المشدود والفوطة المزيّنة بشرائط متعددة الألوان. إنه لباسها المفضّل أوقات العمل المنزلي، لأنه يسمح لها بأداء حركاتها السّلسة، دون تعقيد أو حذر، كما تفعل نساء الرّيف النّشيطات وهن يؤدين أشغالهن اليومية. أمي نشطة جدا وهي من أصول ريفية أيضا، لكن موهبتها الإغرائية تغلب عليها دائما، وهذا ما جعل ذلك الشاب يقف على مدخل السلم وعيناه مصوبتان إلى مؤخرة أمي التي كانت منكبّة على مسح الأدراج، متنقلة بخطوات زاحفة إلى الوراء.

وانتبهت «بَهيّة» للشاب الوقح، لكن أمي ظلّت على حالها تتقدّم وتتقدم.. لكنها تتقدم بمؤخرتها ناحية الشاب الذي انتصبَ عموده.

أطلقتْ «بَهيّة» ضحكة داعرة ودعت الشاب أن ينصرف، لكنه بقي متصلبا في مكانه والتفتتْ أمي إليه مبدية استغرابها.

قال لها الشاب:

"واصلي عملك.. واعتبريني غير موجود".

وبالفعل واصلتْ أمي عملها، لكن ببطء شديد؛ تغمس المنشفة في إناء الصّابون هنيهة وترفعها. تعصرها بلين وتضعها بعناية تامّة على نقطة واحدة من الأرضية، ثم تقوم بتدويرها حينا ولفّها وقلبها حينا آخر، بينما الشاب ظل واقفا، مقطوع الأنفاس، قريبا منها.

بعد دقائق سألته أمي دون أن تلتفت إليه:

"هل أنت بخير"؟..

"الآن.. الآن.. أنا بخير"..

نزلت «بَهيّة» إلى حيث يقف الشاب واعتدلتْ أمي في وقوفها وصار الثلاثة متقابلين في صمت. وفجأة انفلتتْ من «بَهيّة» ضحكة حرّة كانت قد حبستْها، وضحكت أمي هي الأخرى، لكن الشاب بقي ينظر، وفي كل مرة تتّسعُ عيناه أكثر فأكثر، وتتّخذ أذناه شكلا جرسيا مضحكا. كان يبدو منتشيا أو على وشك أن يموت، متوتّرا وشديد البلاهة في الآن ذاته. ثم بادر أمي بالقول:

"هل يمكن أن أجدَ لديكِ مكانا لأبكي فيه؟"..

"ولماذا عليك أن تبكي؟".

لا تتذكّر خالتي «بَهيّة» التي روتْ لي هذه القصّة، بقية الحوار. لكنها أخبرتني أن الشاب انصرفَ آخر الأمر بكل احترام، وعاد في اليوم الموالي، بل صار يعود إلى باب العمارة، يعود كل يوم، إلى أن سمحت له «بَهيّة» بالبكاء في بيتها لمرة واحدة، ثم لأكثر من مرة، والآن صار يعيش في بيتها باستمرار ويبكي وقت ما يشاء.

قالت لي «بَهيّة»: "إنه أخلص الناس وأكثرهم وفاءً، والفضل يعود لأمك التي نصحتني أن آويه وأستعين به".

سألتها: "لكن كيف تعرّفتْ أمي على ذلك الرّجل الذي صار يسمّى فيما بعد زوج أمي"..؟

أجابتني ضاحكة:

لقد تعرّفتْ عليه عند باب العمارة وحَدَثَتْ معه القصّة ذاتها.. والفرق هذه المرّة أنني أنا من نصحتُها بأن تأويه وتدّعي أنه من أقربائها. لكنّ المجنونة أمّكِ ذات الصّدر الذي يتّسع للجميع ويهتزّ من شدّة العاطفة، **تزوجته فيما بعد.**

**وماذا؟**

**في الواقع، لا أريد الاستمرار في نقل كلام «بَهيّة» إلى قرائك حتى لا أشتت فهمهم لما يجري في كتابك، لأن كل ما تقوله «بَهيّة» بالكلام تمحوه بالضحكات.. وهكذا فقد يكون كلامها ضروريا، أحيانا، لملأ بعض الفراغات في مسار الأحداث، إلا أنه بالتأكيد يفتقر إلى الحد الأدنى من الـ...**

هل أقول: يفتقر إلى المصداقية؟ كلا كلا.. إن «بَهيّة» امرأة ذات مصداقية، لكن مصداقيتها ناقصة جدا، ليس لكونها تكذب بل لأنها تتحدث بسخرية بالغة، وتتداخل كلماتها بالضحك المتقطع، وهذا ما لا يناسب هيبة التاريخ.

## - 4 -

في هذا العالم؛ يوجد رجال من هنا ونساء من هنا، ويوجد محقّقون وسكرتيرات من هناك!

المحقّقون يتذاكون حتى يغلب تذاكيهم على وسامتهم، والسكرتيرات يتبرجن حتى يصبحن في غنى عن الذكاء، يا إلهي ماذا لو يتزوج المحقّقون جميع السكرتيرات؟! إذا حدث هذا يا «بيبي» فستنقلب الدنيا رأسا على جورب مثقوب.

- هل يمكن أن أدخن؟

- بالتأكيد يمكنك ذلك، لكن ليس قبل أن نصعد إلى الطابق الأعلى؛ وماذا يوجد بالطابق الأعلى؟

لا شيء تقريبا، أعني فقط، توجد قاعة انتظار هادئة، كما توجد شرفة تطل على منظر جميل. وهناك يمكنك أن تسترخي وتدخّني بكل غرور، هذا مهم، إذْ من المحتمل أن تعجب بك سيدة أنيقة ومهذّبة، وإن هي أعجبت بك فستتّخذكِ صديقة لها.

- هل هي سكرتيرة؟

- كلا، ليست سكرتيرة؛ إنها تدير أعمال الرجل الذي سنقابله بعد ساعة. الجميع يعمل هنا تحت إمرتها، ونحن هنا -ليس من أجلها طبعا- بل لنقابل المعلم «نجيب دواوة»، وهو تقريبا.. تقريبا شريكي.

...

...

أجل تقريبا، تقريبا «نجيب» شريكه! قد أفهم هذا بسهولة، وقد أفهم أيضا أن الجميع مقدر لهم أن يعملوا تحت إمرة تلك السيدة المهذبة الأنيقة التي سأتشرف بلقائها بعد قليل، لكني لا أفهم ما علاقة كل هذا بما يجب علي القيام به لأحصل على إعجابها.

هل علي أن أرقص لها مثلا؟! أرقص! أو ربما أضع قليلا من الزيت الدافئ على راحتي يدي وأدلك كتفيها بلطف حتى مطلع الفجر؟!

ماذا أفعل لأكون جديرة بأن تتخذني صديقة لها؟ وهل الحصول على وسام صداقتها أمر مهم لي، أم لك؟

لقد استفزني بكلامه في تلك اللحظة، حتى أنني سخرت من سيدته في أعماقي، وتكون لدي انطباع سيئ إزاءها سرعان ما نبذته بمجرد أن تقربت منها.

رغم ذلك، لم أحاول لحظتها افتكاك إجابة سريعة، فأنا موقنة، كل اليقين، أن كل سيدة محاطة بهالة كبيرة، إنما هي امرأة حزينة في أعماقها! حزينة لكنها لا تعترف بحزنها إلا في لحظات عابرة يصعب رصدها! كأنْ تكون في المطبخ، فيشدّ انتباهها صرصور يقوم بعمل غامض؛ خليط من حركات غير مفهومة تشبه -تقريبا- طقوس روحية.

الجميع يعلم أن الصراصير قذرة، الجميع يعلم.. لكن من منّا جرّب أن يكون صرصورا ولو لساعة؟! طبعا لا أحد جرّب ذلك، إذن فمن المحتمل أن الصراصير ستردّ الفعل فلا ترى فينا إلا خطوات سوداء، تتقدّم على الأرضية الصّلبة النّاصعة.

الصراصير تعلم أننا هنا لنسحقها، وما كان علينا أن نتنبه ولو لمرة واحدة أن هذه المخلوقات المرحة لديها مهمّة إضافية في الحياة، غير تلك المتعلّقة باسْتشعار وقع أحذيتنا وهي تقترب لتدوس عليها. نكافح وجودها بلا هوادة، وهي تكافح لتظل موجودة. إننا بالتأكيد لا نقبل ببقاء مخلوق قذر بيننا، يصرّ أن يكون كما هو دائما، لا كما نريد. رغم ذلك فالصراصير مرتاحة جدا داخل البلاعات وفي الصّدوع والشّقوق وتحت أكوام الخشب، مرتاحة ولا تفكر بتغيير أسلوب حياتها. ستظل تموت بالطريقة ذاتها حتى يتمّ الاستغناء عن الأحذية، خصوصا الرجالية منها. لا أحد يجرؤ أن يدوس صرصورا بقدم حافية.

النساء يرتدين اليوم أحذية بكعوب خنجرية، جيدة لذبح حيوان الشهوة، لكنها لا تصلح لقطع رؤوس الصراصير المتهورة.

في الواقع، إن قتل الصرصور يكون بمقدمة الحذاء وليس بالكعب، لهذا تم تزويد أحذية النساء أخيرا بمنصات سميكة.

السيدة المهذبة الأنيقة، التي يعمل تحت إمرتها الجميع، ترتدي حذاء من هذا النوع.

لطالما شدّني منظر صرصور يخرج من كيس الخبز، وليس مستبعدا أنه شدّ انتباه السيدة أيضا. شدّ انتباهها أو بالأحرى انْشدّتْ إليه وهي غير

منتبهة، هذا ما كنت أعنيه باللحظة العابرة التي تدفعها للاعتراف بأنها حزينة.. حزينة رغم أن الجميع يعمل تحت إمرتها! ولا أحد يهتم بكونها تذهب إلى المرحاض، وتدع مؤخرتها تستقرّ في حوض التواليت، تسترخي تماما وتجدد مع كل نفس شعورها بالتفرغ. وأثناء ذلك تنتابها حالة سهو، فتصوّب نظرها لأي شي مهمل، وهكذا تتذكر حزنها الذي لم يجعلها يوما بحاجة لعطف الآخرين وشفقتهم. إنها حزينة لأنها بالتأكيد ليست صرصورا.. بل امرأة.. امرأة! ثم إنها في الأربعين؛ بشرتها البيضاء مشرّبة بسمرة غير مرئية، وقامتها الطّويلة غارقة في المنحنيات: عنقها، صدرها، وركاها، فخذاها وساقاها.. ساقاها الطويلتان تفيضان صحة وترفا. عندما جاءت لاسْتقبالنا تحدّثتْ بلطف بالغ، وأخبرت الدراجي عن أمور تخصّ العمل. طلبتْ منا أن ننتظر وانصرفتْ بخطى رزينة. كان شعرها القصير يضمّ دائرة وجهها كجناحي حجلة سمينة.

قاعة الانتظار كانتْ بانْتظارنا، تتّسع وتواصل تفضّؤها، وفي كل ركن من أركانها توجد نبتة طبيعية تتغصّن وتزهر، لكن بالقدْرِ المتاح لها فقط. السّقف يعلو وتتعمّق زخرفاته. الإضاءة تزداد وتنخفض بنسب محسوبة فتُشجّع على الخمول والاعتراف بالمشاعر الغريبة. ومن تلك الجدران الملبّسة بالخشب كانت تسيل موسيقى هادئة كالدّموع عبر تفاصيل الدّيكور الذي يوحي بأنّ الانتظار فعْلٌ يستحق الاحترام.

الانتظار قليلا.. الانتظار لساعة أخرى.. الانتظار إلى الأبد.. ثم الانتقال إلى الشّرفة الملحقة بالقاعة، هناك يُنبّهني «الدرّاجي» للسّماء التي تبدو -من هذا المكان- أقرب مما هي عليه في أي مكان آخر. والواقع أنّني

رأيتُ السّماء تقترب فعلا، ملقية بزرقتها على منحنى يتدرّج في أخْذِ كفايته من الألوان الحليبية.

الأفْق رشّة ضوء كثيفة تترسّب بالتّصوير البطيء. ولسبب ما، يحدث قطْع مفاجئ، فيرتدّ المشهد إلى نقطة البداية؛ تتراجعُ السّماء بالتّصوير العكسي السّريع، السّماء الآن مجرّد صورة ثابتة.

منذ دقيقة تناول «الدرّاجي» مجلّة فاخرة، وبدأ يعُدّ أوراقها؛ أقصد يتصفّحها.

كنتُ جالسة -أدخّن وأمارس شرودي- مقابلة له، أو ربما بجانبه؛ وإلا لما كان بوسعي رؤية الصّور في المجلة تتوالى بسرعة: صور بنايات عالية، صور أخرى لرجال شُقر يبتسمون وبينهم كهل زنجي، رسومات بيانية، نص إشهاري محفور على ورق مرمّل، عروض تخفيض على مزيلات البقع ومبيدات الصراصير، صورة شابّة بتنّورة قصيرة تقرأ رسالة عاطفية داخل مرحاض وفي عينيها ابتسامة شبه ماكرة! صورة مستحضر خاص باليدين لا يُستحب وضعُه على أي جزء آخر من الجسم، دبابير تهاجم أنف مذيع تلفزيوني، صورة مطرقة، صورة سيّارة مغلّفة بعشب ناصع الخُضرة، وعلى الغلاف صورة السّماء التي لا تزال ثابتة.

سيكون لي عمل بالصدفة، ويحدث أن تقود بعض الصّدف إلى بلوغ أهداف كبيرة ما كان يمكن بلوغها، حتى لو كانت نسبة الذكاء المستعمل تصل إلى حدها الأقصى! هذا يحدث أحيانا، أليس كذلك يا «بيبي»؟! لكن المزري في الموضوع حقا أن بعض الصدف -بعض الصدف- لا تتحقق صدفة، بل تتحقق بتخطيط من آخرين لا نعلم عنهم شيئا. آه؛ حسنا..

أو دعنا من هذا الآن. لنقلْ إنني بوصولي إلى مملكة «نجيب دواوة» وجدتُني أطرق بابا جديدا. أطرقه بكل هدوء واطمئنان، أطرقه؛ فيُفتح على مصراعيه! يُفتح؛ وإذا بظل شخص يؤدي انحناءة ترحيب: «كل المكان لك». يا للمشهد النادر! أضع الخطوة الأولى فالثانية، وبعدها الثالثة، ثم الرابعة، وهكذا...

رواق مبهر يَنْشَدّ إلى نهايته البصر، بينما يتسلل الضوء من جميع الجهات. الضوء! لكن، بالتأكيد ليس ضوء القمر، وإلا لكانت الريح الخفيفة قد حركت بعض الأغصان، ولكان نقيق الضفادع قد أحال الانتباه إلى منظر أعشاب مسقية على الدوام. إنه ضوء! ضوء يتسلل، ثم يهبّ دفعة واحدة، في لحظة واحدة، كما يحدث في مشهد هائل يوحي بوجود انفجار، أو خلال لقطة تتسارع حينا ثم تنطلق في تباطئها، إلى أن تنشقّ على نقطة ساطعة تشبه نيزكا يومض عكسيا، أي يومض إلى الداخل! داخل حدقة عين صناعية تغمض زرقتَها على ما يمكن وما لا يمكن رؤيته. وهكذا ينتهي الأمر إلى لا شيء؛ بياض في بياض، ولا أدنى صوت، أو على الأقل بصوت ارتدادي. إنه رواق ممهّد أمامي أنا، مهيّأ لاستقبال خطواتي المتعاقبة، الثابتة، المستحكمة. لا أهمية لطول المسافة أو قصرها. دعني أتقدّم، وبمجرّد أن أتقدم أكثر تتسع الآفاق أمامي. وإذا بذلك الصوت المرافق يرتفع: "أنت في طريق الصواب بينما الآخرون كلهم على خطأ". الآخرون على خطأ، مُمعنون في الخطأ دائما: موتى لا يشعرون بموتهم، جوعى، عطشى، عراة، يتامى، مترنحون.. إذا مشوا تعثروا، وإن هم أرادوا الوقوف اهتزّت الأرض تحت أقدامهم وبقيت تهتزّ! كل شيء يهتزّ! بينما أنا أشق طريقي في ثبات.

شاشة مظلمة. وماذا بعد؟

لا شيء بعد إلا الصمت الذي تعقبه موسيقى ذات رهبة.

يرتفع الصوت المرافق ثانية، لكن هذه المرة مع صدى مؤثر: "إنهم ليسوا أنت فما بالهم لا يتنبهون لبؤس اختياراتهم"؟

وأنا هل اخترت؟

لم يكن لدي ساعتها إجابة عن سؤال الاختيار هذا، غير الاختياري طبعا. أو لنقلْ كانت لدي إجابات لا حصر لها بينما لم يكن السؤال قد نضج في ذهني. إنني أطرحه الآن وأريد استعادة إحساسي بما كنت عليه، وقتها، وأنا أتقدم باتجاه مستطيل الضوء؛ أعني بوابة الخروج.. الخروج مما تبقّى من عالمي للدخول إلى مملكة «نجيب» الموعودة.

# الفصل السابع

# - 1 -

مرّتْ سنة وتلتها سنوات أخر. وانْتقلتُ إلى الصف الخامس. كان زوج أمي لا يزال يهتم بي؛ يوصلني إلى باب القسم ويغادر، وفي أوقات انْصرافي أجده بانتظاري قرب محلّ «كولومبيا»، المقابل لبوّابةِ المدرسة، وهو المكان الذي شهد حدثا مزمنا. (إذا شئت عد إلى آخر ملاحظة -كنت قد طلبت منك تسجيلها على جانب الصفحة- متعلقة بهذا الحدث)، هه.. نعم.. بالضّبط.. يوم غادرتُ الفصل بسبب نوبة شعور بالغثيان أصابتني، وتوجّهتُ إلى زوج أمي لأفاجأ به يلعقُ حذاء صاحب المحل واسمه «الدرّاجي».

لا ضرورة من العودة إلى الملاحظة فسأخبرك حالا عن هذا الحدث المزري بالتفصيل، لكن قبل ذلك؛ دعني أسترسل..

أظن أنك قاطعتني بينما كنت أحدثك عن زوج أمي، وكيف أنه ظل يرافقني ذهابا وإيابا إلى المدرسة، ويكلمني خلال الطريق بحفاوة أبوية لا تخلو من دفء، لكنه دفء لا مصدر له. كان يَبْذل ما يستطيع ليقرّبني إليه، عله يحصل من خلالي على رضا أمي التي هي أيضا كان يسعدها كثيرا أنْ أذكره بخير، وكان يسعدها أكثر أن تراني أتصرّف في حضورِه كابْنة قَبلتْ -مع الوقت-

أن يكون هذا الرجل الوافد أباها البديل. لكن بالمقابل كانت أمي موقنة في قرارة نفسها أنه إذا حدث وأن تلقّى زوجها ذرّة محبّة واحدة من ناحيتي، فإن الشك كل الشك يكمن فيما إذا كان سيستحق هذه الذّرّة الواحدة. إنّها مسألة متعلّقة بالكفاءة، لذا لم يكن ثمة من مجال كي تسير الأمور جيدا، إلا إذا عملنا نحن الثلاثة على تجاهل حقيقة التنافر في صميم مشاعر كل منا إزاء الآخر. إنّها مشاعر غير متجانسة تماما. ذلك أن فردة حذاء واحدة، نزيد عليها برميلا ومكنسة لا تساوي جميعها عدد أفراد أسرتنا الذي لم ولن يكون أبدا (ثلاثة).

كانت أمي هي أمي، لكنني لم أعد أستحقّ أن أَكونَ ابنتها. وكنت أنا ابنتَها ولم تعدْ تستحق هي أن تكون أمي. كما أننا، أنا وأمي، لا يمكن أن نستمر معا مادام ذلك الرجل المسمى زوجها لم يعد يستحق أن يظل معنا ولا أن يظل زوجها، أو بالأحرى لم يعدْ يستحق أن يكون في نظري رجلا.

وهكذا تَكوّن شرْخ من نوع خاص، تكوّن من تلقاء ذاته، ولم أستطع معالجته مع الوقت، أقول: نوع خاص.. خاص جدا؛ كمرض وراثي يظهر في يوم ما لدى شخص ما. لكن قبل أن يظهر فعليا، ألم تكن بذوره جزْءا من تكوين هذا الشخص..؟!.. أفهمت ما أعنيه بلفظة "خاص"..؟.. أقصد.. كأي شرخ عاطفي يتخلل علاقة بين زوجين، ثم يتطور شيئا فشيئا ليصبح فجوة واسعة يحاولان سدّها، يحاولان لكنهما لن يفلحا أبدا؛ لأنهما يجهلان أصل المشكلة التي قد يكون سببها بكل بساطة جماع غير متكافئ مارساه قبل عشرين سنة. أفهمتني الآن يا «بيبي»؟! أقول.. شرْخ.. شرْخ ظهر من تلقاء ذاته وليس في الإمكان تفاديه مع الوقت، بل إنه مع الوقت يستحيل إلى تصدّع فظيع، ومع الوقت أيضا تزداد فظاعته. لقد بدأ كل هذا بالصدفة، يوم وجدتُني أمام زوج أمي ووجد نفسه أمامي مفضوحا من أخمص قدميه إلى سقف المحل الملعون.

دعني أستعمل هذه العبارة: "وظهر بصورته الحقيقية أمامي"..

أقول: "صورته"، ولا أقول: "ظهر بوجهه الحقيقي". ذلك لأنه بلا وجه؛ فهو كائن قفاوي بامْتياز. أقصد أنه من النّوع الذي لا يمكن تذكّره وهو عازم على شيء ما، أو مقبل على إنسان ما. إنه يدبرُ، يدبرُ فقط. يدبرُ بلا نهاية؛ فهو اختصارا مؤخرة زاهدة في سروال قذر، وقدمان متّسختان تجرّان صندلا مهترئا. أما لون القميص فهو أصفر.. أصفر بياقة محمّصة! أصفر.. هه.. تلك الصّفرة التي تتكوّن على مرّ الأيام والسّنين بعد أن تزول الألوان الأصلية، وتزول الأشكال والرّوائح والثّنايا، ولا يبقى إلا زوج أمي بقفاه وأذنيه وشعره الأصهب، وهو يعيش -داخل ذكرياتي التّعيسة- منكبّا في حوار من طرف واحد، مع صاحب محل «كولومبيا».

في الواقع لم يكنْ حوارا، بل كان استجداءً مقيتا بالكلام.

كان يتكلّم كمجنون في صحراء كبرى، بينما يداه تؤتيان حركات غريبة كلّها توحي بالإذلال؛ مرفقاه إلى الأعلى، وكفاه على شكل سلّة بها كلّ البيض. يتكلّم ويدعُ رأسه المتخاذل يميل، فيتبدّل مركز الثّقل في مؤخرته. يتكلّم بإخلاص، فلا يجيبه صاحب محل «كولومبيا»، ويكتفي بالنظر إليه ثم يستعد ليبصق على وجهه، أعني على قفاه. لكنه لا يفعل، بل ينأى بنفسه كأنه يتّقي رائحة فمه.

"أرجووووك.. لا تدعني أبدو هكذا".

أنا أذكر هذا الحدث بكلّ تفاصيله، وأعتبره منعطفا حاسما في حياتي.

كان عمري عشر سنوات وقتها، أو ربما أكثر. كنت في السنة الخامسة، وقد طلبت المغادرة يومها من الدرس، قبل موعد الانصراف، بسبب شعور بالغثيان أصابني، وهذا يحدث معي عادة.

كان أحد الأعوان في إدارة المدرسة قد كلّف البواب بمرافقتي إلى البيت، لكن.. بمجرد خروجي، لمحت زوج أمي داخل محل «كولومبيا»، فاتّجهتُ نحوه، وعاد البواب إلى عمله.

لم أكن أعلم أن زوج أمي يأتي لينتظرني كلّ هذا الوقت. كنت أخرج فأجده مكوّما على رصيف المحل. أقف أمامه فيقوم. ثم يمسك بيدي ويرافقني إلى البيت بكلّ أمانة. ولم نكن نتحدّث في الطريق، أو ربما كنا نتحدّث قليلا، كأن أقول له "أنت تسرع في مشيك كثيرا". أو أعبّر له عن قرفي من العرق الذي تفرزه أصابعه وهو يمسك بيدي. ولم يكن يُظهرُ تذمّرا من كلامي. كان يطلق عبارات أبوية مبتذلة، لا أتذكرها اليوم.

إنني أنسى كلّ شيء، ولا أستعيد إلا تلك العبارة المهولة:

"أرجووووك.. لا تدعني أبدو هكذا.. كقحبة رخيصة".

قال هذا بينما كنت أنا قد دخلت بالفعل. لقد سمعت العبارة بوضوح تام. كان صاحب المحل قد رآني فبقي ينظر إلي. ينظر هكذا.. بينما زوج أمي يُلقي عليه بكلمات مبحوحة.. يائسة.. لا أتذكر منها شيئا. صوته مسموع.. لكنه منخفض.. ورأسه منخفض أيضا.. يتكلّم وينخفض.. ينخفض جدا.. كأنه يثبّتُ مصباحا في السقف.. كأنّ السّقف يضغط على رأسه.. وفجأة اسْتولى الصّمت على كلّ الدنيا، وبقي هو يتكلّم، ويتكلم، فيما نظرات صاحب المحل مصوّبة نـحوي.

كان شابا في العشرين، بعينين سوداوين وشعر أسود، وجاكتة جلدية سوداء، وله كتفان واسعان. عندما استدار بدا كأنه حسم في أمر زوج أمي، الذي هو بدوره استسلم فالتفتَ. وإذا بي أمامه؛ أنا وهو عينا لعين:

"منذ متى وأنتِ هنا"؟

"كنت هنا وأنت تتكلّم، كنت أنتظر أن تنهي".

## - 2 -

"ها هي ذي «سونيا» التي حدثتك عنها، إنها تبدو لأول وهلة مجرد طفلة، لكن سرعان ما تصير؛ كما ترى".

«كما ترى»؛ بهذه الكلمات المتنصّلة من لسانه. قدّمني «الدرّاجي» لصديقه «نجيب»، أقصد شريكه، وهي كلمات ارتطمت أكثر من كونها تناهت إلى سمعي؛ كلمات انفلتت من فمه مبتورة.. ناقصة.. مقتلعة من مكانها الأصلي، أو ربما هو قذفَ بها؛ دفعة واحدة. قذفَ بها، أظن أن هذا التعبير نبّهَ رجال المحاكم فيما بعد إلى اختراع تهمة "القذف". أقول: قَذَفَ بها، ولو أن الظرف واتاه لكان انتقى بضع كلمات استدراكية أخرى ليقذف بها، من جديد، مغلّفة بمسحة مرح خاصة به، لا تزيد جرعاته عن الحد المطلوب. إنه أسلوبه الذي طالما مكّنه من أخذ زمام المبادرة في أي موقف مهما كانت درجة صعوبته أو بساطته. لكن بدا الأمر مختلفا هذه المرة، إذ لم يكن «الدرّاجي» سيد هذا الموقف، فقد تصرف بنوع من التملق، كسبا لرضا «نجيب»، وقد كان حذرا أيضا في تملقه، أو بالأحرى خلال تفكيره بأن عليه أن يتملق، ما استطاع لذلك سبيلا، أليس هذا من حقه وقد نجح في المهمة الموكلة له؟! أي مهمة إحضاري إلى هنا لأكون بين يدي «نجيب»،

فيحصل كل واحد من الآخر على ما يريد. إنها فرصته الحقيقية ليثبت ولاءه التام لشريكه، أقصد سيده، فرصته، والجميع يدرك ذلك، الجميع أو على الأقل «ميرة» التي كانت قبل قليل قد رافقتنا إلى هذه الصالة الفخمة، المغطاة جدرانها بخشب أحمر شديد اللمعان، حيث كان يجلس «نجيب» خلف مكتبه المذهب ووراءه ستارة من قماش خشن بلون العناب. وبمجرد أن دخلنا وقف لاستقبالنا بطريقة توحي بأنه فرغ للتو من عمل معقد. لقد كان يطالع خريطة كبيرة مليئة بالدوائر الزرقاء والمربعات الحمر وأشكال أخرى شديدة الغموض.

لفت «ميرة» الخريطة ورتبت بعض الأوراق ووقفت بالقرب من «نجيب»، وكان وجهها خاليا من أي تعبير. لكن هيبتها بدت طاغية، مما أوحى لي أن «الدرّاجي» يحسب لها ألف حساب. إن حضورها يرسم تلقائيا حدودا شديدة الوضوح، وعلى «الدراجي» الحذر من أن يتجاوز هذه الحدود، حتى خلال تفكيره بأن عليه أن يتملق لسيده «نجيب»، على ألا يكون تملقه مكشوفا، ظاهرا للجميع، أو على الأقل لـ«ميرة»، التي بدت نظرتها حادة، فهي ترى الأشياء وما وراءها، وهكذا فمن العبث أن يحاول «الدرّاجي» تغطية تملقه بستارة من المرح الخفيف. إن نظرتها تلك تقول له: "كف عن تكرار نفسك، أنا أعرف من أنت".

وأنا.. هل أعرف من هو؟

كنت أظن -حتى تلك اللحظة- أنه لو أتيح لي استعراض آلاف الأقنعة، عبر شريط يمر في لمحة بصر، فإنني -ودون أن أهدر كثيرا من الوقت والجهد- سأضع إصبعي الأوسط -بكل ثقة- على قناع واحد معين، وأقول: هذا يليق بذاك في هذه اللحظة بالذات، وأشير إلى صورة «الدرّاجي» الذي

يكون وجهه قد اتخذ تلقائيا الملامح المطلوبة، وفق ما يقتضيه الظرف، في المكان والزمان المحددين، القناع المناسب له في وقت ما، قد لا يكون مناسبا له في كل وقت.

إن ملامح وجهه تتمدد وتتقلص، ترتخي وتتموج، تتفتح وتنكمش، والألوان خلال أجزائها تتضخم وتفيض، تتحلل وتتعمق، والظلال حولها تتهالك وتنزاح، كل هذا يحدث كاستجابة شرطية لحركة مد وجزر داخلية. أقول: داخلية.. لأجعلك تفهم أن الحركة، أية حركة، وإن لم تكن ظاهرة، فهي جزء من الإطار العام للصورة، وأقصد هنا صورة «الدرّاجي» وهو يطلق عبارته السخيفة تلك:

"ها هي ذي «سونيا» إنها تبدو الآن مجرد طفلة، لكن سرعان ما تصير؛ كما ترى..".

"كما ترى"؛ إنها كلمات أطلقها -كما هي- بلا أدنى تهذيب! ثم لم يسعفه الظرف ليكملها، أو ليغطي عليها بمسحة المرح تلك، هذا أسلوبه كما تعلم. ولأن الظرف لم يسعفه، فقد حدث إرباك في نظام الحركة، حركة ملامحه التي تشي برغبة داخلية يضمرها -رغبة- أو بالأحرى حاجة دفينة! وإذن فقد انعكس كل ذلك على صورته، فلم يعد ممكنا الحفاظ على قناعه الخاص بوجهه، ذاك، في اللحظة الخاصة، تلك. لقد سقط بالكامل، سقط فهو ساقط. ورأيته أمامي عاريا -عاريا تماما- رأيته من الأعلى.

أقول؛ كنت أظن -حتى تلك اللحظة- أني أعيش لعبة حقيقية مع «الدرّاجي»، يمكن تسميتها "معرض الأقنعة"، وكنت أتفوق في هذه اللعبة، وكان سرّ تفوقي يكمن في قدرتي الفائقة على توقع حيله الخبيثة التي كان يلجأ إليها عادة، ليشغل الآخرين ويصرف انتباههم؛ حتى لا تتاح لهم فرصة التفكير

بحرية، في إمكانية الكشف عن الحقيقة التي يخفيها وراء وجهه، أو على الأقل حقيقة نواياه. لقد كان يؤثر في خصومه وشركائه وبغاياه وكافة المتعاملين معه، بالطريقة البدائية ذاتها؛ أي افتعال حالة خاصة من المرح، أو أية حالة هامشية أخرى تتماشي مع الظرف القائم، وهكذا يخضع الجميع لأجواء إدهاشية يتقن صناعتها. ومع الوقت صرت أفهم أسلوبه هذا، وهو أيضا صار يعرف جيدا ما أفهمه أنا. وكما قلت سابقا، فقد كنت أظن أن قدرتي على توقّع حيله، هي سرّ تفوقي عليه، إلا أنه تبين في تلك اللحظة، أن قدرتي هذه، في الواقع، هي التي شغلتني عن اكتشاف حقيقته الكاملة؛ ألهتني وصرفت انتباهي عن إمكانية الوصول إلى طبقة وجهه الأصلي، قناعه الأصلي. ولو لم أترجمْ نظرة «ميرة» الحادة التي سددتها نحوه فجعلته مفضوحا أمام نفسه قبل كل شيء، لبقيت حتى النهاية ضحية حيله تلك، أو ضحية شعوري بأني أتسلى بكوني أكتشف دائما حيله. إن «ميرة» تعرف حقيقته الكاملة. لقد نهرته بنظرتها الحازمة لتمنعه من التمادي في فرض ميوعته على حساب أجواء من الهيبة أرادت فرضها منذ البداية، ذلك أن تركيب وتفكيك لعبة مبتذلة أمر لا يستهويها.

إنها بالفعل تعرف من هو «الدرّاجي»، وأنا بفضلها صرت أعرف من هو، ولولاها لما تمكنت من رؤيته عاريا تماما، عاريا حتى العظم. إنه الصورة المطورة عن الحاج حيدر الذي هو الآخر صورة مطورة عن زوج أمي، ثلاثتهم من الطينة ذاتها مع فارق كبير في الشكل والأداء، كل واحد منهم يمثل الطبقة التي ينتمي لها: طبقة فضائية، طبقة أرضية، طبقة سفلى، طبقة ما تحت سفلى وهكذا...

طبعا هذا الكلام يبدو لك غامضا، دعني أسرد عليك جملة وقائع لتفهم ما أقصد:

## - 3 -

"قحبة رخيصة"!

بقيت هذه العبارة تتردّد في أذنيّ وكأنني لا أسمع غيرها. لم تكنْ المرة الأولى التي أسمع فيها كلمة «قحبة». سمعتها لمرات عدة. قالتها لي أمي، لكن بطريقة مهذّبة: "بنيّتي «سونيا»، يجب أن تتفوّقي على الجميع لتكوني معلّمة لا قحبة شوارع".

وسمعتها من زملاء لي في المدرسة، بل إن أحدهم همس لرفيقه:

"أتعرف من تلك المغرورة؟! إنّها بنت قحبة حي القوادين".

هه.. هذا اسم حيّنا، ألم أخْبرك من قبل؟! بعضهم يسميه -تعفّفا- حي (اليتامى)، لكن لا أحد كان يصدّق أنّني من مواليد هذا الحي. الكلّ يصدّق فقط أنني قحبة، وأنا لست كذلك، أو.. لا أستطيع أن أكون إلا كذلك.

في الواقع، أنا لا يمكنني تعريف نفسي. لا أفهم بالضبط من تكون «سونيا» التي يدّعي النّاس معرفتها، بينما هي ماضية في طريقها ولا تهتمّ بالردّ على أحد.

ألا ترى أن الجميع يطلق الأحكام على الجميع، ثم تبدأ مرحلة تقديم التفسيرات والإيضاحات ولا ينتهي الأمر أبدا؟! إنّه سوء الفهم، القاعدة التي تُبنى عليها حياة الناس؛ ثروات تهدر كلّ يوم بسبب ذلك! طاقات تتبدّد، سيول من العرق، أطنان من الحريرات، مخازن غذاء، خراء، أسلحة، بصاق، مني، كلام.. كلام...

الكلام في كلّ مكان؛ في الساحات والمقاهي.. في المساجد والبارات والحمّامات.. في التلفزيونات والإذاعات...

كلّ هذا في معركة تحرّك شروطَها قاعدةُ سوء الفهم. رغم ذلك، فهناك أناس يحالفهم الحظّ في هذه الحياة، فيحصلون من خصومهم على تلك العبارة الذهبية التي مفادها: "لقد صححنا نظرتنا إزاءكم، كنا ضحايا سوء فهم".

أنا لا أهتمُّ بالردّ على الآخرين، ولا أطالب أحدا بتصحيح نظرته إلي، لهذا؛ أنا في نظر الجميع قحبة.

القحبة يا أستاذ كائن ليس لديه الوقت للنّضال ضد طاعون سوء الفهم؛ القحبة كائن خارج المعركة. تَذَكَّرْ أنّك في النّهاية صورة نمطية تحتلّ المنطقة المضيئة.

أنا أعيش في هامش الحياة، لكن لدي ما أقول لتتعلّم أنت.

أنت تكتب حكايتي لتجبر نفسك ونقّادك وأعداءَك على تصحيح نظرتهم نحوك. أظن أن الحظّ سيحالفك في النهاية، فاهْنأ بنفسك. وعندما تنتصر، تصرفْ كمنتصر: كـ ـمـ ـنـ ـتـ ـصر.. هه.. تفهمني؟! حسنا، دعني أشرح لك هذه الفكرة. ركزْ معي، إليك ما يلي: إن المحترفين

لا يخسرون مواقعهم، بل يحافظون عليها بشراسة ويراقبون عن كثب كلّ جديد في سوق اللعب النّظيف، ليطوروا أساليب حماية منجزاتهم، وكذا أدوات الهجوم على خصومهم، وذلك بتلفيق حالات التباس يحيطونهم بها. ثم يزجّون بهم في دائرة سوء الفهم ويتركونهم يناضلون ويناضلون ويناضلون.. إلى الأبد. وهذا أخطر ما في الموضوع يا أستاذ.

جارتنا «بَهيّة» التي حدثتك وسأحدثك عنها، كلما كان المزاج السردي يسمح بذلك، كانت شابة في الثلاثين، وكانت متزوجة من رجل على مشارف السّتين. كانت تقول إنّها تجعل زوجها يرى في عينيها نظرة ماكرة تنمّ عن سوء الفهم، فيبدأ بالرد على ذلك، يضاجعها ويضاجعها ويضاجعها، طيلة الليل، كلّ ليلة. بينما «بَهيّة» لم تكن تشبع ولم تكن تتوقّف عن مكرها.

عاش معها زوجها عشر سنوات يناضل ليحصل على تلك العبارة الذهبية سالفة الذّكْر: "حسنا يا سبعي، لقد صححتُ نظرتي إزاءك، كنت ضحيةَ سوء فهم".

عاش معها إلى أن مات، يحلم بالانْتصار على نظرتها الماكرة تلك. مات وهو في حالة نضال على السّرير، بعد أن تعاطى خلطة أقراص للتقوية الجنسية. لقد مات الرجل، وصارت «بَهيّة» تتحدّث عنه بكلّ خير قائلة:

«كان كالسّبع، وأنا كنتُ أسيء فهمه، لأنّ امرأة أخرى أخبرتني بأن الرّجال في سنّ الستين لا يُشبعون المرأة».

كانت «بَهيّة» هي الأخرى ضحية سوء فهم، من نوع خاص، في وقت لم يعد فيه الفهمُ الصحيح يجدي نفعا. لقد قتلتْ زوجها إذن وصارتْ تشتغلُ قحبة.

# - 4 -

يبدو أني بتّ أفهم الآن لماذا كان يستجيب «الدرّاجي» لطلباتي ويساعدني دون أن يقوى على ابتزازي. ربما كان في أعماقه حب خاص لي، لم يستطع الفوز به، رغم أنه خطّط لذلك بمجرّد أن رآني أول مرة أدخل محله المشبوه، لأجده يدوس على كرامة ذلك الرجل الذي اختارته أمي زوجا لها، يومها اندفعتُ نحوه فجأة، وترجّيته أن يسامحه فاستجاب لطلبي، "إكراما لهذا الوجه البريء" وجهي أنا، ومنذ ذلك اليوم لم أعذ بريئة.

لقد رآني «الدرّاجي» أتخطّى عتبةَ محلّه فلمعتْ فكرةٌ ملعونة برأسه. ومحتمل أنه أوكل مَهمّة الإيقاع بي إلى زوج أمي الذي فشل فشلا ذريعا فاستحقّ العقاب الشديد فيما بعد. وسارت الأحداث باتّجاه آخر، فكنتُ من نصيب «حمو» صديق الدراجي المقرب. وكلاهما من جماعة محلّ «كولومبيا».

لطالما تساءلتُ عن سرّ تشدّد أمي في إبعاد زوجها عن هذه الجماعة؛ هل لأنّهم أفراد سيئون كما كانت تقول هي دائما؟! أم أنّ لديها هي الأخرى في ماضيها منطقة مظلمة ذات صلة بهذا المحل المشبوه، تحاول إخفاءها أو الهروب منها أو ربّما التّحرر من تبعاتها بوضع لافتة حمراء في وجه زوجها،

مفادها: "ممنوع الاقتراب من هذا الخط"؟! لكن زوجها اقترب، وتجاوز الخط، وتجاوزتُ الخطَّ أنا أيضا، بل إننا جميعا تجاوزناه، ودخلنا، دخلنا بمحض إرادتنا، أو ربما أُجْبرتنا الظّروف على ذلك، أو لنقل الصدف، أقصد تلك الصّدف التي خطط لها الأذكياء سلفا، ومهما يكنْ فقد، دخلنا.. دخلنا يا «بيبي».. دخلنا الغابة.. ثم انطلق صوت من وراء الأفق، أو من هنا؛ من أعماقنا! ونادى فينا: "هيا انْقسموا إلى فريقين؛ فريق أول يفترسُ الجميع.. يـ ـفـ ـتـ ـرس فقط.. يفترس برحمة أو بقسوة.. هذا لا يهم! أما الفريق الثاني فعليه أن يؤدي دورِ الفريسة جيدا؛ وهكذا تسير الأمور بسلام..".

من المضحك حقا يا «بيبي» أن يكون «الدرّاجي» قد وقع في حبي ولم يشأ أن يعلن ذلك. حسنا، دعْني أخبرك بشيء بالغ الأهمية؛ يقع تحت عنوان: (الخلل العاطفي). أو. بتعبير أدق: (خلل طارئ؛ أساسه عقلي بحت، أما نتيجته فهي عاطفية جدا)، وأعني هنا أن فجوة ما! ولسبب بسيط غير متوقّع طبعا، تشكّلت.. تشكّلت في وقت خاص:

تـ ـشـ ـكّـ ـلـ ـت.. يا «بيبي» ولم يتنبه أحد لأهميتها، وفيما بعد، صارتْ هذه الفجوة هي كل شيء. أظن أنّك لم تفهمني. حسنا، سأعطيكَ مثالا: أُنظرْ إلى هذا الجدار، أُنظرْ جيدا، إنه جدار كامل، متقن البناء ولا خوف عليه. لكن من المؤسف أن في هذه الزاوية من الجدار يوجد ثقب لعين؛ الثقب هو الخلل الوحيد في الجدار أليس كذلك؟! لنقمْ بتجربة، اغمضْ عينيك وتخيلْ أن الثقب صار هو كل شيء، فيما بقي الجدار على حاله، والنتيجة: جدار لعين في ثقب كامل! لقد بات الجدار هو الخلل الوحيد في الثقب؛ أفهمتني الآن؟

مادام القبح يسود بمنظوماته الكاملة حياتنا هذه، فلا شك أن أية نقطة جميلة ستكون بمثابة الخلل الذي -إذا ما اتّسع أكثر فأكثر سيهدد استقرارنا- استقرارنا القبيح. ولهذا يجب اسْتئصال أية نقطة جمال تطرأ علينا قبل أن تستفحل فيسقط النّظام بكامله.

الأذكياء يا «بيبي» ممن يتحكّمون في موازين حياتنا، ليس دورهم أبدا أن ينصروا أبطال الجمال في معركتهم الطّاحنة ضد كتائب القبح، وينصروا أصدقاء الحقيقة في نزالهم المرير، غير المتكافئ، ضد لوبيات الزّيف والكذب.. الكذب صار أكثر إقناعا من الصّدق، بفضل مجهودات الأذكياء الذين يكرّسون حياتهم في حماية الاستقرار ومحاربة الفوضى.

والواقع أن الفوضى كان يمكن أن تبدأ، ومع الوقت تتّسع، لتهدّد استقرار البلاد والعباد.. تبدأ.. نعم تبدأ من إحساس صغير في جدار مشاعره. أقصد «الدرّاجي»؛ إحساس صغير كثقب ارتسمَ في زاوية مهملة بأعماقه! لكن قوة ما، لا مجال لردّها، تدخّلتْ وخيّرته بين طريقين: اسمعْ، إما أن تسمح لحبّك أن ينمو ويزهر ويمدّ أغصانه فتربحَ رهانك وتخسرَ كل شيء وتنضم إلى زمْرة الأشقياء في آخر القصّة، وإما أن تنعمَ بولائك لفريق المنتصرين.. افترسْ، وإلا ستكون فريسة، والواقع أن «الدرّاجي» لم يستجبْ تماما للقوة التي تدخّلتْ، بل قرّر أن يناضل حتى يكون جزءا من هذه القوّة، لقد أصبح رجلا مهما من حماة الاستقرار، ولا شكّ أن نظام القبح السّائد يعوّل عليه ما أن يُثبتَ جدارته إلى النهاية.

أظن أن «الدرّاجي» بالفعل أحبّني، أو على الأقل خطّط أن أكون جزءا مهما من حياته: لنقلْ عشيقته مثلا.. أو شريكته في مشاريعه المعلنة والخفية.. لكن، عندما أفلتَ الخيط من يديه اكْتفى بأن أجالسه.

قال لي ذات مرة:

"اسمعي يا سونيا.. هل تدرين.. هل تدرين كم يمكن أن تصبحي أغنى امرأة في هذا البلد.. دون أن تشتغلي أو تتآمري أو تضاجعي رجالا بائسين"!

وعندما سألته: كيف؟

أجابني، وكان ساعتها ثملا، وعرق الحكمة يتصبّب على جبينه:

"في هذا البلد، دون سواه، افْهمي، في هذا البلد رجال من نوع خاص، متفوّقون وأثرياء، يسعدهم جدا أن تجالسيهم فحسب".

كانت هذه أول مرة أسمع بهذا النوع الخاص من الرجال، وبهذه المهنة الخاصة المسمّاة "مجالسة"، إنها مهنة ذات صلة بالبغاء، لكنها على أية حال ليس بغاء صريحا.

عندما قابلت «نجيب دواوة»، عرفتَّ أنه رجل من النّوع الخاص، وأنني أفضل من تتقاسم معه جلسة ودّية يغيب فيها الكلام واللّمس أحيانا، لكن النّشوة تظلّ طاغية على وجهه، وأظل أنا ملتزمة بدوري.

«نجيب» وعدني في أول لقاء وحقّق وعده في اليوم الثاني، بأن وضع الصّورة المطلوبة بين يدي، وكان الكاتم يظهر بوضوح تام. أصابتني الدّهشة ساعتها، وتزاحمتْ الأسئلة بلساني، ولم أعرفْ ما أقول!

أمسكَ «نجيب» يدي، ورفعَها على طريقة أبطال السينما، كأنه يريد تقبيلها، ودون أن ينظر إليّ قرّبها من فمه، ثم رفعَها إلى ناحية جبينه. وأمالَ رأسه إلى الخلف فصارتْ يدي بمستوى أنفه! وبصورة مفاجئة راح يتشمّمها، كأن على ظاهرها مسحوقا مخدرا.

لم أجدْ لحظتها كلمات تصلح لهذا الموقف، فسألته: "وماذا عن الصّورة"؟

- لا تهتمي بها.. لدينا من يجيد قراءتها.. لدينا "محقّق".

- محقّق؟!

- أجل محقّق.. وسيساعدك حتى على طرح الأسئلة.

- وأين ألقاه؟

- سيكون معك الآن؛ أخبريه أنك تعملين هنا.. في مكتبي.

- وما عملي المفترض في مكتبك؟

- إنه عمل بسيط؛ أنت منذ الآن سكرتيرة.. هل توافقين؟

## - 5 -

"قحبة رخيصة"..

"لماذا سمحتَ له أن يجعلك تقول هذا"؟

هكذا سألتُ زوجَ أمي بينما كنّا ندخلُ باب العمارة التي نسكن فيها؛ هاه.. سألته بكلّ بساطة.

في الواقع لم أواجهْه، هكذا؛ عينا لعين! كنت أنظر إلى قدمي وأنا أحركها، كأنني أداعبُ كرة غير مرئية. وربما كنت أرفعُ جوربي بطرفي إصبعي. إنّها حركة معتادة. أنت تعرف هذا. وقدّرتُ ساعتها أن زوج أمي كان مذهولا. لكن فجأة، وبعد برهة من الصّمت، أمسكَ بساعدي وصوّب جميع نظراته إلى عمق بعيد في ذاتي. لقد تَغيرتْ جميع ملامحه دفعة واحدة.

امْتلأت عيناه بالهيبة.

أظن أنّ زوج أمي مثال للرجل الخالي تماما من الهيبة. إنه يجعلكَ تشعرُ بالشّفقة إزاءه.

لا.. لا.. بل إنك تستكثرُ الشّفقة عليه. لكنْ في تلك اللحظة اخْتلف الأمر معه. بدا لي عازما على وضع حدّ لجرأتي. وهذا الإحساس لا يعادل خطورته إلا إحساسي وأنا أطلقُ سؤالي المهول عليه:

"قحبة رخيصة.. لماذا سمحتَ له أن يجعلك تقول هذا"؟

في نهاية الأمر اتّضح أن نظرة الهيبة تلك التي ارتسمتْ على وجه ذلك المدعو زوج أمي لم تكن حقيقية. لقد حدثتْ بالصدفة أو ربما نتيجة تفاعل جملة من المشاعر المتناقضة، تهاطلتْ عليه وهو يسمع سؤالي الجارح، ويتذكّر الموقفَ المخزي مع صاحب محل «كولومبيا»، ويفكّر في الوقت ذاته، بعقاب شديد محتمل أن تسلّطه أمي عليه، ما أن أُخبرها أنا بذلك.

إنّه شيء بالغُ السّوء بالنسبة له، فلا أحد بوسعه أن يتوقّع ما سيحدث له بعد أن يصلَ الخبر مسامع أمي.

لقد توسّل إليّ أن أكتم سرّه، وأقسمَ بأغلظِ الأيمان كما يفعل شاذ مراهق، أنه سيقطع كلّ علاقة له بأيّ كان في هذا الحي، إرضاء لي ولأمي.

أعجبتني الفكرة، ومنذ ذلك اليوم لازمتْ صوتي تلك البحّة المرتابة، صوتي الذي تطرأ عليه تحوّلات مع كل كلمة جارحة أواجهه بها؛ أي نعم، مع كل كلمة! دائما كنت أصغي لانعكاس الكلمات في نفسي قبل أن أدلقها عليه دفعة واحدة فيتبلّل من أخمص قدميه إلى قمة رأسه.

كل كلمة تجعله يتصبّب خزيا. ويحدث أن يحاول اختلاق شيء ما ليجفّف ثقل ما بأعماقه. وعندما يعجز عن ذلك يقوم بترتيب ضحكة مترهّلة تحت أنفه المحمر، بينما يده تـحكّ بين عظمتي مؤخرته.

ومع الوقت صرتُ قادرة على استثمار خوفه من أن يـجنّ جنوني وأخبر أمي بكل الكلام الفاضح الذي تفوّه به في حق نفسه أمام صاحب المحل.

لقد اكتسبتُ قدرا هائلا من النّضج على حسابه، بل إنني صرت أتحدث إليه بندية لا تخلو من احتقار، أو في الواقع صرت أحتقره، ليتك يا بيبي توفق في وصف زوج أمي بعد ذلك المشهد الإذلالي اللعين، حاول.. لقد كان الدراجي يهينه وهو لا يقوى على الرد، ثم؛ لا شيء! لقد عدنا في ذلك اليوم إلى البيت، أتذكر صورته وهو يمشي ملتفّا حول نفسه، وأنا بصمتي أدعم إحساسه بالاضمحلال مع كل نظرة جانبية أرمقُه بها.

كان بحقّ كتلة قشيّة الخطى يتهدّدها الزوال. لا طنين، لا كوميديا، لا شيء إلا الحزن الذي يتفشّى في الأعماق. حشرة جبانة. كيان من الخزي والانكسار يفوح تعاسة وخوفا من أن يصل الخبر إلى أمي. لهذا وعدني يومها بقطْع كلّ صلة تربطه بصاحب محل كولومبيا. إلا أنّ ما حدث فيما بعد هو العكس تماما، إذْ أنّه بقي على علاقة به، وبقي عرضة لضغوط كنتُ أجهلها. ثم اعْترف لي ذات يوم أنّه متورّط في ديون عليه تسديدها للدراجي.

صدّقته من باب المجاراة، وبدأتُ أتردّد معه على محل «كولومبيا» وأسمع أحاديث لا أستوعبها.

كان «الدرّاجي» يؤنّب زوج أمي بقسوة باردة ويسخرُ من رجولته. وكان يدعه يتكلّم دون أن ينظر إليه، حتى يستحيل كلامه إلى حشرجات وتتقطّع أنفاسه فيبكي البكاءَ الذي بلا دمع ولا خلفية موسيقية. البكاء الميّت. البكاء المحبوس في نقطة ما داخل الحلْق. البكاء الذي يتجاوز إرادة الباكي والمبكي.

«الدرّاجي» من هنا، زوج أمي من هناك، وأنا بينهما! أكون بينهما واقفة على الحافّة؛ ورائي صخرة عالية توشك أن تتدحرج وتسحقني، وأمامي جرف مظلم يسحبني إلى جوفه. وأنا واقفة.. واقفة! وفي الدّاخل إحساس عارم بالرّهبة يدوس على طفل الشّفقة الذي يئن في أعماقي بلا توقف.

وفي لحظة غير متوقعة أندفعُ نحو «الدّرّاجي» وأترجاه أن يسامحه. وكان «الدرّاجي» بعد برهة صمت يسيرة يربّت على كتفي قائلا له: "سأمهلك إكراما لهذا الوجه البريء".

وظلّ «الدرّاجي» يمهل زوج أمي ويمهله. لكن، مع كل مهلة يعطيها له كان يضيّق عليه الخناق أكثر فأكثر، ويمعن في التّنكيل به. وبدا لي وقتها أنّها مجرّد لعبة تقتضي أن يضاعف الرجل "المفترس" من أساليب الضغط على الرجل "الفريسة" الذي بدوره يستجيب لهذا الضغط بأن يجتهد في مضاعفة قابليته للإذعان والتذلّل كسبا للوقت.

لم يكن زوج أمي يقاوم «الدرّاجي»، بل كان يقاوم خوفه من أن يظل مطلوبا منه التفريط في احتياطي الكرامة الإنسانية المتبقية لديه. وهذه المقاومة كلفته بعض الجهد الضّروري لتكون اللعبة مكتملة. وعند أول نقطة حسْم خارتْ قواه، فاخْتار أن يقدّم نفسه لقمة سائغة "للـ...لاشيء".

لقد بلغ درجة الاضمحلال، وبلغت أنا تلك المرحلة من التّشوه الصّميمي بحيث لم أصبح جديرة بوجه تشفع براءته لزوج أمي المتورّط فيما هو أكثر من الديون أمام «الدرّاجي» القادر على قهر جميع الناس وتوريطهم وإغراقهم في الوحل دون أن يضطر لِلَمْسِهِمْ؛ حتى لا تتلوث يداه النقيتان!

يا له من حكيم وصاحب رباطة جأش! ويا لزوج أمي المنحرف المريض بالمقايضة الهابطة!

لقد تبيّن لي مع الوقت أن زوج أمي مجرد محصول خراء يرقص بحذاء سميك. يستهلك الكحول والحشيش إلى حدّ الإدمان، ويحصل على مؤونته كلّ يوم، مضافا إليها بعض المال مقابل خدمات خاصة يقدمها لصاحب محلّ «كولومبيا».

لم يكن زوج أمي سمسار عقارات كما توحي بذلك مؤخرته الممسوحة. إنه قواد مزيف يجلب العاهرات لصاحب محل «كولومبيا» الذي يوزعهن على زبائنه من المعارف والأصدقاء، حسب خصوصية الطلبات. وهكذا لم ينقصني أي شيء لأفقد براءتي، ولم يعد ينقصه هو سوى أن يسير في الشارع رافعا لافتة مكتوبا عليها: "أنا الرّمز الكامل لأسلوب الحياة المشوّهة".

بسبب هذا انتهكت كلّ الحواجز في علاقتي بزوج أمي، فكنتُ أخرج برفقته أحيانا خفيةً عن أمي لنحضر مواعيد سريعةً مع أشخاص مستعجلين، يتحدّثون عن أمور مثيرة وغامضة، وأصحاب سيّارات يسمعون الكلام ويوافقون بسرعة، ورجال محترمين في هيأتهم، ونساء يمضغن العلك ويشتغلن عاهرات، وشباب مخنّثين وباعة مخدّرات ولوطيّين وقوّادين وشرطة.

لقد أمعنت في إذلاله وإهانته، وكنت أرتّب معه جلسات خاصة للحديث البذيء واللعب الماجن.

دخنتُ الحشيش من لفافته في مناسبات شتى وتذوقت البيرة من كأسه. لبست سرواله الكريه. تفرجت على حيوانه الذكري المجعّد المسترخي تحت

بقع من الحُمرة الذميمة تعلو قوس عانته. تعريت أمامه وامتطيت ظهره! عرّيته حتى من جلده، ورأيتُ ببصري الحاد الماكر مثانته وأمعاءه.

عرّه أنت أيضا يا «بيبي»، نكلْ به في نصّك، أفرغْ حاويته الذهنية، أفرغه مثل قنّينة النّبيذ، صبّ عليه المزيد من الزّيت والكبريت، ثم أشعلْ سيجارة ودخّنْ بمرح! دخّنْ.. وفي آخر المشهد ارمِ سيجارتك ودع المشهدَ يحترق. هكذا نحصل على زوج أم شبيه بالظّلام، لا وجود له. فيما بعد تأتي سيّارة المطافئ، تفرغ حمولتها من السّائل المنوي ويخمد الحريق.

إن زوج أمي ليس قوادا مهنيا محترفا ذا همّة وهيبة، فهو لا يستخدم أساليب الإقناع أو التهديد أو الإغراق بالهدايا الفخمة للتحكم في مصير مومسه الخاصة، ولا يوفّر لها الحماية ولا المأوى، ولا يستطيع أن يمنع الشرطة من القبض عليها. كما أنه ليس من ذلك النّوع الذي يستخدم العاهرات في مصالح تجارية لحسابه مع عملاء ذوي نفوذ كبير أو محدود.

إنه قواد متطفّل، وضيع. يكتفي بتجنيد العوانس والمطلقات من ذوات الخبرة المحدودة في الدعارة لأداء خدمة جنسية مؤقتة لحساب أي شخص كان في أي ظرف كان. وهو مستعد أن يكون جزءا من هذه الخدمة بالمساعدة في فكّ سحاب السروال للطّرف الأول وترطيب مهبل الطرف الثاني، ومستعد للمناصرة والتشجيع عند حدوث كلّ هزّة جماع. قواد من نوع خاص، يلتزم بمبادئ عمله لأنه لا يؤمن بها، يقاوم جشعه لأنه جبان، يفي بوعده لأنه عاجز عن الغدر وينصاع بسهولة لأنه بلا إرادة؛ منهك، منتهك.. مجوف وقميء؛ لا معطف مبهرج، لا حذاء يلمع، لا غرور، لا هيمنة ولا ثقة.

وأنا هنا، نكاية فيه وفي كل شخوص الوهم؛ أمارس شرودي لأرتفع إلى الأعلى، ذلك أن في أعماقي أغنية دافئة كخبز الدار، مسترسلة وغامضة كحلم؛ ألحانها تستعصي على هذا العالم الموبوء بكل ما فيه، وبزوج أمي. وربما تستعصي عليك أنت أيضا يا «بيبي».

هل جربت أن تغني لتحلم؟!

يا الله ما أروع الحلم، أريد دائما أن أغني وأحلم. أما أنت فاجْلسْ صامتا على المقعد أو قرفصْ قرب قدميّ، وان شئت فاحلم معي.

«بيبي» أنت يا «بيبي» المناضل، ابدأ معي الحلم، أرجوك، ابدأ.

عدّ من واحد إلى ثلاث، أو إلى ما لانِهاية. ثم انطلقْ بخطاك الواسعة، سابق الريح واقهر البراري، ولا تعدْ إلا ميتا أو فلتعدْ حيا، ثم خُذني بعد ذلك في جولة قصيرة إلى سوق المدينة، أو خذني.. خذني إلى البحر! وإن شئت خذني إلى سفح جبل شاهق؛ كذاك الذي رأيته في غيبوبتي وأنا على سرير أبيض في سيارة إسعاف.

في الواقع لا أدري إن كانت بالفعل سيارة إسعاف، لكنها على أية حال ليست سيارة عادية، إنّها كبيرة جدا؛ مجهّزة بباب في الخلف ذي دفّتين. تفتَحُ دفّة واحدة منه وتغلق بلمحة بصر، بإشارة من أحدهم. ويبدأ طريق السلامة.

ويحدث أن أكون ممدودة، وأميل ببصري فأرى شخصا إلى جانبي، بعينين زرقاوين، ينظر بإمعان، ينظر هكذا، ليرى كلّ شيء، في لحظة واحدة، دون أن تتحرك رموشه.

يا رب، في أي مدرسة تعلّم هؤلاء هذه النظرة التي تجعلنا نقع من أول فحص، فريسة لفخ القبول بكلّ ما تتوقعه منا "عينان نفاذتان، محترفتان، يلين لهما الفولاذ وينهار أمام دقتهما"؟

إنه مخدر يسري في كيانك بنعومة فائقة، فيجعلك تستبعد فكرة المواجهة وتختار الرضوخ لإنهاء الأمر بسرعة. لكنّ ما تأمله لا يتحقّق عادة، وتجدُ نفسك مرة أخرى عرضة لضغط أشد.

هنا لا يكون بوسع عقلك إلا أن يستنجد بحالة الإغماء التي تدخلك عمق الدور المطلوب منك، إلا أنها في ذات الحين تُحرّرك من الإرهاق المسلّط عليك، إلى حين. ثم تبدأُ بالهذيان، وتضمحلّ كلّ مشاعرك وتدخل فصلا قصيرا من الغياب التام عن الوجود، ترى فيه أهوالا وكوابيس مزعجة، وقد يكون حظُّك جميلا فيطالعك حلم تنشقّ عنه مرآه سحرية:

[مرآة تنهض من سطح بحيرة، وتعكس لبرهة وجيزة ذلك الغموض الشفّاف الذي يتأنّث له الأفق، ثم تتلاشى تلك المرآة تحت ضوء قمر يضيء الطريق لموكب من النّساء بفساتينهن المزركشة، يجبن دروب القرية ويلوحن بالمناديل الملوّنة فيضوع الطّيب من رؤوسهن، وترتفع أغانيهن وابتهالاتهن إلى السّماء وهن يطلبن الغيث ويتضرعن إلى الله بالدّعاء أن يلطف بقريتهن الصغيرة ويعطيها من فيض رحمته. وعندما تحجب الغيمة الكبيرة ضوء القمر تنطلق زغردة حارة، وتنتهي مسيرة نساء القرية لتبدأ حفلة الرقص.

أقدام تلامس الأرض ولا تتركُ أثرا.. أقدام بيضاء.. أقدام قمحية.. سمراء.. حافية ومكتنزة.. أقدام تلمع.. بينما الخلاخيل الفضية تنثر رنّاتها الرقيقة فيتّسع وجه القمر.

الأيدي المحنّاة الناعمة المزهوة بالخواتم تتموّج كشعلة منتشية باحْتراقها.

عند الفجر تخرج الفتيات من وراء الهضبة غير البعيدة ويتقدمن بخطى متناسقة متناغمة، ثم يتحلّقن حول صنوبرة ضخمة ويبدأن بالغناء ولا يتوقفن حتى تأتي سيدة -هي الأكثر إنجابا للإناث في القرية- ثم يكون عليها أن تربّت على كتف كلّ فتاة، ولا تكفّ عن التّربيت حتى تستقرّ على اختيار واحدة منهن عروسا للموسم الجديد.

في صباح اليوم التالي أكون أنا العروس الوحيدة في القرية، وتكون الهضبة وراء الصنوبرة الضخمة -تكون هكذا دائما- مع مطلع الشمس. لكن سرعان ما تبتعد أكثر فأكثر كلّما تقلّص الظل؛ فهي بذلك آخر شيء وليس بعدها أي شيء.

يا لعطر الصّباح الفاتن.. ويا للسّماء التي تنتهي عند حدود القرية من جهة الشمال.. ويا للرّعاة الذين غامروا مصطحبين أغنامهم ودوابهم ولم يعودوا من هناك أبدا! لقد الْتهمهم المجهول ولم يمهلْم وقتا لسرد حكاياتهم. إن هذا ليأسر القلب حقا!

حطّ ذكر حمام على رقعة من العشب اليابس وحطّت أنثاه الحمامة البيضاء، وصارا يلقطان الحَبَّ. ثم هزّتِ الأنثى برأسها، وكنتُ أنا أقترب منها. فجأة طار الاثنان معا في لمحة بصر، وتلامس جناحاهما فاصطفقا. سقطتْ منهما ريشة بينما ظلهما لا يزال على رقعة العشب. نظرت إليهما وهما يحلّقان، باتجاه الشمال.

انحنيت لألتقط الرّيشة، وأذهلني أنّها ليست غامقة اللون كما ريش الذّكر وليست بيضاء تماما بلون الأنثى! إنّها ريشة بلون هو مزيج من هذا

وذاك، وأخذتها بالفعل وابتسمت. مرّرتها على أنفي، على شفتي، على رقبتي. واستسلمت لحلم جميل في زمن آخر كنت فيه أنا الطفلة الوحيدة أجري بين الصّنوبرات، وما أن أجد سياجا حتى أقفز عاليا، عاليا جدا، وأمكث بعض الوقت في الهواء. ويحدث أن أغمض عيني وأعدّ من واحد إلى ثلاثة، وإذا بقوة خفية تبطئ مشهد وقوعي، و...]

فجأة انقطع الحلم برشّة ماء على وجهي لم أدركْ مصدرها. وجدت نفسي ممددة على سرير أبيض في حجرة باردة، عالية السقف.. في الواقع لا أدري إن كان بالفعل سريرا أبيض أو طاولة تشريح أو مقصلة.

أو أنّها شيء من كلّ هذا.

# - 6 -

بعد أيام قضيتها أتردّد على «ميرة» في مقرّ عملها وأتحدّث معها ـ كلما كانت الفُرصة سانحة ـ عن طبيعة التّدريبات التي سأتلقّاها اسْتعدادا لعملي في مكتب نجيب، بدأت أشعر بخوف حقيقي مما أنا مقبلة عليه! فالحياة التي تقدّم لي ابتسامتها جاهزة كل صباح، إنما هي تغريني بالانغماس أكثر في أجواء التّرف المحيطة بي داخل شركة نجيب، حتى إذا ما تماديت وتماديت، وجدت نفسي -آخر الأمر- ضحية ابتسامة الحياة المخادعة؛ تلك التي سرعان ما تتحول -لحظة سقوط القناع- إلى وحش ينهشُ الذّات من الداخل.

حاولت التقرب من ميرة لأكتشف سر طمأنينتها، أو لأسحبها إلى حديث ودّي، بعيدا عن حكاية التّدريبات تلك، التي لم أكن مقتنعة بها؛ فأنا أعيش في بلد لا يتدرّب فيه حتى الوزراء على تسيير شؤون وزاراتهم فما بالك بي أنا؟! قلت هذا لميرة فضحكت ودعتني أن أتمدد في غرفة مخصصة لـ «حسان»، يعد فيها الشاي والقهوة وبعض الوجبات الخفيفة لموظفي الشركة، ويكون مسموحا له أحيانا أن يرتاح فيها ويشاهد التلفزيون، كما أن بعض العاملات يستعملنها لتغيير ملابسهن وإصلاح شؤونهن الخاصة.

«حسان»؛ هل تذكره يا بيبي؟ أجل هو؛ ابن الحاج حيدر! وقد صار فيما بعد صديقي المفضل. إنه نحيل كفتاة حالمة، يدخن وهو يمضغ العلك وفي صوته بحة لذيذة. له شارب دقيق، دقيق جدا!

ذات مرة سألته: هل رسمت شاربك بقلم كحل؟

ابتسم لي وانصرف إلى عمله. كنت ألتقيه أحيانا أثناء تجوالي بين المكاتب، فتشدني إليه سحنة الإخلاص التي لا تفارق ملامحه.

نادته ميرة وأمرته أن يفتح لي غرفته لأرتاح فيها. فعل ذلك دون أن يبدو عليه أي تذمر، بل بالعكس تماما؛ لقد رحب بي وتصرف كمضيف ماهر.

بقيت في غرفة «حسان» أكثر من ساعة، جالسة على طرف السرير؛ أنظر إلى الفراغ دون أن أوفّق في فرز إحساس واحد من جملة أحاسيس تهاطلت على ذهني فشتته. كان ذلك من فرط القلق الذي منعني من امتلاك إرادة الوقوف على نقطة تفكير محددة، أو التخلص من كل ذلك مرة واحدة بالقيام إلى أي عمل مهما قل شأنه. ماذا لو أعد قهوة بنفسي في غرفة «حسان» وأتسلى بمنظر البخار يتسلق سلما وهميا؟ ماذا لو أجد صرصورا فأدوس عليه؛ أدوس بشدة وأتمعن في رؤيته يموت تحت حذائي؟! أو أزيل غبارا عن شيء ما؟ ماذا لو أطرق مسمارا في الحائط أو حتى أفتعل سعالا شديدا؟!

أريد أن أشغل بالي للحظات تكفي لاستعادة مستوى مقبول من الصفاء.

بقيت جالسة أنظر. أنظر فحسب. أنظر بإصرار ميت؛ حتى لكأن بصري سيفتح ثقبا طريا في زجاج النافذة المقابلة! بينما يدي تُمَسّح على أصابع قدمي بحركة تلقائية سلسة، تُمَسّح برفق بالغ. انتبهتُ إلى هذا فجأة. يدي تتحرك بسلاسة فتبثّ الدفء في قدمي؛ يا للشعور بالنعومة!

هناك بقعة من الضوء تتّسع على السرير وهذا ما يوحي بأنّ اليوم أربعاء.

أغمضت عيني وفتحتهما: إن نهارات كهذه عادةً ما تكون رائعة لنذهب بإرادتنا إلى لحظة الموت. خرجت من غرفة «حسان» وقصدت مكتب «ميرة»، وجدتها تقلب بعض الأوراق. وقفت لبرهة جامدة أمامها ثم: "«ميرة» أنا عازمة على تدمير حياتي".

إنها المرة الأولى التي خاطبتها باسمها.

- ماذا تقولين؟

- قلت أريد أن أموت.

كلنا سنموت في النهاية فلماذا العجلة؟!

لكنني أريد أن أموت الآن.. وإلا فلا داعي أن أموت أبدا.

وماذا يحدث بعد أن تموتي؟

لا شيء.. أظن أنني سأرتاح.

...

...

- أريد أن أموت.

- لن تموتي وأنا معك.

حضنتني «ميرة» ومسحت على شعري بحنان يصعب أن أصفه؛ يشبه -تقريبا- شعورا بالدفء في أحشاء أنهكها جوع بارد.

همست في أذني: "أعرف كل شيء.. لا تخافي". كان لوقع هذه العبارة أثر كبير في نفسي منحني قسطا من السّكينة. جلست بالقرب منها فمدّت

يدها ووضعتها على خدي قليلا فملتُ برأسي على يدها. قالت: يااااه.. القطة حزينة!

أعجبني هذا التعبير.. ابتسمت.

كما ترى يا بيبي؛ مجرد تعبير بسيط قد يزيل بعض الأحاسيس القائمة! يزيلها، لكن ليس تماما. إنه على أية حال يساعد على ربط هدنة مع الحزن، أليس هذا ما كانت تريده القطة! يا لهذا التعبير؛ القطة تبتسم!

اكتبْ هذا في روايتك وكفّ عن ملاحقة التفاصيل، لا وقت لقرائك كي يشغل بالهم التفكير بابتسامة؛ ابتسامة مُفكّر فيها، ابتسامة دون تفكير.. تفكير بطريقة مبتسمة، تفكير مبتسم، ثم..

- علي الخروج من هذا المكان.

- أجل.. عليك الخروج.

دقّت «ميرة» جرسا على طرف مكتبها فجاء «حسان» مسرعا. أعطته مفاتيح صغيرة وكيسا وأشياء أخرى وأخبرته ببعض الأمور التي يصعب علي فهمها: "ما إن تصل، احرص أن تشغله، واحذر أن.. آه صحيح إن وجدته في المحل.. ادفع له مسبقا.. تلك ضعها في الدرج الأسفل.. إنها مجرد إشعارات.. مجلات مجانية تطالبني بتأكيد صحة العنوان..

والآن؛ اصطحبْ «سونيا» إلى شقتي بالكهيف وساعدها على ترتيب أمورها".

كان هذا في يناير الماضي 1998. وكانت «ميرة» وقتها تستعد للسفر إلى باريس:

- اذهبي، لن ينقصك شيء هناك، سألحق بك فور عودتي.

# الفصل الثامن

## - 1 -

اسمها «ميرة». ولدتْ وتربّتْ وأتمّتْ جميع مراحل دراستِها في باريس. كان والدها، خلال سنوات حرب التحرير، مقاتلا شرسا لا يعرف الاستسلام للأعداء، لكنه كان ينتمي إلى جماعة منبوذة تحمل اسما غامضا يصعب عليّ تذكره الآن. إن شئتَ يا بيبي سأتصل بـ«ميرة» لأسألها عنه، أو ابْحثْ عنه أنت في الجرائد أو في كتب التاريخ، ستجده بالتأكيد، فهي جماعة معروفة لدى المهتمين بهذه الأمور، أو على الأقل ليست مجهولة تماما.

كان والد «ميرة»، واسمه «مسعود»، يحارب الفرنسيين. لكن قائده الكبير آنذاك كان على خلاف مع جيش التحرير. وبمرور الوقت تنامى هذا الخلاف إلى أن بلغ درجة العداء. وهكذا صار «مسعود» كرفاقه في الجماعة المنبوذة، مطلوبا تصفيته من هنا وهناك. الفرنسيون من ورائه وجيش التحرير من أمامه.. والأسوأ من كل هذا أن جميع أفراد عائلته أُبيدوا تماما، فيما سبق، لأسباب لا علاقة لها بحرب التحرير، وصار هو فيما بعد يحاول الانتقام من قتلة عائلته.

تقول «ميرة» إن هذه القصة الدامية بدأت عندما اتّهمتْ عشيرة مقتدرة، والدها بأنه اختطفَ إحدى بناتها وتزوجها في كهف جبل، ثم عاد بها إلى

قريته، وهي تحمل جنينا في بطنها. بعد ذلك قام أفراد أشداء من تلك العشيرة، باقتحام منزل «مسعود» ليلا؛ أطلقوا الرصاص في كل اتجاه.. أحرقوا وهدموا كل شيء طالته أيديهم، لكن «مسعود» كان قد أفلت منهم بأعجوبة واستطاع الوصول إلى غابة تقع بعيدا عن قريته. هناك عاد هؤلاء لملاحقته مجددا حتى أصابه أحدهم برصاصة شّقت باطن فخذه فظن «مسعود» أن هذه نهايته.

عاش والد «ميرة»، منذ ليلة الدم تلك إلى يومنا هذا، يعتقد أن الموت أجبن من أن يجرؤ على ملاقاته، مرة أخرى. ويقسم أنه سيظل قادرا على مواصلة التنفس حتى نهاية التاريخ. لقد رأى الحياة بعينيه، رآها على شكل خيط حريري، ورأى نفسه على شكل جثة معلقة بهذا الخيط، بينما في الأسفل تتّسع هاوية مظلمة لا حدود لها. وفي لحظة فاصلة اكتسحته حمّى الفناء وفقد إحساسه بالوجود. لكن قوة خارجية مجهولة المصدر ململتْ جثّته بعد ذلك ودَعَتْها أن تتحرك، فتحركت الجثّة. ثم دعتها أن تتقدم فتقدمت.. تقدمت الجثة وتسلقت شجرة صنوبر كثيفة.. تسلّقتها مستعينة بتلك القوة الخارجية، قوة سحرية خارقة سوت أغصان الشجرة ومهدتها لتكون مخبأ لجثة «مسعود» الذي بقي حتى الفجر ضامّا جرحه النازف إلى أن كُتبت له حياة جديدة.

بعد أشهر قليلة أشيع بين الأهالي أن «مسعود» يزور قريته متخفيا، تحت حماية رفاق له مسلحين. فصار أعداؤه يطالبون أهله بتسليمه ليقتصّوا منه، لكنهم لم يحصلوا على مرادهم فقتلوا والديه غدرا، ثم عادوا وأسروا أخاه الأكبر، مما جعل العشيرة التي ينتمي إليها «مسعود» تقرّر الانتقام.

قامت حرب حقيقية بين العشيرتين، أودَتْ بحياة المئات، من بينهم جميع أفراد عائلة «مسعود»، ناهيك أن كثيرا من النساء، من هنا وهناك، تعرضن للاختطاف وبعضهن اغتصبن ثم اختفين إلى الأبد. ويقال أن هذه الحرب انتهتْ بتدخل سلطات الاحتلال الفرنسية التي قامت بترحيل من تبقى من عشيرة «مسعود» إلى مناطق عديدة في البلاد.. رحّلتهم جميعا واستولت على أراضيهم وبيوتهم.

خسر «مسعود» كل شيء في هذه الدنيا، وخسر المرأة التي يقال أنه اختطفها وأنها أنجبت منه طفلا؛ لقد اختفت هي الأخرى مع طفلها خلال تلك الأحداث الدّامية، ولا يدري أحد أين مكانها. وانتهى الأمر بـ«مسعود» أن انضمّ إلى الجماعة المنبوذة، التي أخبرتك عنها، وحارب ضد المحتلين الفرنسيين وضد جيش التحرير وضد قتلة عائلته.

بعد الاستقلال عاد المجاهدون إلى بيوتهم ليحتفلوا بخروج العدو، لكن الجماعة التي انتمى إليها «مسعود» بقيت في مواقعها رافضة تسليم سلاحها للحكومة آنذاك. تدخل مسؤولون عقلاء من جيش التحرير لإحلال الصلح، حتى يتسنى للمتمردين العودة بأمان إلى الدّيار.

وبالفعل تعاهد القادة الكبار من الطرفين، أمام وسطاء ذوي نزاهة، على نسيان الماضي وبدأت عملية تسليم السلاح أولا، ثم عملية نقل المقاتلين إلى ثكنة خاصة بوسط البلاد.

«مسعود» ومجموعة كبيرة من المقاتلين، لم تطمئن قلوبهم لهذا الصلح واعتبروه مذلا وخاليا من الضمانات، فقرروا التمسك بأسلحتهم حتى لا يكونوا ضحايا خدعة ماكرة. وهذا ما تسبّب في خلاف داخل الجماعة ذاتها انتهى باشتباكات عنيفة.

في نهاية الأمر هرب المنشقون إلى أماكن مختلفة، أما «مسعود» فقد رحل إلى منطقة في أقاصي الصحراء، متسلّلا بمساعدة بعض معارفه في جيش التحرير، الذين كان من بينهم ضابط كبير اسمه «الطاهر» دفعته محبته الخاصة لـ «مسعود» إلى أن ينصحه سابقا ألا يسلم نفسه وأن يظل حاملا سلاحه بيده، حتى تهدأ الأمور أو يغادر البلاد نهائيا. وبالفعل غادر «مسعود» البلاد مشيا على الأقدام باتجاه المغرب، متلقيا كل الحماية والتسهيل من «الطاهر»؛ ذلك الضابط الشريف، كما تصفه «ميرة»، الذي حمل رتبةَ عقيد في السنوات الأولى من الاستقلال، وهو اليوم معروف لدى الجميع، باستثناء «سونيا» التي هي أنا.. معروف ببعض كتاباته عن تاريخ الحرب التحريرية.

ظلّ «مسعود» لفترة طويلة يتنقّل بين المناطق الرّيفية في المغرب، باحثا عن مكان يأوي إليه. وكان يتحاشى الحديث مع الناس ويسعى دائما لصرف انتباههم عنه. لكنْ دون جدوى، فقد كان دائما، وفي كل مكان يحلّ به، يتلقّى السّؤال ذاته: بالله عليك ما قصّتك يا رجل؟! وذات يوم تلقّى هذا السؤال من شيخ يلقي الدروس الدينية على تلاميذه في سقيفة ملْحقة بمقهى، فدفعته الحمّى التي كانت تلازمه ساعتها، أن يخبرَ الشيخ ببعض الحقيقة ويخفي عنه بعضها الآخر. لكنه بعد ذلك صار يخبر الجميع بكامل "الحقيقة"، وهكذا شفي من الحمى تماما وتخلّص من فائض الغموض الذي كان يحيط به، فلم يعدْ في نظر نفسه شخصا مثقلة أطرافه بالأجراس وهو مستمر في هروبه من كل شيء.. يهرب ويهرب.. وعليه أن يهرب دائما دون أن يسمح لتلك الأجراس أن تصدر رنينها.. إن هذا لأثقل ما يمكن أن يتحمله إنسان.

لقد أجاب «مسعود» عن السؤال الكبير الذي طالما لاحقه كاللعنة: "ما قصّتك يا رجل؟ وبمجرد أن أجاب مرّة أولى، صار مستعدا للإجابة دائما، لم يعد ثمة من سؤال كبير يراود الفضوليين من أهل الريف في تلك المناطق التي لجأ إليها. بقيت فقط تلك العبارات الصغيرة التي من قبيل: أنت منذ اليوم ضيف لدينا!

«ميرة»؛ لديها دفتر كبير جدا، بل حتى إنه أكبر من كل الدفاتر التي يضعها خلف ظهره، أي موظف تعيس، يرتدي بدلة رمادية مكوية عشرين ألف مرة، ويواصل إهدار حياته في مصالح الحالة المدنية بالبلدية. وفي هذا الدفتر تسجل «ميرة» جميع الأحداث المهمّة التي تمرّ بحياتها، وتحرص دائما على وضع تواريخ بالهامش وبعض الملاحظات الصغيرة، وأحيانا ترسم أشكالا غريبة ورموزا يصعب تخمين معناها. أظن أن جهدها المضني، الذي تبذله في وصف الأماكن والأشخاص، دليل على أن ما تكتبه يتعدى كونه مجرد مذكرات شخصية، إنه شهادة حقيقية ذات قيمة تاريخية كبرى.

هل تعرف؟ هل تعرف أن اسمي ظهر كثيرا على صفحات دفترها وظهرت أسماء أشخاص آخرين؛ أسماء متنوعة، إذا أحصيناهم فربما نجد أن عددهم لا يقل عن 800. إنه عدد كبير أليس كذلك؟!

لو أنها تطبع مذكراتها ستبيع 800 نسخة كدفعة أولى.

دائما كانت كتب التاريخ تلمع على رفوف المكتبات، تلمع بفضل عناوينها المذهبة طبعا، ثم.. هناك.. تلك النقوش الدقيقة المنمنمة على أطراف أغلفتها الجلدية. ناهيك عن الرسم المعبر، الرسم، أقصد: الريشة والدواة. ورغم ذلك فكتب التاريخ لا تباع إلا نادرا. إنها متعالية على الجميع؛ ترسل شعاعا واحدا

من النور باتجاه شخص واحد وتهمل الآخرين. شخص واحد؛ أمير، ثائر همام، رئيس، أو ربما بطل من نوع خاص قام بأعمال جليلة بمساعدة أشخاص مناصرين لفكرته أو لديهم مصالح معه. ويحتمل أن هذا البطل -خلال رحلته- تعرّضَ لعراقيل شديدة ولمؤامرات حِيكتْ ضده. فقاوم وقاوم إلى أن حقّق النصر في النهاية أو انهزم بطريقة مؤثرة. وهكذا استحقّ اهتمام أحد المؤرخين فكتب عنه.. المؤرخ كتب عن البطل الكبير؛ البطل الوحيد، البطل الذي يفترض أن الأحداث العظيمة أنْسَتْه أن يقع في حب امرأة ثم يتزوجها ليكون له أولاد ثم أحفاد.. ولا أدري، ربما بعد ذلك تتفرع شجرة نسله. والنتيجة؛ أشخاص بالمئات أو حتى بالآلاف يتدافعون لشراء نسخ من ذلك الكتاب الذي يفترض أنه تناول حياة رمزهم العائلي، أقصد هنا؛ كتاب صاحبنا المؤرخ.

«ميرة» أيضا بطلة عزباء، كصاحبنا البطل المفترض. إذن فلا أحفاد في المستقبل سيهتمون باقتناء كتاب يتناول حياتها بالتفصيل.

وهي مؤرخة؛ إنها كذلك على الأقل في نظري. تكتب عن امرأة، امرأة قد يراها الناس عادية تماما لكن «ميرة» تراها بطلة، وهذه البطلة ليست سوى «ميرة» التي هي ذاتها المؤرخة.

ما أريد قوله يا «بيبي» في هذه الشبكة المتداخلة من الأفكار أن «ميرة» اختارت الأصح وتناولت حياة أشخاص آخرين في كتابها، وهكذا فإنها في حال نشرته، سيقتنيه على الأقل جميع الأشخاص الذين ظهرت أسماؤهم على صفحاته، وهؤلاء الأشخاص لديهم عائلات وأقارب وما إلى ذلك.

رحمة بقرائك وبك وبنفسي، لن أستمرّ في شرح هذه الفكرة، كما لن أستمر في سرْد ما روته لي «ميرة» عن الأحداث المؤلمة التي عاشها والدها

خلال وبعد رحلة هروبه إلى المغرب، وعن حياتها في باريس ثم انتقالها إلى هنا، وعن عملها سابقا كسكرتيرة فمترجمة ثم مستشارة في سفارة دولة أجنبية، وأخيرا مديرة في شركة «نجيب دواوة» الخاصة بترميم الآثار. أقول، رحمة بالجميع لن أستمر في الحديث عنها؛ لأنني لو فعلت ذلك فالنتيجة هي كالآتي:

أولا، سيكون على قرائك أن يتحمّلوا مشقّة قراءة رواية أخرى جديدة، غير التي كانوا ينوون قراءتها.

ثانيا، سيكون عليك -أنت بالذات- أن تجلب حزم أوراق أخرى وتشرع في الكتابة إلى يوم الدين، دون أن تصل إلى نهاية معقولة، ذلك أن الأحداث في حياة «ميرة» لا آخر لها ولا أول. ثم إن «ميرة» ذاتها؛ «ميرة» ليست أنا ولا تشبهني. لا شيء فيها يشبهني؛ أتفهم؟ لا شيء؛ مظهرها وطريقتها في التنفس! حرارة دمها وسرعة جريانه في عروقها! وكل شيء فيها مختلف. إنها باختصار؛ امرأة ليست على مقاس اللغة التي تكتب بها أنت.

ثالثا، سيكون عليّ أنا أن أتنحّى جانبا وأفسح الطريق لـ«ميرة» كي تكون هي بطلتك. أتريد أن تكون «ميرة» هي بطلتك؟! أظن أنها مناسبة لك كامرأة ملهمة، لكنها ليست مناسبة لك، مثلما أنا كذلك، كحبيبة.

لديها شقّة رائعة بمنطقة «الكهيف» التي تبعد عن العاصمة بـ: 75 كلم. اسْتضافتني فيها 28 يوما بالضبط. تذَكرْ، كان يمكن أن أقيم لديها أطول مدّة ممكنة، لكنني لم أشأ ذلك. إنها شقّة رائعة حقا! رائعة! وكل شيء فيها جاهز لإزاحة الستار؛ الموسيقى الناعمة والشموع. عندما دخلتها أول مرّة شعرتُ برغبة خاصة في التعرّي، وحلمتُ أنني أركض في المياه وأحاول

الحصول على زهرة من البحر. لو أنك يا «بيبي» تعيش مع «ميرة» في شقّتها ستشعر برغبة حقيقية في الكتابة؛ أليس هذا هو الإلهام؟!

ستلهمك وتلهمك، لكن الإلهام الذي يفترض أن تمنحك إيّاه لن يفيدك في كتابة كلمة واحدة ذات خيال مجنّح. أما أنا فيمكن أن أمنحك الحب بطريقة السّحب على المكشوف. وهذا الحب سيجعلك تكتبُ مئات القصائد المفعمة بالغموض الجميل! يا إلهي هذا بالضبط ما كنتُ أبحث عنه؛ إن شقّة «ميرة» مفعمة بالغموض الجميل. نعم؛ غموض! تشعر به لأول وهلة، لكنه لا يكون جميلا في البداية، أو لنقلْ...

حسنا، افهمني؛ في البداية مثلا، كما يحدث عند هبّة سحر خاطفة تترك داخلك إحساسا قويا بالجمال سرعان ما تغلب عليه رهبة من نوع خاص، رهبة! هاه.. لكونك لا تعرف مصدر هذا الجمال.

هل حدثَ أن أحنيتَ رأسك خوفا من أن يسقط السقف عليك بسبب تأثير التماعة برق؟!

أما أنا، فقد حدث هذا معي! وحدث ما هو أطرف من ذلك: كنت -ذات مرة- أبحث داخل بهو أحد الفنادق عن شخص تركتُ لديه بعض الأغراض، وكنت قلقة ساعتها، لكن، فجأة لمحتُه فأسرعت إليه. اختفى وراء مرآة كبيرة. مشيت باتجاه المرآة إلى أن كدتُ أصطدم بها. عندما رأيت صورتي في المرآة أصابني بعض الخجل فضحكت! وإذا بالشخص الذي أبحث عنه يربّت على كتفي.

إن لحظة اصطدامي بالمرآة أخرجتني من زمن فاصل كنت أتحرك فيه عكسيا، وهذا يفسّر كلامي قبل قليل! ما أريد قوله؛ إن الجمال الذي

يفترض أن يحيط بك داخل شقّة «ميرة» سيظل مفصولا عن سبب وجوده، بينما الشيء الموجود حقا هو الغموض. افهمْ يا رجل!

«الكهيف» مدينة صغيرة ترقد تحت جبل «غرودة». إنها ليست سوداوية كما يخطر ببال الداخل إليها أول مرة؛ هي فقط مدينة تجعلك تتمعّن في وقع ما يتركه في نفسك ذلك التعبير البسيط: "نعمة الأمان".

افتح يا سمسم. الخطوة الأولى. السّجاد الأحمر يقول لك بصريح العبارة: اخلع نعليك، إنك بشقّة «ميرة».

شمعدانات، فوانيس، زجاج ملون، مبخرة كهربائية، عمودان بتاجين، قوس مزخرفة، صينية نحاس صغيرة، ورسم ضخم على سجاد به؛ فرس وأسد يطارد غزالة.

الكثافة تتوقّد فيتّسع الإحساس برحابة المكان.

الصالون الكبير يفصل بين مجلسيه حاجز خشبي منقوش بعناية. من هنا أريكتان من النحاس الأصفر، يشغل زاوية التقائهما عند الركن صندوق بلا أدراج عليه آنية تشبه لسانا من اللهب. المنظر بأكمله لوحة فنية، محورها طاولة أساسية مرفقة بأخرى صغيرة وإطارها ستائر تحزّم الجدران.

في الجهة الثانية: زربية مبسوطة، وسائد من الحرير صُفتْ للجلوس والاتكاء عليها، بخور، غيمة وردية لحاف وموسيقى تنبع من الداخل؛ "كان يا ما كان".

الغرف الثلاث في شقّة «ميرة»، جميعها مغطاة بخشب يعبق بالألفة والسحر- وفي زواياها قناديل عتيقة ترسل ضوءا دامعا.

بعدما وضعت حقائبي ورتّبت أغراضي، جلست لساعات عديدة أشاهد التلفزيون. ثم نمت وصحوت، نمت وصحوت.

عند منتصف الليل خرجت إلى الشرفة، فإذا بالسماء رمادية حتى الإنهاك. عدت إلى السرير. تمددت، لكن سرعان ما أصابني الأرق. غادرت غرفتي وطرقت باب المطبخ حيث كان ينام «حسان».

بمجرد أن فتح لي ارتميت في حضنه وتركت رأسي يميل:

"اجعلني أسمع سريان الدم في عروقك، خذني إلى نسيان آخر".

ونسيت؛ نسيت كل ما يمكن ولا يمكن نسيانه. نسيت ما اعتقدت دائما أنه باق في ذاكرتي. نسيت نسياني.

- هذا قلبك؛ إنه ينبض! دعني أسمعْ.. يا الله! ترى ماذا يقول؟!

- أظن أنه ينبض فحسب.

- ألا تريد أن تسمع قلبي ينبض أيضا؟

- حتى وإن كنت أريد فإنني لا أستطيع.

- أتستحي؟

- أجل أستحي.. ثم إن النبضات بتتابعها المستمر تشعرني بنوع الخوف.

- لا عليك؛ أظن أنني أفهمك الآن.

- تفهمينني!

أجل أفهمك.. أو لا شيء مهم.. لكن.. دعنا نتّفق..

أولا؛ ابق كما أنت. ثانيا؛ استسلم لمشاعرك ولا تعاندها. ثالثا؛ وهذا هو الأهم، امنحني نفسك بالكامل.. جسدك، روحك.. عقلك! بعد ذلك.. نمْ في حضني.. نمْ مستيقظا؛ وانس كل شيء!

لاحظْ يا «بيبي»؛ إنها مجرد كلمات؛. كلمات تجعل اثنين يتناغمان كجناحي طائر ساحلي، ويرحلان بعيدا إلى منزل عتيق في غابة، حيث لا شيء سوى صوت المطر في الخارج.

قبل سن العاشرة، لم يشهدْ الطفل «حسان» حدثا ذا أهمية يُذكر. كان جيدا في الدّراسة، وفي ترويض الكرة بقدميه؛ يقوم بألعاب مهارة وخفّة. إنّه فتى ذهبي مبهر. يسحر الكرة، يسُوسُها فيجعلها تنطّ على ظاهر قدمه بحركة نابضية، تنطِّ وتنطّ.. ثم يقذفها إلى الأعلى ليتلقّاها بصدره الرّخو. يقوّس ظهره إلى الوراء. وبحركة دائرية عجيبة يُزحلق الكرة إلى قفاه، يدعها تستقر، تلبث لبرهة، وحين يصفّق زملاؤه انتشاء بعرضه، يعيدها مِطْواعة إلى وضْعها الأول، على ظاهر قدمه، وأخيرا يهزّها إلى الأعلى، وبينما هي دائخة في الهواء، يجوّف قميصه بقبضتيه ويتلقّاها في ذلك الحجر الآسر.

كان «حسان» لاعبا مدهشا؛ موهبته الفريدة جذبت انتباه أمّه، فسارعت إلى تسجيله ضمن منتسبي أحد النوادي الرياضية التي تعنى بتحضير وتدريب البراعم. صارت ترافقه إلى حصص التّدريب بنفسها مساء كل خميس، وخلال أغلب أيام العطل.

أكثر من هذا، كانت تدفع نصيبا من المال للنادي، تقتطعه من مصروف شهري يعطيه لها الزوج، والد الموهبة «حسان»، الحاج حيدر، الذي كان يشرف آنذاك على تسيير مقهى ورثه عن أمه، وورث معه براميل من المشاكل سبّبها له أخواله، الذين أجبروه في نهاية الأمر، على ترك المقهى والتنازل عن نصيبه، مقابل تعويض مالي وعدوه به، لكنهم خالفوا الوعد، بل الأكثر من ذلك آذوه أيما أذى، إلى أن فاض به الكيل، انتفض في وجوههم،

ذات يوم، رد عليهم بقوة، فأجبرهم على الدفع، الدفع حالا؛ الدفع وإلا! وإلا ماذا؟

طبعا لقد هدّدهم وكان بوسعه التّنكيل بهم أيضا وابتزازهم، لولا أن أخذته الرأفة بهم، فرفع يده عنهم، أقصد رفع اليد التي استعان بها عليهم، إنها يد الرجل الذي يكسب الرهان دائما: «الدرّاجي».

لطالما ظننت أن «حسان» أصغر مني سنا، لكنه في الواقع ليس كذلك. إنه يكبرني بثلاث سنوات. غير أن نعومة جسمه، حياءه المفضوح، هدوءه، إخلاصه، وأمورا أخرى كثيرة تجعله في نظري مجرد طفل هش، طري، موشك على الانكسار في أية لحظة. كل شيء لديه يدعوني لرعايته وحمايته حتى يشتدّ عوده، ويصبح في غنى عني وعن حبي له. يا إلهي كم أشعر بالأمومة إزاءه، أمومة من نوع خاص جدا!

أمومة! أقول هذا، مدركة أنك تفهم قصدي يا «بيبي»، أمومة منزهة؛ لا والدة تلد.. لا مولودا يولد.

الرجال في هذا البلد أتعس من الصّراصير، وأكثر يُتما من النساء، لكنهم فقط يكابرون؛ يتزوجون وينجبون أولادا صالحين، وعندما تنتابهم نكسة منتصف العمر يطرحون السؤال الآتي: وماذا بعد؟!

لا شيء بعد يا رجل.. لا شيء.. دخّنْ.. استمنِ.. اذهبْ إلى المقهى.. طالع الصحيفة.. صافح الأصدقاء بحرارة: كيف الحال؟ اسألهم ولا تنتظرْ إجابة. هل من جديد؟ لا جديد يا رجل: ضجر خانق، شلل عاطفي، تبلّد، تلبّد مطلق. انتهى الدرس الذي لن يكون بوسعك الاستفادة منه. اقعدْ هنا وانتظرْ نهايتك. عما قريب سيأتي من يخبرك، بكل لطف، أن قبرك صار جاهزا لاستقبالك. اذهبْ إلى قبرك. اذهبْ كما جئت.. ولا شيء آخر!

لطالما كنت رجلا مسالما، وإنّنا.. إننا نتوقّع منك أن تظل مسالما إلى آخر نفس.

طاااااق.. مات الرجل.

ويقول المناوئون هنا وهناك؛ مات يحلم بشيء بسيط.

شيء بسيط!

طبعا بسيط؛ لكنه شديد التّعقيد! إذ يتطلّب معدّات وأدوات وبطّاريات شحن وأجهزة التقاط ذكية... و.. و.. و..

في الواقع لم يكن من السّهل أن يحصل على ما يريد في تلك الظّروف العصيبة.

يريد عناقا!

يا للهول.. عناقا بالكامل؟! كفّ عن هذه السّخافات! العناق يحتاج لأكثر مما تظن؛ إنه فَتْحُ ذراعين وفتح قلب!

وأنا ماذا فعلت؟!

لا شيء سوى أنني لَمّحْت لـ «حسان» أن يطلب مني مرافقته في موعد غرامي غير مشهود له. لمحت له بينما كنا داخل غرفة المطبخ بشقة «ميرة».

«حسان»، حتى هذه اللحظة (الفارقة)، كان يتلقى من جميع الجهات المعنية؛ كامل جرعات التهدئة المحسوبة له سلفا، والتي يفترض أن تساعده على إعداد نفسه ليكون ابنا بارّا لأم رمزية اسمها (الدولة)، بارّا، لا برّيا طبعا، وحبذا أن يكون بارا جدا، وإذا لم يتسنّ له ذلك فليكنْ بدرجة مقبول.

الدولة لا تُظهر وجهها، بل تترك الحكومة تشتغل.

الحكومة لا تظهرُ وجهها، بل تترك الوزراء يشتغلون.

الوزراء لا يظهرون وجوههم، بل يتركون المؤسسات تشتغل.

المؤسسات بها مكاتب ومكيفات هوائية ودفاتر، أموال وأجراس تنبيه، سلال نفايات وقاعات انتظار.. و.. و.. إلخ..خ..خ..خ.. ومدير!

المدير لديه؛ لديه ماذا؟

ضع يا «بيبي» قطارا من الكخخخخات لأخبرك.

لدى المدير؛ خدم وخادمات، غلمان وجوار.. وانتهى نص البيان.

المطلوب من الجميع الآن، الوقوف دقيقة صمت ترحّما على أنفسهم، ومن يقاتل جيدا فليتفضلْ مشكورا إلى المنصّة ليحصل على شهادة: "مضمون بقاؤه في جنّة الحظيرة".

الحكومة تقدم للنّخبة من أبنائها المخلصين شهادات تقدير، موقّعة بالذّهب الخالص. أما أصحاب الرّتب الأدنى فإنها تتكرّم عليهم بتلميحات إيجابية، يتلقّونها بسعادة غامرة فيرفعون أكتافهم ويخفضون ضحكاتهم الخجولة: يا لهذه التّلميحة المثيرة!

وأنا عندما لّمحت لـ«حسان» عن موافقتي المسبقة على مرافقته في موعد غرام -إن هو طلب ذلك- كنت أتوقع أن الخجل سيصيبه وسيشعر بالارتباك. وهذا في حد ذاته نوع من التّلميح المثير؛ مثير حقا! لأنه يصدر عن رجل وليس امرأة، أي الطرف الذي كان يَعتقد، منذ فجر التاريخ، أنه مؤهل لاحتكار دور "الصياد"، فيما يكون على الطرف الثاني أن يظل راضيا بدور الطريدة. لطالما كانت اللعبة هكذا يا «بيبي» لكن إذا تجرأ أحد الطرفين على قلب شروطها فستتحقّق الإثارة بالتأكيد. ثم عليك أن تتذكّر أنني لّمحْت له، فإذا هو ردّ على التّلميح بالتلميح، صارت اللعبة المقلوبة أصلا، مقلوبة مرتين. وعليه فمرحلة الأخذ والرّد يفترض أن تكون قد بدأتْ حتى قبل أن تبدأ.

كما قلت سابقا؛ لقد كنت أتوقع أن يكون رد فعل «حسان» كما وصفت لك تماما، لكن ما حدث فعلا، هو أنه أخفى ارتباكه وخجله بغلاف سميك من نواياه البريئة إزائي؛ استحضرها خصيصا لهذا الموقف حتى يتحصن بها. نوايا بريئة براءة الطّريدة من دم الصّياد.

- أتظن أنني أخدعك؟! حسنا؛ ما عليك إذن إلا أن تنجرّ.. تنجرّ.. بهدووء.. أقصد؛ اسمحْ لنفسك أن تنخدع.

- أنا أفهمك.. آه.. أفهمك.

- قد تكون فهمتني خطأ.

- أبدا والله.. لم أفهمك خطأ.

- أنا أطلب منك الآن أن تفهمني خطأ؛ هل هذا جيد؟!

- بلى.. إنه جيد جدا.

- لو أعطيتك قبلة ماذا ستفعل بها؟ آه، إنك لا تعرف، أنا سأخبرك؛ ببساطة.. ستقوم بتعطير فمك جيدا.. ثم تحرص أن تتلقاها بمهارة فائقة، كما كنتَ تتلقى الكرة في حِجْر قميصك.. هاه.. اتفقنا؟!

...

...

**أنا و«حسان» تواعدنا عند باب المطبخ. حدث القبول والرضى ثم افترقنا.**

**بعد خمس دقائق، جاء "هو" إلى المكان المتّفق عليه؛ غرفتي.**

**بالمعنى التقني، كل الشروط متوفّرة لترتيب موعد غرامي دافئ، أما باقي التفاصيل فأنا كفيلة بها. سأحيطه بذراعي وأغرقه في القبل و..و..و..**

هل من ناقد يعترض على ما أقول؟

مرحبا بك يا «حسان»؛ إنها اللحظة الفارقة في حياتك.

قلبي مفتوح، ذراعاي مفتوحان. هيا تزودْ بالحب.. الحب الذي سيعينك على تجاوز نكسة الأربعين؛ سن اليأس لدى الرجال! أقسم أنك ستتجاوزه بسلام، وحينها تقول: فزتُ ورب الكعبة!

خذْ بلا حساب، خذْ مني كلّ ما تريد، حبّا فيك ونكاية في الحكومة.

أظنّ أن «حسان» اعتاد أن يتحدّث عنه الآخرون، لهذا يجد اليوم، صعوبة بالغة في الحديث عن نفسه. كان بالتأكيد مدللا في طفولته جدا، وكان شديد التّعلق بوالديه أو بالأحرى، كان والداه شديدي التعلق به، كونهما لم ينجبا غيره.

بعض الأقارب والمعارف والجيران بالغوا أيضا في الاهتمام به والثناء عليه، ربما ليرضوا غرور أبويه الذين كانا يعتقدان في قرارتهما أنهما قاما بمعجزة كونهما أنجباه.

لبس الأجمل والأغلى، أكل الأطيب والأشهى، وكانت لديه في غرفته، من الدمى واللعب الفاخرة والقصص المصورة والمجسمات، ما يكفي لتدشين روضة أطفال، خمس نجوم.

كان يحصل، في كل مناسبة، على كرة قدم جديدة، من النّوع الجيد، حتى صار يملك، وهو في سن العاشرة، ثلاثين كرة، أو ربما أربعين. لكنه لاحقا، وبإيعاز من أمه، تبرّع بأكثر من نصف عددها، للنادي الرياضي الذي انضمّ إليه. وتبرّع أيضا ببعض الأحذية والقمصان. كان هذا في حفل بسيط أقامه النادي لمنح «حسان» جائزة البرعم الذهبي. وكان يومها قد ألقى في نهاية

الحفل خطاب شكر لقّنته إياه أمه، به عبارات امتنان منمّقة لا يزال «حسان» يحفظها إلى اليوم. عندما نمتُ معه في شقة «ميرة»، روى لي هذه القصة فطلبت منه أن يعيد إلقاء ذلك الخطاب التاريخي أمامي، ففعل دون تردّد، مُرفِقا كلماته المتمهّلة بحركات تمثيلية متسرّعة عجولة. ورغم ما خلفه من تجعدات خفيفة في المنطقة الخلفية من مخي، إلا أن عرضه الخطابي كان لطيفا ومسليا، أنهاه بعبارة: يسعدني أن أتبرّع بـ...

كان عاريا وهو يتبرّع، وأنا كنت مستلقية على السّرير. قمت ومددتُ يدي إلى عضوه الصغير، وسحبته بلطف فانْقاد إلي مذعنا.

هل يمكن أن تتبرّع لي بهذا؟

إذا أمسكتَ أحدا من يده وحاولت سحبه بالقوة إلى منطقة تريد إجباره على اختيارها، فقد يركب رأسه ويرفض الانصياع إليك. إذا سحبته من أنفه، من أذنه أو حتى من لسانه فقد يتشبث بموقفه ويعاندك حتى آخر لحظة. لكن إذا أمسكته من عضوه وبدأت بجره رويدا رويدا، فسينجر ويبقى منجرا إليك حتى الجدار. هذا ما تفعله الحكومة يا «بيبي» مع الرجال في بلادنا. لطالما كانت تستغل عبر وسائلها العديدة نقطة ضعفهم هذه، لتفسد طباعهم، وقد استغلت كل شيء أيضا لإفساد طبائع النساء بجعلهن يتعلمن فتح.. تقريبا فتح كل شيء! إلا قلوبهن وأذرعهن للرجال الذين تورّمت أعضاؤهم الحساسة من مسْكة الحكومة تلك.

طاااااااق؛ مات الرجل!

تسحب الحكومة يدها، تنزع القفاز الطبي، تفرك أصابعها وتذهب لاستكمال باقي المشاريع..

«حسان» لم يمتْ.

أنا أيضا لم أمت.

مكثنا، أنا وهو، نتضاجع ونتبادل القبل، نتحدث ونغني وأحيانا كانت الدموع تغلبنا فنسكر؛ نسكر بلا خمر وندوب.

كم أحن له، كم أحن لحنيني له؛ طفلي وحبيبي، الذي يرتسم طيفه الآن أمامي، فأستوضح لبرهة يسيرة قسمات وجهه القانع المطمئن. وما تلبث أن تنسحب تلميحات من الظلال المتواترة على شاشة ذهني، فتعكس مسحة غموض شفافة وشاعرية يتأنث لها الأفق. لا شيء يكمن وراء ما يتمثل لي. لقد تلاشت كل خيوط النور والعتمة ولم تبق إلا بسمته المنزهة عن كل ما يدل عليها.

وللمرة الأولى أفكر أن «حسان» كان بحق كائنا بلا ظل يسند حضوره في ذاكرتي، كائنا بلا خدوش وبلا علامات تدعم فرص تدقيقي في جدوى فرادته. هكذا أقول؛ لأنني أنا دون غيري خلقت لكي أكون الحبيبة الأم لهذا الطفل دون غيره. غمرني بعطائه الزاخر، حتى لكأنه كان مدينا لي بشيء أو كان يحاول من خلال ما بذله لي أن يكفر عن ذنب ما ارتكبه في حقي، وهذا ليس صحيحا أبدا لأن كل ما وهبني إياه كان أعظم وأثمن من أن يرد أو ترتجى ثمرته.

قبل هذا، فلأقل إنني الآن أحاول إيقاظ وعيي على حقول من المشاعر كانت اعتيادية لدي، وأعيد اكتشاف ما ألفته واعتبرته جزئي الأكثر تعبيرا

عني، أسخّر قدرتي على التأمل لإعطاء وصف كامل للطريقة التي تمر بها نسمة هواء كانت أرق من أن أشعر بها.

ذاك «حسان»؛ وجه يستعين بالعطاء المرضي ويتدرع به لمواجهة أية خيبة محتملة! وجه يعلن في كلِ لحظة حبه المؤلم ويذهب إليه دفعة واحدة.

لقد كان «حسان» حريصا كل الحرص على إرضائي، حتى أثناء قسوتي عليه، إذ كنت أحيانا أعضه على خده، وذات مرة بسبب شعور بالغيرة استولى علي بشدة، طبعا الغيرة منه وليست عليه؛ قمت بسلوك عنيف في حقه، تماما كما يحدث لطفل بلغ الفطام، وفي يوم ما وجد أن أخا رضيعا يحتل مكانه، سيشعر الطفل إزاء الوافد الجديد بغيرة لا تخلو أبدا من حب، حب جارف، جارف إلى حد أنه يتحول مع الوقت إلى رغبة عدوانية من ذلك النوع الذي لا يعاقب عليه الله.

كنت راغبة حقا أن أعضّه من خده، أو أقرصه، أو ربما رغبت أن ألحس وجهه. لا أدري ما كنت أريده فعلا! اندفعت نحوه، واختلط علي الأمر، فإذا بي أغرس ظفر إبهامي على ظاهر يده. فعلت هذا كنمرة متوحشة فأطلق صرخة غير مدوية.. أقصد أن صوته، وهو يحاول أن يصرخ، ارتد إلى الداخل. تراجعت إلى الوراء وبقيت صامتة أتنفس بهدوء.. أتنفس وأنظر إلى وجهه المشرق، وملامحه الرذاذية.

كان قبل قليل يرسل إلى ابتسامته التي عادة ما تنضج قبل شفتيه، وتجعل عينيه تغيبان في لونها، وهو الآن أيضا يبتسم، ويريني أثر ظفري على يده.

لقد آلمته، آلمت حبيبي؛ فماذا فعل؟

لم يفعل شيئا؛ لقد اكتفى بتنقيح بعض عبارات التأنيب المخففة وحاول سكبها في أذني. وعندما لم يطاوعه قلبه على ذلك كتم نفسا عميقا ثم

احتضنني. ما أرقّه وما أعجزني على أن أكون بمستوى ما تلقيت من فيوضات قلبه الكبير! كان كبيرا ومبالغا في حنوه علي، كبيرا وشاعريا في احتفائه بي، إلى درجة الإحباط الذي يترجم خوفه الدفين من ألا يكون جديرا بهذه السعادة الحقيقية، أو ألا تكون هذه السعادة التي هو جدير بها شيئا حقيقيا.

"كم أنت حر يا «حسان»"! حر؛ بينما المطر يهطل في الخارج. يمكنني سماع المطر يهمس اسمك.

"كم أنا حرة"! أحب المطر. أحب صوت المطر؛ أحب رائحته.. عيونه الزرقاء أو السوداء.. عيونه المتماثلة إلى الخضرة.. تنعس.. تتضرّع وتضحك بلا خوف.

أحب النوافذ والأشجار التي تصلي كل وقت.

للمطر أصابع خشنة ومنقطة بالوشم، أو ربما أصابع أرق من نار لا مصدر لها.

للمطر معطف رمادي أو فاتح اللون، وله قبعة تسرقها الريح أحيانا.

للمطر مطرية، كتلك التي نراها في حلم تجري أحداثه عادة بالأبيض والأسود؛ تحملها فتاة ذات شعر أصهب وذراع ممدودة إلى أعلى.. أعلى مما يمكن أن تكون عليه تفاحة عالقة بالسماء.

المطر يدخل الآن في كل شيء: في الزجاج، في خشب الجدران، في جبين تلك الطفلة التي نصادفها كلما أخذنا الحلم، ترسل في الفراغ الرحب ضحكاتها العميقة. إنها تضحك والمطر يزداد هطولا. المطر يضحك كذلك. إنها تتباكى، تغمس إيماءاتها بدلال مفضوح كلما تجاذبت الريح فستانها أو شدت مطريتها، فلا هي تقوى على الصمود ولا هي ترضى أن تجاري التيار، ثم يحدث أن تتراجع قليلا فإذا هدأت الريح ولانت لها برهة، انطلقتْ كعصفورة خرافية إلى الجهة الأخرى من الحلم.

أنا الآن أبتعد شيئا فشيئا، والعالم أيضا يبتعد، ولا يبقى إلا فتاي «حسان»، يمد يده إلي فألوح له، يقترب مني، أقترب منه، يكونني وأكونه.. ثم.. هيا بنا إلى نهاية الحلم؛ هيا نرحل إلى النسيان.

في الصباح أجد رأس «حسان» بجانبي، بينما الزمن يتدحرج بسرعة فائقة.

"كم أنا حرة"؛ قلت هذا في سري وخرجت.

«الكهيف» لا تزال تحت هيبة جبل «غرودة»..

عند منتصف النهار، تجولت وأكلت السّمك المشوي في مطعم على رصيف مبلل.

كم أنا حرة!

لدي حتى الآن مفتاح شقّة تشرف على سماء رمادية، وفي هذه الشقّة غرفة خاصة بي، وفي الغرفة سرير فخم؛ إذن هذا كفيل بأن يجعلني منشرحة الصدر لأطول وقت ممكن؛ لا مخاوف لدي من المستقبل، كأن الحياة عادت إلى بدايتها، إنها بالأبيض والأسود.

إن نهارات كهذه لن تكون أبدا رمادية.

خلال الأيام التي قضيتها في شقّة «ميرة»، حدثت تغييرات عديدة: زاد وزني قليلا، أو ربما كثيرا! تعمّقت طيات خفيفة أسفل بطني واشتدّ البياض الوافر. صرت فتاة بيت تترهّل، وصارت «الكهيف» أكبر وأوسع من ذي قبل. صارتْ مختلفة تماما. لست أنا فقط من يقول هذا، بل لـ«حسان» الرّأي ذاته. «حسان» ذلك الفتى المسالم المخلص، القنوع المتصالح مع نفسه. المؤدّي لعمله جيدا والحافظ للأسرار، إلا على «ميرة»؛ فولاؤه لها هو سرّه الأكبر.

## - 2 -

مرحبا..

كما ترى يا «بيبي».. هذه كلماتي الأخيرة إليك؛ أقصد رسالتي المطولة التي أتمنّى أن تصلك في الوقت المناسب. حيث تكون بأفضل حال، وتكون بعد لم تضع ما أنجزناه طيلة أشهر معا، من فصول ومشاهد روائية كثيرة، بين يدي صاحب المطبعة ليحوله إلى كتاب. إذا كنت قد فعلت هذا، وتم إعطاء إشارة البدء في السحب، فاعلمْ أن كتابك يا «بيبي».. أقصد كتابنا؛ سينشر ناقصا، ويظل دائما ناقصا ما لم تضف إليه هذه الرسالة الأخيرة. أم تكون قد نشرته دون أن تخبرني؟

كلا.. كلا.. لا أظن أنك قد فعلت، فليس ثمة ما يوحي بذلك.

أيمكن أن تكون قصّتي منشورة بينما لا أحد من الناس يقوم بتصفحها أو الحديث عنها على الأقل؛ هل هذا معقول؟

إنه ليس بالأمر الهين أن أتكلم على مدار ساعات طويلة، وأنت تكتب آلاف الكلمات حتى يكل ساعدك، وفي نهاية المطاف يتجاهل الجميع جهودنا المضنية.

سأكفّ عن هذا التفكير السوداوي. لا أريد استحضار النهايات القاتمة قبل وقوعها. لا أريد التنكيل بذاتي. إن كتابنا سيحقق نجاحا باهرا حتى في أسوأ الأحوال. والحق أقول؛ ليس ثمة ما هو أسوأ من أن تكون قد قمت بطبعه منقوصا من رسالتي الأخيرة إليك.

إنك بالتأكيد لست من هؤلاء الذين لا يحسنون اختيار الوقت المناسب، وإن كنت قد..

يا إلهي؛ مرة أخرى الأفكار السيئة تروادني!

لكن، مهما يكن، فسيظل هذا الكتاب يحتفظ بالمرتبة الأولى على رفوف المكتبات؛ كيف لا وهو عمل أدبي شيق؛ تكفلت ـ فتاة قادمة من هامش الحياة، اسمها؛ «سونيا» -بمهمة إنضاجه على يد كاتب -كان يعيش من قبلُ في عالمه المغلق- اسمه؛ "محمود الساهي"! محمود الذي كان ساهيا ولم يعد كذلك، منذ اقتحمتْ عليه حياته بطلته «سونيا»، ودعته للخروج من قبره المحفوف بالنعم الزائفة. وبقيتُ إلى جانبه حتى امتلك الشجاعة شيئا فشيئا؛ خطا إلى الأمام.. إلى الأمام.. وفي لحظة صفاء نادرة تلمّسَ ببعض جوارحه، طريقه إلى طرف مهمل من واقع الحياة، ثم بكل جوارحه تلمّسَ طريقه إلى الحياة، كما يعيشها الناس في الواقع، وليس من وراء نظارات القراءة.

لقد تجرأ على الخروج من ذاتيته إلى ذوات أخرى معرضة للتّشويه دائما، ليمتحن نقاءه ويؤصله، حتى يكون هذا النقاء حقيقيا، بعد أن كان مجرد افتراض لم تتهيأ الظروف سابقا لوضعه على المحك. وهي بخروجها معه، استطاعت أن تدخل لتواجه بقلب شجاع ما في أعماقها من تشوهات، حتى تتمكن من معالجتها وتحويلها إلى مصدر إلهام، يعطي آخر المطاف ثمرة عمل أدبي ناضج.

رسالتي هذه، تصلح فصلا أخيرا لقصّتي، وقد تحرضك على التخطيط لكتابة جزء ثان مستقبلا؛ إنها مذكرات صغيرة، دونتها خلال فترات متقطعة، على أوراق كانت متناثرة قبل هذه الساعة التي أنا بصددها الآن، لكنني نجحت في ترتيبها وترقيمها لأسهّل عليك مهمة قراءتها.

هذه الأسطر الأولى يا «بيبي»؛ هي آخر ما كتبت لك، إنها عبارة عن "تقديم"، لما كنت قد كتبته طيلة المدة الأخيرة، منذ افترقنا.

عندما أنهي هذه الأسطر على هذه الورقة سأضع في الأعلى رقم(1).

لكن، من المحتمل أن هذا التقديم سيمتدّ إلى ورقة ثانية وأخرى ثالثة. في هذه الحالة سأضع الأرقام (1) ثم (2) وأخيرا (3)، لكي لا يتأثر التسلسل، ذلك أنني بدأت الترقيم مسبقا على الأوراق الأخرى من الرقم(4).

في حال اكتفيت الآن بالكتابة على ظهر ورقة واحدة، ستكون الورقة الموالية والتي بعدها تحتوي على رسم معبر أو كلمات من قبيل: "أحبك يا «بيبي»"، وذلك حتى لا أتركها بيضاء. ألا ترى أن حماسي يشتد مع كل كلمة أخطها! أظن أنني سأملأ الصفحات الثلاث دون حاجة لسد الفراغ بعبارة: "أحبك يا «بيبي»" أو "أنا مشتاقة إليك".

في النهاية سيكون بين يديك 13 صفحة. إنها تكفي لفصل أخير.. أليس كذلك؟ إنها تكفي بالفعل، خصوصا إذا تفضلت أنت بإجراء تنقيحات وتعديلات بسيطة عليها. فلا يليق أن تنشرها بأسلوبي هذا.. طبعا لا يليق. وإن فعلت، فقل السلام على صديقك الراوي؛ إنه منذ البداية لا يستلطفني وهو يشعر بالتأكيد أنني أزاحمه.

إنْ أرضيتَ غروري ونشرتَ كلماتي كما هي، بخطي هذا الملتوي الأرعن، إن تجرأتَ على هذا، سيهجرك الراوي ولن يكون بوسعك كتابة قصص أخرى في المستقبل.

أنا أو هو؟

هاه؛ كلا كلا.. لا تخف فلن أخبرك بيني وبينه. افعل ما يطلبه منك فلكل منا دوره الخاص في هذا العمل: الراوي، أنت وأنا.

حسنا، سأهتم بوصف المكان الذي أنا فيه الآن، أما الساعة فهي.. تقريبا؛ الرابعة بعد الزوال. إنني أجلس بطريقة صحية كمقدمة نشرة أخبار؛ 90 درجة بين ظاهر فخذي وبطني، و90 درجة بين باطن فخذي وساقي، وثمة أوراقي الشهية، على الطاولة من هنا، وبعض الأكل من هناك. في مطعم يملكه رجل مغربي بقلب باريس. أكنتَ تصدق أنني سأصل إلى هذا المكان!

أجل أنا في باريس، وما من أحد يشكّك في ذلك! يا إلهي؛ كم تبدو باريس كاملة مكمّلة! معطرة وجميلة طيلة الليل والنّهار! تنام بمكياجها وزينتها.. بل أظن أنها لا تنام إطلاقا ولا يصيبها الإرهاق، لا تحيض ولا تتجشأ، لا ينسل شعرها ولا يشيب، لا تتردد في اتخاذ قرار ولا تطلب وقتا للتفكير.. تمشي وفي كل مرة تتعرى أكثر، تتعرى دون أن تضطر لخلع ثيابها ودون أن تجرؤ قطرة عرق واحدة أن تلمع على جبينها؛ إنها تعيش مئات القرون ولا تتقدم في العمر!

باريس يا «بيبي»؛ مستعدة دائما للظهور بأفضل مما هي عليه، كبطلات التلفزيون اللواتي لا يمكن رؤيتهن خارج صورة الكمال المحسوبة سلفا،

حيث لا وجود في هذه الحياة للحظات حياتية خام. أنا أحببت باريس يا «بيبي»، لكنني أحببت الجزائر أكثر، فهي تشبهني تماما.. تشبهني من حيث أنها مجروحة في العمق.

باريس تتصرف بعقلية مومس بالغة الاحتراف؛ فهي تفتح الجسد ذاته في اللحظة ذاتها على السرير ذاته، لزبائن آخرين يعاشرونها وهم في قمة الإحساس بقدرتهم على امتلاكها إلى الأبد. ذلك أنها تترك آثارها فيهم كما تشاء، حتى لا ينسوها، وبالمقابل فهم لا يجدون أثرا واحدا لرجال سبقوهم، فيتوهمون -ما توهّم سواهم- أن لهم السبق التاريخي في الحصول على جوهرة أنوثتها.. جوهرة نادرة وثمينة لمجرد أن الوصول إليها مستحيل.

الجزائر غير ذلك تماما؛ إنها إذ تعشق تهب نفسها بالكامل.. تعطي جسدها وروحها -دفعة واحدة دون حساب- ولا تترك مجالا لمراجعة الذات. ليس لهذه المدينة سيناريوهات بديلة تلجأ إليها، في حال خاب ظنها في عشاقها الذين هم بدورهم يسيئون فهمها، فيحاولون أخذ كل شيء منها بأسرع وقت ممكن، وفي آخر الأمر تغرق هي في دمها، أما هم، فيمضون تاركين وراءهم مزيدا من الجراح على ما تبقى من أجزائها؛ يمضون إلى أن تصيبهم لعنتها.

إنها تشبهني أليس كذلك؟! وتشبه كلماتي هذه! كما ترى؛ أشكلها دون وعي وأدعها تتحرك كفرخ حمام ينقر قشرة البيضة إلى أن يحدث الفقس. وما إن تبدأ الكلمات بالخروج تباعا حتى تجدني قد هيأت لها ورقة بيضاء لتمشي عليها. الكلمات لدي تحبّ أن تمشي؛ تقاوم التعثرات والسقطات، لكنها تمشي.. تلعن الحظ أحيانا، تتأفف، تستسلم برهة، ثم تقوم ثانية لتواصل طريقها..

حقا الجزائر هي كلماتي، كما في أول مرة، أما باريس؛ في الواقع إن باريس أيضا تشبه كلماتي -لكن- بعد أن تكون أنت قد قمت بتنقيحها وترتيبها وجعلها مستعدة للظهور بأحسن مما هي عليه فعلا.

العواصم كالنساء، كلهن جميلات، لكن بعضهن يقع فريسة لإحساس قاهر باليتم؛ وحيدات يمشين وسط الخوف والعتمة والأوحال، بلا توقف، والبرق يلمع على خدودهن.. يمشين ولا يصلن أبدا، وحين يتملكهن اليأس يبكين خفية عن الجميع ويرسلن تنهدات عميقة، والجزائر هي كذلك يا «بيبي»، جميلة وطاعنة في اليتم.

هل رأيتها وهي تقاوم كل صباح كائنات النسيان الرخوة! تحاول التخلص منها، وكلما حاولت أكثر ازدادت تلك الكائنات رخاوة وصارت تفرز خيوطا لزجة تتكاثر حول ذراعيها وعنقها، بينما قدماها تضربان على الأرض الصمغية ضربات مخنوقة! وحين يتملّك الفتور أوصالها، تدّخر نفسا أخيرا يعينها على استنشاق رائحة الزرقة، وفي اللحظة الأخيرة تلوح للبحر. هل رأيت كيف يغير البحر طباعه مع كل نفس يتردد في قلب الجزائر؟!

هل رأيته وهو يهدر؟! يداهم حواجز وأشياء لا يمكن رؤيتها؟ يتململ كوحش مطعون في الأحشاء؟ يزبد ويموّج آلاما قذفتها هذه المدينة في أعماقه منذ سنين؟!

هل تدري أن البحر همس في أذني كلاما غامضا!

حدث هذا بينما كنت أحاول أن أجعل جسمي يستقر تماما بالمقعد الخاص بي في الطائرة التي حملتني إلى هنا، إلى باريس. كانت الطائرة قد ارتفعت عن الأرض، لكنها لم تكن قد غاصت بعد في السحاب،

كان ثمة ما يمكن رؤيته من النافذة؛ مربعات مبسوطة خضراء وأخرى بلون الاسمنت، ومبنى برتقالي بالقرب من مبنى آخر على شكل صهريج هو الأضخم على الإطلاق.

كان خدي لحظتها على وشك أن يلامس زجاج النافذة السميك، وكانت عيني مشدودة لمناظر تسارع إلى الاختفاء بحيث لا يمكن رؤيتها. لم أشعر بالاسترخاء إلا بعد أن ساعدني رجل كهل كان يجلس بجواري على تعديل وضع المقعد، أظن أنه تحدث لي بعبارات قصيرة عن معلومات تخص الجلوس الصحي، ووضع الساقين وما إلى ذلك من تلك العبارات المحددة. كان يبتسم لي برقة شديدة، ثم إنه أخذ بنفسه حقيبتي المحمولة ودسها في الصندوق الملحق بسقف الطائرة.

كان ذلك الرجل لطيفا جدا معي، حتى أنني تمنيت -ربما الآن تمنيت- لو أنه كان قد حضنني.

استرخيت أكثر وملت على النافذة، ذات الزجاج السميك، سميك وشفاف بحيث يبدو مهيأً لاستقبال دمعة حارة يُفترض أن تُفلت من جفني بينما أنا أسرح بنظري في جانب من صفحته.. صفحة البحر الممتدة، هناك في الأسفل.. أسرح بعمق.. وفي الداخل لهفة مسكرة تتسع..

كانت الطائرة قد ثبتت في الجو على سرعة توحي بأننا تجاوزنا مرحلة الإقلاع. إنني بالفعل أغادر، وفي كل مرة أرتفع مسافات أعلى، وقبل هذا كانت الطائرة قد غيرت زاوية اتجاهها فحجب جناحها مجال الرؤية، لبرهة. وإذا بي أشتاق لرؤية البحر، أشتاق لرائحته وأنفاسه وهو يهمس في أذني كلاما يخصني أنا وحدي؛ أقسم يا «بيبي» أنني سمعته، يتحدث دفعة واحدة بكامل لغتي التي أفهمها. وقلت له وداعا.. وداعا.. قلتها وسالت

دمعة على خدي، لقد بكيت بصمت، لكن بحرقة شديدة.. بكيت خفية عنه وعني وعن الرجل الكهل الذي كان يجلس بجانبي. ثم رأيته؛ أقصد رأيت البحر، من الأعلى يوشك أن يطلق صرخته المدويّة.

البحر حبيبي يا «بيبي»، وأنا حبيبته. أنا آخر حورياته اللائي يغنين ويضحكن وقت المساء فتتشكل موجات صغيرة، شفافة، سلسة كشعر عذراء ينسدل على حافة الغروب. أنا عذراء البحر يا «بيبي»؛ أنزل برشاقة وأقف على حدوده المتعرجة، حافية، يغطي الرغو قدمي، وفي الأفق قمر خافت خجول يريح باله في عينيّ.. عينيّ اللتين أغمضهما كلما تجاذبت الريح فستاني القصير أو شدت مطريتي الملونة.

الريح دائما تخاف لأن الريح دائما مجبرة أن تطير. أما البحر، فغير ذلك تماما؛ إنه يذهب إلى الأسفل، إلى الداخل.. يذهب نائما ويعود نائما، يرتفع نائما وينخفض نائما، بينما السفن في الميناء تمد أعناقها إلى الأعلى.

يا إلهي كم أعشق البحر! أعشقه وقادرة على تلقي رسائله السرية في كل لحظة.

...

...

مزاجي بحري هذا اليوم.

الأحاسيس تتوالد لدي كالإشارات الراديوية.

أغمض عيني وأحلم، أحلم أنني وحيدة بين الماء والسّماء، وحيدة، ممعنة في وحدتي مع البحر. والعالم؛ كأن العالم يستعيد هدوءه النهائي، مثلما يحدث عند نهاية معركة بحرية تنتهي بهزيمة الجميع وانتصار البحر. البحر

الذي يمكن رؤيته من نافذة الطائرة أو من نافذة بيت صغير يلامس الموج عتبته. يا الله؛ أريد أن أكون وحيدة مع البحر، آكل من خيرات البحر، أنام على صوت البحر وأتنفس هواءه. وعندما يصيبني الملل أدعو بعض الصيادين وقراصنة البحر ليسهروا معي؛ أتركهم يتحدثون لساعات طويلة عن فصول مغامراتهم الشيقة، وأصب لهم النبيذ.

أريد.. أريد يا «بيبي» أن أصاب بمرض البحر. بضربة بحر لا أنجو منها أبدا. أوفي الواقع، أريد أن أنجو لأمارس الحب الحرام في عرض البحر مع رجل فقد للتو ذاكرته، وفقد ملابسه أيضا وفقد خريطته التي كان يحملها طيلة رحلة ضياعه. رجل أزرق، لا اسم له. يبدأ من الأزرق وفي الأزرق يتلاشى. كما أن العلامة الوشمية على كتفه تكون قد زالت. أغطس وأطفو في حضنه. وكل موجة عظيمة عاتية تقذفني معه إلى أخرى أعتى وأعظم. وعند لحظة فاصلة يرتفع كل الموج إلى الأعلى، أعلى ما يمكن أن تكون عليه تفاحة جسدينا الملتحمين. يرتفع الموج ويرمي بنا إلى هاوية بعيدة لا نصل منتهاها، حتى أكون أنا قد بلغت قمة اللذة فأعود إلى رشدي، بينما يكون رجلي البحري قد بلغ نهاية المطاف. ويحدث أن يشير لي بيده، فأدرك أن قلبه على وشك أن يخذله. لقد مات؛ مات دون أن يترك أثرا أو يسجل وصية.

ألا يستحق أن يتكفل أحدهم بكتابة تاريخ حياته يا «بيبي»؟! حياته التي انتهت في لحظة بدايتها، حياته هذه، كما في أحلامي الحافلة بالزرقة والمحو والنسيان!

خذني إلى النسيان خذني يا «بيبي». وانس أنك صنيعتي، انس أيضا أنني صنيعتك. ألا تعلم؛ ألا تعلم يا «بيبي» أنك مجرد بطل صامت في قصّة

طويلة أواصل اختراعها.. ملامح كالحة في فضاء شاسع! وأن هذا الرجل الأزرق الذي قدرتُ له أن يموت بطريقة ملحمية، وهو يضاجعني، إنما هو.. أقصد:

إن هذا الرجل يمكن أن يكون حقيقيا، بل إنه كذلك بالفعل، أكثر مما أنت حقيقي.

# الفهرس


الفصل الأول .................................... 9
الفصل الثاني .................................... 41
الفصل الثالث.................................... 91
الفصل الرابع .................................... 133
الفصل الخامس.................................... 169
الفصل السادس.................................... 209
الفصل السابع .................................... 243
الفصل الثامن.................................... 275

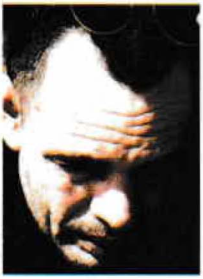

علي مغازي

أنا سونيا... أتفهم!

شعاري في هذه الحياة: "الخبز والمّا والرّاس في السما"، أنا معجزة ذاتي ولا فضل لأحد عليّ، لأنّ الكلّ لا يستحق؛ صح!

إذن اكتبْ، لا تتردّدْ، اكْتبني، لا تكتبْ عني. أقصد.. كيف أقول لتفهم؟ دعْك من الصّيغ، دعْك من ضمير المتكلّم فهو جاحد، واستمعْ إليّ أنا.

دعْك من تقنية السّرد والحبكة وما إلى ذلك. دعْك من هذا الذي تسمّيه الرّاوي؛ أتفهمْ؟ اطرده، كنْ قدره وارْمِ به إلى الشّارع كما رمى بي قدري إلى حيث النّتانة والحشود، الدّم وأشباه الرجال، البرد والوحشة والصّديد، المساطيل وبنات الليل... إلى هناك؛ إلى حيث تنعدم أيّة فرصة لتعريب الحياة العمليّة.

16

سنة عشر من عشرين

20

لوحة الغلاف للفنانة منال سيف

مكتبة نوميديا

ISBN:978-9931-585-54-1

9 789931 585541

ميم للنشر
Mim Edition